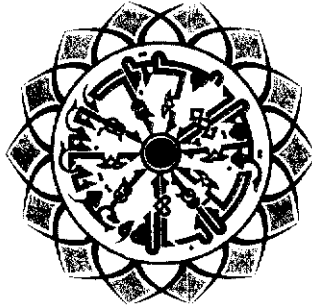


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ إِسْلَامِيَّةٍ جَامِعَةٍ

العدد التاسع والثلاثون • السنة العاشرة • رجب - رمضان ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

المراسلات والاتصالات مع رئيس التحرير على العنوان التالي :

* الجمهورية الإسلامية في إيران - قم . ص . ب : (٨٩٤ = ٢٧١٨٥)

* هواتف : ٧٧١ - ٧٧٤ فاكس : ٧٧٢٥١٧٩

* موقعنا على الانترنت :

www.ahl-ul-bayt.org

رسالة الثقلين

مجلد إسلامية بامعة

- تعنى باحياء المعارف الإسلامية من منبع الثقلين والدفاع عن حريم القرآن الكريم والسنة الشريفة للرسول الأمين ﷺ واهل بيته الطيبين الطاهرين ﷺ .
- تستقبل نتائج العلماء والمفكرين والكتّاب الاسلاميين التي تصب في رسالة الثقلين لتكريس وحدة الامة الاسلامية وتثبيت شوكتها في أرجاء العالم .
- الآراء الواردة فيما يُنشر لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة .
- تسلسل الموضوعات يخضع لاعتبارات فنية .
- يُرجى ممن يرفد المجلة بنتاجاته الاحتفاظ بصورة منها، فإنها لا تعاد نشرت أم لم تنشر .

مقالات العدد

□ كلمة التمرير

* قراءة في مصائد الاستكبار (٢)

«المحاصرة والردع الشامل» بقلم رئيس التحرير ٤

□ من أضاف القيادة الإسلامية

* فلسطين والحل الإسلامي

..... ولي أمر المسلمين آية الله العظمى السيد الخامنئي (دام ظلّه) ١٢

□ دراسات

* نظرية المعرفة في فلسفة الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) (٢)

..... الدكتورة عائشة يوسف المناعي (قطر) ٣٤

* المردود السلوكي للإنسان عند النعمة والإبتلاء

..... الشيخ محمد مهدي الآصفي ٦٠

□ من فقه مدرسة أهل البيت (ع)

* جواز الإقسام على الله محمد فاكّر المييدي ٨٧

* قواعد أصول الفقه :

٧- قاعدة : علائم الحقيقة والمجاز

٨- قاعدة : لفظ الأمر حقيقة في الوجوب

..... اعداد : لجنة في مجمع فقه أهل البيت (ع) ١٢٠

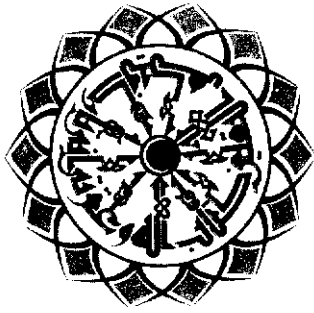
□ شبهة ورد

* فهم النص «عرض ونقد» : آراء غادامر والهرمنيوطيقا الفلسفية

..... السيد هاشم الهاشمي ١٢٨

□ سؤال وجواب

* السعادة كيف نجدها؟ (١) الشيخ عيسى أحمد قاسم (البحرين) ١٥٣



الجميع العالم الإسلامي

الشيخ

الشيخ

محمد علي التتلي

رئيس التحرير

الشيخ

فؤاد كظم الكرماني

○ العدد التاسع والثلاثون

○ السنة العاشرة

○ رجب - رمضان

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

○ المطبعة، بطن

□ رأي

* في حديث الثقلين (٢) بومزين العياشي (بلجيك) ١٨٠

□ من أعلام مدرسة أهل البيت (ع)

* الشريف المعتمد عبد العظيم الحسيني (١)

..... عز الدين سليم (العراق) ٢٠١

□ أدب في رباب الثقلين

* قصيدة: مطهرون أبو نؤاس ٢١٥

* قصيدة: السبط الزكي السيد محمد جمال الهاشمي ٢١٦

□ أهل البيت (ع) في روايات الصفاة

* روايات سلمان الفارسي قاسم السوداني ٢١٨

□ من أنباء الرضا

* الجمهورية الإسلامية في إيران

أفكار بعد الانتخابات الرئاسية..... ٢٣١

* فلسطين: مبادرة ميتشل.. مؤامرة لإجهاض الانتفاضة والالتفاف على

مكاسبها..... ٢٣٥

* البوسنة والهرسك: إصرار الصرب على موقفهم الصليبي بإقصاء

المسلمين..... ٢٤٠

* الدانيمارك: المجتمع الدولي والإسلام.. إقرار متأخر..... ٢٤٥

* من حصاد حضارة الاستكبار: الأمية.. الفقر.. اللاإستقرار في دول

جنوب العالم إفران لمنظومة دول شماله..... ٢٤٧

* أميركا: سباق التسلح.. ومشروع الدفاع الصاروخي، لمصلحة من؟

..... ٢٥٠

..... اعداد: قسم الأرشيف

□ مع قرآن الثقلين

* رسائل وتقويمات

..... اعداد: قسم العلاقات ٢٥٧

قراءة في مصائد الاستكبار (٢)

«المحاصرة والردع الشامل»

✽ بقلم رئيس التحرير

في كلمة التحرير السابقة ، وضمن قراءتنا لمصائد الاستكبار ،
أشرنا إلى الخطة الاستكبارية التي اعتمدت هذه المصائد
لتطويع العالم الثالث وخصوصاً المنطقة الإسلامية تحقيقاً لأهدافه
الاستراتيجية وضماناً لمصالحه الاستكبارية ، وكانت أولى قراءتنا في
مقولته الشهيرة : «الرضوخ للأمر الواقع» .

وفي كلمة هذا العدد ستكون قراءتنا الثانية في مقولة ومبدأ استكباري
آخر ، هو مبدأ : «المحاصرة والردع الشامل» .

إن المحاصرة الاستكبارية تستهدف أولاً وبالذات الحالات التي بلغت
الصحوّة والنضج للحدّ من اتساعها ونموها ، كي لا تنتشر فتعم سائر
المنطقة ، ولكي لا يتم تصدير ذبذبات الوعي إلى ما حولها ، والحيلولة

دون نشوء تيار متجانس وكيان متسق له شاخص يمثل القدوة والمحتذى من جهة ، ومن جهة أخرى يمثل الثقل السياسي في الانطلاق ، وبعبارة أخرى أن لا يكون لأي موقع رسالي متقدم دور ريادي ولا دور قيادي ، وهذان أساسان لكل تشكيلة حضارية .

والمحاصرة قد تتخذ أشكالاً متعددة فقد تكون اقتصادية وقد تكون عسكرية وقد تكون إعلامية وقد تكون سياسية ودبلوماسية ، ومن الخطأ أن نتصور أن ذلك قرار اتخذ ثم ألغي في فترة لاحقة ، بل أنه لا يزال مستمراً وينفذ بدقة تامة وبأشكال مختلفة قد تنطلي تطوراتها وتشعباتها على كثير من الواعين والمثقفين السياسيين وحتى على الإسلاميين منهم ، فيذهب بهم التصور بأن ما يحصل ماهو إلا عملية لا تقع ضمن التخطيط الاستكباري ، أو أنها وليدة الظروف الطبيعية والخاصة بالمنطقة ، وليس لها علاقة بالخطط الجديدة التي يستخدمها الاستكبار لإسقاط ومحاصرة الإسلام في المنطقة ، ولدينا مثال حي واضح لازلنا نعيش أصداءه وهو حادثة الغزو العراقي العسكري الشامل للكويت وضمها إليه بعد ذلك وما تبعته من تطورات في المنطقة .

إن هذا الحدث لم يكن وليد ظروف آنية ، كما أعلن عن ذلك ، بل إن أميركا والاستكبار قد أوصلت الأطراف المتنازعة ضمن اللعبة الدولية إلى ما آل إليه الوضع الحالي ، ضمن دراسة مسبقة لما سينتهي إليه المستقبل وفق كل الاحتمالات التي يمكن أن تصوغ الحدث ، والمهم أن تكون النتيجة لصالح أميركا والاستكبار العالمي . ففعلاً لاحظنا كيف أن أميركا استطاعت أن تسخر الحدث لصالحها بعد أن مهدت السبل

لوقوعه ، وكيف استطاعت بين عشية وضحاها إنزال قواتها وبشكل مكثف في المنطقة وبعناوين مختلفة ، ولسنا هنا بصدد طرحها الآن ، ويوماً بعد يوم نرى هذا التواجد الفعلي للقوة الأميركية أصبح نتيجة واقعة أملاها الغزو العراقي للكويت ، وإن كانت الذرائع والحجج مختلفة ، ويمكن من خلال ملاحظة مجريات الأحداث أن يتأكد لنا بأن وراء هذا الحدث أهدافاً وغايات أخرى لم يفصح عنها لحد الآن ، ولكن يمكن تشخيصها عند دراسة منطقة الشرق الأوسط وتشريح العوامل التي لها الدور الكبير في صياغة وصنع المتغيرات في المنطقة ، ويمكننا إجمال هذه العوامل بالنقاط التالية :

١ - نمو التيار الإسلامي وانتشاره في المنطقة وبالتحديد منذ انتصار الثورة الإسلامية في إيران وطرح الإسلام كعنصر حاكم على اللغة السياسية في المنطقة رغم وجود تيارات أخرى على مستوى الحكم أو التكتل .

٢ - اختلال خطط الاستكبار الاستراتيجية لحل المشكلة الفلسطينية، وانهيار كل محاولات تكريس إسرائيل كأمر واقع ، وبروز التيار الشعبي الإسلامي لحمل لواء القضية الفلسطينية على مستوى مناهضة أصل وجود دويلة إسرائيل ، بعد أن استطاعت دوائر الاستكبار العالمي تطويع المنظمات الفلسطينية العلمانية وتحويلها من الرافض للوجود الصهيوني في فلسطين إلى العمل على إنشاء دولة التسالم الفلسطينية إلى جوار دولة إسرائيل الصهيونية . فكان لبروز التيار الإسلامي في عمق الشعب الفلسطيني أثر بالغ في تحجيم هذه المنظمات ووضعها في زوايا محرجة تدور مدار الأنظمة العميلة في المنطقة .

٣ - بروز البؤر الثورية الإسلامية وبأشكال مختلفة في مواجهة الأنظمة العميلة رغم تباينها من حيث القوة في فترات زمنية متفاوتة ، ولا ينكر أن هذه البؤر الثورية جاءت كأثر مباشر لنجاح الثورة الإسلامية رغم أن بعضها لا يحكي الحس الإسلامي والثورة الإسلامية في المستوى المطلوب لها .

٤ - سقوط الأقنعة عن الوجوه العميلة من خلال أحداث ما بعد الثورة الإسلامية في ايران ، بحيث أصبحت الثورة الإسلامية - لما لها من باع طويل في مقارعة الاستكبار - مقياساً واضحاً لمصادقية ما تطرحه الأنظمة العميلة من شعارات برّاقة كاذبة ، ومدى ارتباطها بالعمالة والتبعية للاستكبار ، ولعل الذي يحصل في المنطقة ما هو إلا بداية سلسلة تغييرات لتحسين الوجوه العميلة فيها والتي انكشف زيفها أمام شعوبها ، وهذا لا يتم إلا بتغيير سياسي شامل يلعب فيه الاستكبار دوراً رئيساً وفقاً لشروط المقاومة ووعي الجماهير الذي بدأ يبرز تدريجياً على السطح .

٥ - فشل جميع محاولات إسقاط أو تحجيم الدولة الإسلامية كمحور في المنطقة ، بل وفي العالم الإسلامي ، وبروز الجمهورية الإسلامية في ايران ، كقوة جديدة على الساحة الدولية ، لها أثرها البالغ رغم أساليب الاستكبار في إجهاضها والقضاء عليها ، وقد برز هذا جلياً في مواقف الجمهورية الإسلامية الحديثة والدقيقة خلال سني الحرب وفي فترة ما بعد وقف إطلاق النار ومن خلال القضايا الإقليمية الحساسة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية .

٦ - انهيار الايديولوجية الماركسية للمعسكر الشرقي والتقارب

السياسي بين الشرق والغرب وحدث تغيرات أساسية على الخارطة السياسية للمعسكر الشرقي وانعكاس ذلك على منطقة الشرق الأوسط الإسلامي ، الذي أمتد تأثيره إلى إيجاد نوع من التطلع فيها نحو التغيير وخصوصاً لدى شعوب المنطقة .

وعليه رأى الاستكبار العالمي ضرورة أن يتكامل تطبيق مبدأ المحاصرة الاستكبارية ، بضم الردع المباشر والشامل إليه عن طريق المواجهة العلنية وعدم الحياء من التعامل بالهوية الوحشية الصريحة وسحق مشاعر الملايين والتحدي الحاد لكل بادرة ، والظهور بمظهر القاهر لا المفاوض ، وهذا الأصل ليس بالجديد ، وإنما الجديد فيه تحديثه وأجراؤه بعد التجميد عقيب الحرب الفيتنامية ، وهناك أكثر من مؤشر يدل على وجود مثل هذه النهج الجهنمي في المخيلة الاستكبارية ، فانتهاك حرمة الحرم الشريف بمكة في حج عام ١٩٨٧م بارتكاب أعظم مجزرة وقحة في التاريخ المعاصر من الوضوح بمكان ، بحيث لا تكاد تخفى على ذي الذهنية الاعتيادية فضلاً عن المتتبع السياسي ، وربما تحاول الأبواق الأجيبة أن تحجم الحادثة الفظيعة بأساليب تصويرية فنية عديدة ، فتزعم أن ما حدث في مكة إنما كان بين رجال الأمن والحجاج الإيرانيين ، والخلاف عادة يتطلب بعض الشدة التي قد تقترن بالارتجال .

يا لها من قابلية عجيبة على التزوير وقلب الحقائق وتصوير حلبة المعركة الواقعية بأنها مباراة شكلية بين متمازحين ، في حين أن طرفي الصراع الحقيقيين هما الاستكبار والإسلام الأصيل بما يمثلته من مواقف التحدي في الحج الإبراهيمي الحنيف ، فقاتلهم الله أنى

يؤفكون^(١).

ولدينا مؤشر آخر يؤكد ما أسلفناه من ماهية المخطط الاستكباري الرهيب في المنطقة الإسلامية ، وهو إعداد قوات التدخل السريع التي أنفقت أميركا جهوداً مكثفة لإظهاره على الساحة ، وجاءت الهزائم النكراء لتلك القوات لتدفع الاستكبار لإعادة حسابات القوة والقدرة التي يمتلكها في المنطقة ، ومن تلك الهزائم النكراء نكسته في صحراء طبس في إيران ، ومنها نكسته الأخرى في لبنان ، حيث ولت مدبرة إلى غير عودة حتى فاجأنا بظهورها في مياه الخليج الفارسي ، ولكن هذه المرة برزت تحت غطاء واسع من القوات الدولية ، وبعد اشتراك كافة اللصوص الكبار ومن يدور في فلهم في هذه الخطوة ، وبعد أن أخذت تصول وتجول تلك الأساطيل في المياه الدافئة في استعراض للعضلات ، لكن لم تغمض للجنود الأميركيين عين ولم يقر لهم قرار حتى ضربوا ضربتهم الخسيسة عندما قامت القطعات البحرية الأميركية بجريمتها التاريخية بشأن الطائرة المدنية التي راح ضحيتها أكثر من ٤٠٠ برئى ، وسقطت ورقة التوت عن البيت الأبيض وللمرة الألف وليعلنوا عبر رسالتهم الدموية هذه إلى الجمهورية الإسلامية في إيران بالذات وإلى دول المنطقة تلويحاً بأن منطق المحاصرة ثم الردع الشامل ينتظر كل من يتحدى أو يخرج عن إرادتهم ومخططاتهم في المنطقة .

والمواجهة الاستكبارية العلنية للإسلام لم تراوح في حدود البندقية؛ بل استعملت فيها كل الوسائل الممكنة ، وما كتاب الآيات الشيطانية عنّا ببعيد ، إذ أنه كان بمثابة تحدٍ صريح للتيار الإسلامي وللمسلمين في

العالم ، ولأول مرة في تاريخنا المعاصر نلمس الإسناد الدولي للكتاب القذر، فقد تبنته المطابع ودور النشر والترجمة بعشرات اللغات ، في حين أن نسبية أنشتاين لم تحظ بمثل هذا الاعتناء ولا بنسبة واحد بالمئة مما حظي به كتاب القصصي التافه سلمان رشدي ، وهذا دليل صارخ على أن الهجمة في غاية الشراسة والصلافة إلى الحد الذي يجعل القمم العربية والقمم الإسلامية ينتظر العديد من أعضائها أوامر أميركا وحلفائها ليتخذوا القرارات والمواقف التي تُملئ عليهم دون وازع من حياء أو خجل.

ولو عدنا بالذاكرة السياسية سنوات ؛ لوجدنا كيف يصرّح ، بكل وقاحة ، أحد رجال البيت الأبيض - في حينه - أن ما يجري في الشيشان يختلف عما يجري في ألمانيا الشرقية ، فمن حق روسيا أن تسحق الانتفاضة الإسلامية في آسيا الوسطى بالحديد والنار ، ومن حق الألمان أن يطالبوا بالاستقلال ، لأنهم لو خرجوا من العلبة الروسية سوف يدخلون في العلبة الغربية ، أما المسلمون في الشيشان الروسية وفي غيرها من دول القوقاز فهم يطمحون إلى الاستقلال الصرف . وهذه النظرة المتميزة للمنطقة هي التي تفسّر لنا السكوت العالمي المتعمد على الجرائم التي تمارس ضد جنوب لبنان من قبل لقيطة الاستكبار (اسرائيل) ، الأمر الذي يُجلبّ لنا الوحشية التي تقابل بها سواعد الحجارة في فلسطين المظلومة ، ولا تُصغي إلى ما يقال من أن ذلك حدث داخلي مربوط بتل أبيب وقراراتها ، لأننا لا يمكن أن نفسّر التشجيع الأميركي والحماس الاستكباري العالمي بأنه حالة اتفاقية وفي وقت العد التنازلي العربي .

ويطال منطق المحاصرة والردع الشامل عقائد المسلمين وإيمانهم برسالتهم الإسلامية فيضع الاستكبار مصائد الخبيثة لزعة ثقة الشعوب الإسلامية برسالتها بإشاعة عدم قدرة الإسلام على مواكبة التطور وعجزه عن حل أزمت الإنسان المعاصر ، وأن الدين الذي حلّ مشاكل مجتمع الجزيرة العربية قبل ألف عام يصطدم اليوم بإحراجات الواقع المعاش وتعقيداته بحيث يصعب الاحتفاظ بمصادقية الإسلام في بناء المجتمع الفاضل ، الذي طالما يحلم به المسلم ، وذلك من خلال التشويه والضبابية التي تثيرها وسائل الإعلام حول مجريات الأمور في الدولة الإسلامية المباركة ، وعرضها بشكل إخفاقات متتالية أقوى ما فيها الشعار ، ولعمري أن هذا أخطر سهم تضمّه الكنانة الاستكبارية .

ولقد بدأ يلوح لنا بفعل التطورات الأخيرة على الساحة السياسية أن الاستكبار أخذ بوضع بيوضه المحسّنة واحتضانها في أعشاش بعض دول المنطقة من خلال عسكرته المباشرة فيها ، وتحويل أرضها ومياهاها وسمائها إلى معسكر متحرك ملأت أصداء معدّاته المتطورة آذان شعوب الشرق الإسلامي المنكوبة ، مصحوبة بضجيج الخطابات المتبادلة والتصريحات الحادّة بين أقزام المنطقة من جهة ، وبين عمالقة الورق في أميركا وأوروبا غرباً وشرقاً من جهة أخرى ، كما يلوح لنا أن الزمن القريب سيرينا تفقيس بيوض الاستكبار تلك ، ولكنه سيرينا أيضاً انبعاث الرفض الإسلامي لكل أفراخ وإفرازات هذه اللعبة الشيطانية الخبيثة ، وهذا ما سيكون لنا حديث فيه لاحقاً.

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ صدق الله العلي العظيم.

والحمد لله رب العالمين .

فلسطين والحل الإسلامي

❦ ولي أمر المسلمين آية الله العظمى
السيد الفاضل «دام ظلّه»

من خطابين لولي أمر المسلمين آية الله العظمى السيد علي الخامنئي «دام
ظلّه». الأول بمناسبة إقامة المخيم الثقافي - العسكري لقوات التعبئة في طهران،
والثاني بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي لدعم الانتفاضة الفلسطينية في طهران.

الحمد لله الذي من علينا بهداية الإسلام وشرّع لنا الجهاد الذي
هو باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه..



و﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي
باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾.

القضية الفلسطينية قضية إسلامية :
إن القضية الفلسطينية قضية إسلامية .. وقضية كل العالم الإسلامي ..

وإن احتلال فلسطين واحد من أركان التآمر الشيطاني ، الذي عمدت إليه قوى الهيمنة العالمية ، ممثلة ببريطانيا سابقاً وبأميركا حالياً لإنهاك العالم الإسلامي وتمزيق صفوفه .

إن أعداء الإسلام كانوا جادين دوماً في إقامة الحواجز القومية والمذهبية بين المسلمين لإبعادهم عن توحدهم ومن ثم للسيطرة على مقدراتهم .

في بدايات أعوام احتلال فلسطين نهض علماء مجاهدون مثل «الشيخ عزالدين القسّام و «الحاج أمين الحسيني» فرفعوا صوتهم يستنصرون المسلمين لإنقاذ الوطن السليب ، وأصدر المرجع الديني الكبير يوم ذاك: «الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء» حكم الجهاد ضد الصهيونية ، لكن الطابع الإسلامي للقضية خف باستمرار لتتخسر في الإطار القومي. إن انتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني (ع) هذا الرجل الحكيم من ذرية رسول الله (ص) كان له الدور الكبير في الصحوة الإسلامية على الصعيد العالمي عامة ، وعلى صعيد بلدان المنطقة بشكل خاص .

إن انتصار المقاومة الإسلامية في حرب غير متكافئة على الظاهر في جنوب لبنان دلالة أخرى على مصداقية وأصالة الجهاد الإسلامي ، وتأكيده آخر على أن النصر حليف المسلمين حتماً إن وثقوا بوعد الله تعالى ، وجاهدوا في سبيله سبحانه .

مما لا شك فيه أن الانتصار الباهر الذي سجلته المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان من جهة وفشل مشاريع الاستسلام من جهة أخرى ، لمن العبر الكبرى في منطقتنا ، وهي التي دفعت بالشعب الفلسطيني المسلم لأن يعود إلى الانتفاضة مرة أخرى غير أنها عودة لا يمكن أن يكون فيها

لمحاولات الاستسلام داخل فلسطين أو في المنطقة تأثير على أبناء الشعب الفلسطيني الصبور والشجاع والمقاوم ، فلقد عزم هذا الشعب بحول الله وقوته أن يواصل مسيرته حتى النصر ..

فالانتفاضة الأولى توقفت بسبب ضغوط الانهزاميين والدوائر الأميركية والغربية ، وبسبب الوعود المعسولة التي قدمها الصهاينة وحماهم زاعمين أنهم سيمنحون الشعب الفلسطيني حقه في طريق المحادثات السلمية ، ولكن السنوات العشر التي مرت على تلك الوقفة أثبتت أن كل مساعي حماة الصهيونية في العالم إنما كانت لإنقاذ دويلة الصهاينة من ضغط النضال الإسلامي ، وأثبتت أن ما قدموه من وعود للمفاوضين الفلسطينيين لم تكن سوى سراب بقية يحسبه الظمآن ماءً . إن مظاهر البطش والعنف والإرهاب والاحتلال والتوسع المشاهدة اليوم بوضوح في ممارسات الصهاينة كانت متوقعة منذ البداية تماماً لكل ذي بصيرة ولكل المخلصين في المجتمعات الإسلامية .

دويلة الصهاينة الغاصبة الخادعة قامت أساساً على الاعتداء على الحقوق الحقة للشعب الفلسطيني ، ولاقت دعماً من بعض الحكومات الغربية وخاصة أميركا . والمحافل الدولية أيضاً سعت - من خلال خلق المبررات لتصرفات الكيان الصهيوني - إلى أن تضفي شرعية على هويته واعتداءاته .

احتلال فلسطين مؤامرة لتفتيت العالم الإسلامي :

إن الأرض الفلسطينية عامة والقدس خاصة كانت على مر التاريخ مطمع بعض القوى الغربية ، كما أن الحروب الصليبية المتواصلة الطويلة ضد المسلمين كانت مظهراً بارزاً لتلك الأطماع في هذه الأرض المقدسة ،

ولا غرو أن يقف ذلك القائد العسكري الغربي بعد انهزام الدولة العثمانية ودخول الحلفاء إلى القدس ، ويرفع عقيرته قائلاً : «الآن انتهت الحروب الصليبية» !

إن احتلال هذه الأرجاء نتيجة مشاريع متعددة الأطراف ومعقدة ، وبهدف منع المسلمين من الاتحاد والاحتلاف ومنع إعادة تأسيس دول إسلامية مقادرة . وثمة أدلة على أن الصهاينة كانوا على علاقة وثيقة بالنازيين الألمان ، وتقديم قوائم مبالغ فيها بمقتل اليهود إنما كان يستهدف إثارة عواطف الرأي العام العالمي ، وتهدة الأجواء لاحتلال فلسطين ، وتبرير جرائم الصهاينة ، بل إن ثمة وثائق تثبت أن جمعاً من الأشرار وحتالات البشر غير اليهود من شرق أوروبا قد عبأوهم ودفعوهم إلى فلسطين على أنهم يهود ليقيموا نظاماً معادياً للإسلام في قلب العالم الإسلامي بحجة حماية ضحايا النازية ، وليفصلوا بين شرق العالم الإسلامي وغربه ، بعد وحدة استمرت ما يقرب من أربعة عشر قرناً .

فوجئ المسلمون في بداية الأمر ، لأنهم كانوا في غفلة من حقيقة مشاريع الصهاينة وحماهم الغربيين . وانهزم العثمانيون ، وأبرمت اتفاقية سايكس - بيكو سراً لتقسيم البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط بين الفاتحين .. عصبة الأمم أناطت الوصاية على فلسطين بالبريطانيين ! وهؤلاء قدموا وعود المساعدة للصهاينة ، وفي إطار مجموعة من المشاريع المدروسة استقدموا اليهود إلى فلسطين وشردوا المسلمين من ديارهم .

وفي هذه المواجهة الطويلة التي كان أحد طرفيها الغرب والصهاينة والطرف الآخر الدول العربية الفتية ، استخدم أعداء الإسلام آليات متنوعة ومعقدة ومنها وسائل الإعلام والمحافل الدولية ؛ إذ كانوا

يدعون المسلمين من جهة إلى الصبر وضبط النفس والاشتراك في محادثات السلام والتسوية ، ومن جهة أخرى يغدقون السلاح على إسرائيل .

هدفهم الاستراتيجي في هذا التعامل المزدوج وغير المتكافئ بين البلدان الإسلامية ؛ وإسرائيل إنما هو حفظ التفوق العسكري الإسرائيلي على البلدان الإسلامية ، ومساندة الكيان الصهيوني في المحافل الدولية ، واستخدام أبواقهم الإعلامية لتبرير جرائم الصهاينة وترسيخ فكرة «إسرائيل التي لا تقهر» بين المسلمين .

الكيان الصهيوني ومنذ أن أقرت منظمة الأمم المتحدة تأسيسه قبل أكثر من نصف قرن وحتى العام الماضي كان يصول دونما مانع أو رادع ، غير أن المقاومة الإسلامية في لبنان ، وبعدة آلاف من شبابها المسلحين بسلاح الإيمان قضّت مضجع هذا الكيان وحماته .

هؤلاء الشباب الأعزاء طردوا إسرائيل وهي ذليلة من جنوب لبنان دون تقديم أي امتياز ، وأصبح انتصار هؤلاء الفتية الأعزاء مشعلاً يضيء الطريق أمام غيرهم من المجاهدين المسلمين .. ونحن اليوم نشهد انتفاضة المسجد الأقصى ، وهي نموذج موسع للمقاومة الإسلامية في لبنان .

المسؤولية الثقيلة للمسلمين :

واليوم إذا اجتمعتم أنتم أيها الأعزة ، من منطلق الفريضة الإسلامية ، لدعم الانتفاضة ، تتحملون مسؤوليات ثقيلة قبل كل شيء ، وفي ظل الصحوّة الإسلامية يجب أن تعلنوا عن إرادة العالم الإسلامي في العودة إلى السنن الحسنة في تاريخه المجيد ، وهذه السنن - وعلى رأسها

تضامن المسلمين - كانت وراء كل ما حققوه من انتصار في الماضي أمام المعتدين الصليبيين .

لقد كان المجاهدون في تلك المواجهات التاريخية يهتّون من كل أرجاء العالم الإسلامي لنصرة إخوانهم والالتحاق بالحرب المصيرية الطويلة الأمد بين الكفر والإيمان .

المسلمون في كل العالم اليوم منشدون إلى النضال المصيري في الساحة الفلسطينية ، ويعقدون الأمل عليه أكثر من الانتفاضة الأولى ؛ إذ كانت تلك الفترة - أعني قبل عشر سنوات - فترة هيمنة جو التسوية بالتدريج على المنطقة ، فقد كانت قلوب البعض مع أميركا ، وكان آخرون يعتقدون بعدم إمكانية الوقوف بوجه الضغوط السياسية الدولية ، وبعدم وجود طريق سوى التسوية ، ولو بثمن الرضوخ للشروط الأميركية والاسرائيلية ! كما أن التطورات التي شهدتها المنطقة يومئذ عملت على ترسيخ هذه النظرية .. لكن مؤتمر ينعقد في عامنا هذا وقد وصلت الدول الإسلامية إلى طريق مسدود ، وحتى أولئك الذين كانت ولا تزال قلوبهم مع أميركا يقرون بأن هذا الطريق مسدود .

في بداية التسعينات ساد العرب والمسلمين جو من الإحباط على أثر سلسلة من الهزائم المتتالية خلال أحداث حرب الخليج الفارسي ، وتعرضت وحدتهم الداخلية أيضاً لخطر انهيار جدي ، واستشرت فيهم الفرقة والتشتت . غير أن آمالاً جديدة حيوية سطعت في قلوب المسلمين في الظروف الراهنة خاصة بعد الانتصارات العظيمة للمقاومة في جنوب لبنان .

كان الأسلوب المطروح يومئذ في التعامل مع إسرائيل ينحصر في مسلكين :

الأول : مواجهة عسكرية بين الجيوش العربية وإسرائيل ، وكان يقال : إن كل التجارب منيت بالفشل في هذه المواجهة .

والثاني : التسوية التي تحقق مآرب إسرائيل بالطرق السلمية .. ومقابل الانسحاب من بعض الأراضي المحتلة يتقرر ضمان عدم تطوير القدرة العسكرية للبلدان العربية ، كما حدث في كمب ديفيد .

لم يكن نموذج المقاومة مطروحاً يومئذ ، وكان يقال : إنه لا يحظى بقبول عام ، لكننا اليوم أمام نموذج أثبت نجاحه واستطاع لأول مرة أن يحرر أرضاً محتلة دون أن يعطي أي امتياز لإسرائيل ، وحال دون تحقيق مآرب الصهاينة في رفع علمهم على عاصمة هذا البلد العربي ؛ أعني لبنان .

في كمب ديفيد كان شرط انسحاب إسرائيل عدم إرسال جيش مصري إلى شمال سيناء ، ولكن ها هي إسرائيل القلقة من قدرة المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان تتوسل لإرسال الجيش اللبناني إلى الحدود الفلسطينية اللبنانية ، وهذا يعني أن المقاومة استطاعت إعادة السياسة التامة إلى الجنوب اللبناني والمناطق المحتلة الأخرى .

هذه الانتفاضة هي ثورة شعب نفّض يده من كل أساليب التسوية ، وفهم أن النصر رهين مقاومته .. لقد تكبد الشعب الفلسطيني في انتفاضته السابقة خسائر جسيمة وقدم على طريق الإسلام وتحرير الأرض الإسلامية كثيراً من الشهداء والجرحى ، لكن محادثات أوسلو قضت بإيقافها في النهاية .

وماذا كانت نتيجة أوسلو ؟ حتى المخططون الفلسطينيون لتلك المحادثات لا يدافعون عنها اليوم ، لأنهم أدركوا عملياً أن إسرائيل كانت تريد فقط أن تتخلص من ورطتها ؛ أي أن تتخلص من مواجهة ثوار

الحجارة وتقلل ممّا يواجهها من أخطار ، وإذا ما أعطت شيئاً شحيحاً للجانب الفلسطيني وسمّته إعطاء امتياز ؛ فإنما كان لغرض إخماد شعلة الانتفاضة والتقليل من احتمالات الأخطار .. وما أن رأت أن مشكلتها قد انحلت وأحست - خطأ - أن الشعب الفلسطيني لم يعد قادراً على استئناف الانتفاضة والمقاومة والمواجهة حتى أوقفت ذلك الضئيل من الامتيازات وكشفت عن أهدافها الذاتية التوسعية .. إن مسيرة الاستسلام في مشروع أو سلو وضعت الشعب الفلسطيني أمام طريق واحد لا غير هو طريق الانتفاضة .

المحور الأساس في الانتفاضة الثانية هو المسجد الأقصى ؛ أي أن الشرارة التي فجرت غضب الشعب الفلسطيني هي تدنيس الصهاينة للأقصى .. والشعب الفلسطيني انطلق من إحساسه بالرسالة الخطيرة التي يحملها في حراسة واحد من أقدس الأماكن الدينية الإسلامية ، ودخل الساحة بقوة وأضرم شعلة المقاومة في النضال ضد المحتلين الصهاينة .

لقد أدت مسيرة الاستسلام وبشكل خاص في أو سلو إلى تشتيت الفلسطينيين ؛ لكن هذه الانتفاضة المقدسة استطاعت أن تعيد الوحدة الوطنية إلى الساحة الفلسطينية ، وتلاحظون أن كل فئات الشعب حاضرة في هذا النضال ، والفصائل الإسلامية والوطنية متكاتفه ، بل حتى أولئك الذين لا تزال قلوبهم في مكان آخر مضطرون إلى مماشاة هذا التحرك العظيم .

القضية الفلسطينية محور الصحوّة الإسلامية :

لقد برزت « النهضة الإسلامية » أو بعبارة أخرى « حركة الصحوّة

الإسلامية» على ساحة المنطقة والعالم الإسلامي بقوة وصلابة في العقدين الأخيرين بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران وظهور حركة الإمام الخميني عليه السلام.

إن المحور الأساس لهذه النهضة والصحوّة اليوم هو القضية الفلسطينية . وقد استطاعت انتفاضة الأقصى أن تتجاوز حدود فلسطين الجغرافية وتستقطب عامة الشعوب العربية والإسلامية .. إن مسيرات الملايين من أبناء الشعوب الإسلامية من شرق العالم الإسلامي حتى غربه أوضحت أن الشعب الفلسطيني يستطيع أن يعتمد على دعم هذه الشعوب ، وأنه قادر في الوقت ذاته أن ينهض بدور مهم في توحيد صفوف المسلمين .

ويوم انبثقت «المقاومة الإسلامية» في لبنان بسواعد الأبطال اللبنانيين وبتوصية الإمام الخميني عليه السلام ودعمه كانت إسرائيل تحتل العاصمة اللبنانية وكانت تسيطر على المقدرات السياسية لهذا البلد . يومها حين كانت المقاومة الإسلامية ترفع شعار : «زحفاً زحفاً نحو القدس» كان هناك من المغفلين من يعتقد أن هؤلاء أناس سذج بسطاء ! وكانوا يسألون كناية : هل من الممكن التحرك نحو القدس ، وأنتم اللبنانيون يتعذر عليكم دخول عاصمة بلدكم ؟! والزمان بين ذلك اليوم والانتصار التاريخي للمقاومة الإسلامية على إسرائيل ثمانية عشر عاماً فقط .. وتعلمون أن ثمانية عشر عاماً ليست بالزمان الطويل في تاريخ نضال الشعوب .

النضال دون شك مقرون بخسائر مؤسفة .. الناس يستشهدون والبيوت تهدم ، والضغوط الاقتصادية تثقل كاهل المواطنين ، وعشرات

المصائب الأخرى التي نشعر بمرارتها وآلامها من أعماق القلب . لكن المهم أن ننظر في نتائج هذه التضحيات . الانتصار له قيمته الكبرى ولا بد من دفع ثمنه ؛ «ومن خطب الحسنة لم يغله المهر» .

إسرائيل التي كانت يوماً تعربد ثملة في هذه المنطقة وتلمي كل شروطها على الشعوب العربية ، هي اليوم راکعة بضعف وكآبة أمام عظمة المقاومة الإسلامية ! وهذا جزء يسير من ثمار تفعيل طاقات الشعوب العربية والإسلامية .. ثقوا أن طاقات العالم الإسلامي جميعاً ، بل بعضها ، لو سخرت في هذا الاتجاه ؛ لرأينا زوال إسرائيل وفناءها .

إسرائيل هزمت في جنوب لبنان من مقاومة بضعة آلاف من الرجال .. صحيح أن حزب الله يتمتع بعمق شعبي واسع ، وأنه استطاع في الأوقات الضرورية أن يعبئ الآلاف بل عشرات الآلاف ، ولكنه على طول الخط كان يعتمد على بضعة آلاف بل بضع مئات في محاور المواجهة مع الصهاينة المحتلين ؛ أي أن إسرائيل بكل معداتها العسكرية وتقنياتها الحربية المتطورة المتصلة بالترسانة الحربية الأميركية قد انهزمت أمام بضع مئات من الشباب المؤمنين المتحمسين المزودين بسلاح بسيط للغاية .. وطبعاً بسلاح قوي للغاية هو سلاح الإيمان .

حزب الله سند قوي لانتفاضة الشعب الفلسطيني :

إذن نحن أمام نموذج واضح جلي للمقاومة أي يمكن تحقيق النصر بالمقاومة والنضال ؛ وطبعاً مع تحمل مشاق طريق ذات الشوكة .. كما أن نموذج الهزيمة ماثل أمامنا أيضاً وهو عقد الآمال على أساليب التسوية واستجداء السلام . ونتيجته واضحة أيضاً هي الوهن .. والذل .. وبالتالي

فرض إسرائيل من جانب واحد ، وقد رأينا ذلك بأُمر أعيننا .. فهل من مذكر؟!

إن حزب الله وانتصاراته التاريخية يشكّلان اليوم سند انتفاضة الشعب الفلسطيني وهو حتماً سند قوي في غاية القوة .

إن الكيان الصهيوني لا يمتلك إطلاقاً القدرة على المواجهة المستمرة الطويلة مع الفلسطينيين . لقد خدع اليهود وزج بهم في فلسطين على أمل أن يكف العرب عن الحرب ويلقوا السلاح ، وعلى أمل أن الغرب سوف لا يسمح للعرب بمواجهة طويلة .. ومن هنا فإن اليهود المستقدمين إلى فلسطين ليسوا على استعداد أن يضحوا بوجودهم من أجل تحقيق أهداف مؤسسي الصهيونية ، والتقارير تؤكد هبوط السياحة اليهودية في أرض فلسطين بشدة ، بل بدء الهجرة العكسية منها .

لقد نهض مؤتمر فلسطين الأول في طهران بدور أساسي ، ووفر محطاً لآمال معارضي الاستسلام ، كما بث روح الأمل في شعب فلسطين ورفع من معنوياته .. لقد استطاعت مواقف إيران الإسلام وصمودها الفريد أيضاً أن تشع بالأمل في قلوب أبناء هذا الشعب المقدام ، والشعب الفلسطيني يحتاج الآن أيضاً إلى الدعم المعنوي وإلى المواقف الصامدة .. صحيح أنه بحاجة إلى المال أيضاً ، ولابد لهذا الأمر من إجراءات جادة ؛ لكن المواطنين الفلسطينيين أنفسهم يقولون لمن يقابلهم : نحن نحتاج بالدرجة الأولى إلى مواقف وقرارات قوية عربية وإسلامية .

المسار العام للنضال ضد الكيان الصهيوني :

إن الدفاع عن الشعب الفلسطيني المظلوم وعن نهضته الباسلة

المظلومة واجبنا الإسلامي جميعاً ، وهو شعب مسلم مضمخ بالجراح يرفع صوته اليوم من وسط ساحة المعركة داعياً الأمة الإسلامية إلى نصرته .. لا أنسى أبداً صرخة تلك المرأة الفلسطينية التي وقفت أمام عدسات المراسلين تنادي بصوت مبجوح «يا للمسلمين» !

على كل المسلمين والعرب أن يدعموا شرعية النضال الشعب الفلسطيني ، ولا بد من التأكيد في المحافل الدولية على أن شعباً أعزل قد اغتصبت حقوقه ويقع تحت الاحتلال له الحق أن يناضل لاستعادة حقوقه .

لذلك فإن استمرار انتفاضة الشعب الفلسطيني ومقاومته حق مشروع لهذا الشعب ، والقوانين الدولية أيضاً تحترم ذلك ، مع أن هذه القوانين تفسر - مع الأسف - في اتجاه إرادة الاستكبار وقوى الهيمنة العالمية .

إن الكيان الصهيوني متآكل من داخله ، والجيل الصهيوني الحالي ليس على استعداد للفداء والتضحية من أجل حفظ ذلك الكيان . كما أن الشعوب العربية والمسلمة هي اليوم أكثر قوة وحيوية من أي وقت مضى في السنوات الخمسين الماضية ، وإذا أصبحت ذات قدرة في شتى المجالات .

لم يعد المسلمون قادرين على السكوت أمام مشهد القمع اليومي للشعب الفلسطيني ، ولا بد من افهام إسرائيل أن استمرار قمع الشعب الفلسطيني وقصف المناطق الفلسطينية سيواجه من كل العرب والمسلمين رداً جاداً وبكل شدة .

يجب تعزيز أمل الشعب الفلسطيني في استمرار مقاومته . كما أن

الشعب الفلسطيني يعلم جيداً أن الذي صد إسرائيل عن الممارسات القمعية في لبنان هو قدرة المقاومة في الرد عليها وفي انزال الضربات القاصمة بها ، لا الاعتماد على المساعي المسماة بالسلمية ولا على وساطة هذا وذاك !

إن وحدة الصف الداخلي الفلسطيني بفصائله المختلفة مسألة أساسية ، وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى انحراف المسير وإلى عدم التوجه إلى العدو الأصلي لا يصب حتماً في خدمة القضية الفلسطينية . إن الفلسطينيين قد خرجوا والحمد لله من امتحانهم خلال الأعوام الخمسين الماضية فائزين فخورين ، وأثبتوا جدارتهم ونضجهم في شتى المواقف .. ولقد رأينا أن كل مساعي إسرائيل لتوسيع شقة الخلاف بين المجاهدين باءت بالفشل ، فكل التيارات الأصيلة والحركات الجهادية والمجموعات المناضلة على اختلاف اتجاهاتها وانتماءاتها قد حالت دون تحقق آمال العدو بصبر ثوري . ولابد أن تستمر الحالة على هذا المنوال أيضاً .

لقد اتضح الآن بشكل لا لبس فيه أن أولئك الذين كانوا يرون القضية الفلسطينية حالة مرحلية وإقليمية محدودة بقسم صغير من العالم الإسلامي هم على خطأ تماماً .. إن ترسانات الأسلحة الذرية وأسلحة الدمار الشامل المخزنة في مستودعات العدو الصهيوني ليست لمواجهة الفلسطيني الأعزل ، بل لغرض السيطرة على العالم الإسلامي ، وخاصة على منطقة الشرق الأوسط .

إن ما نشاهده اليوم من هجوم إسرائيلي على القوات السورية للانتقام من عمليات حزب الله الرامية لتحرير الأرض المحتلة ، إنما هو

دليل واضح على هذه النوايا الشيطانية الشريرة لإسرائيل وحمايتها الغربيين .

وإن المسار العام للنضال ضد الكيان الغاصب يجب أن يكون على النحو التالي :

أولاً: فرض الحصار على الكيان الغاصب داخل حدود الأرض المحتلة وتضييق الخناق عليه في المجال الاقتصادي والسياسي وقطع ارتباطه بمحيطه الخارجي .

وثانياً : استمرار نضال الشعب الفلسطيني ومقاومته داخل الأرض المحتلة وتزويده بالمساعدات اللازمة التي تمكنه من الاستمرار حتى تحقيق النصر .

التعبئة الإسلامية في فلسطين :

إن في فلسطين تعبئة أيضاً ، تلك التعبئة الفلسطينية التي شدت إليها أنظار العالم اليوم ، وذلك في وقت تتحكم فيه أيادي حفنة من السياسيين في مصير القضية الفلسطينية ، حيث لا دور للشعب فيها ولا صوت للشباب ، مما يجعل عواقب الأمور كما رأيتم ، مذلةً بعد أخرى ، وانسحاباً إثر انسحاب ، فتركوا الساحة للأعداء ، وتخلّوا عن خنادقهم الواحد بعد الآخر لصالح عدو متجبر معتد صفيق ، ووقع ، بينما قد أبعادوا الشعب عن الساحة . لقد تجاهلوا الشعب ، وتناسوا الأهداف الحقيقية - أي الهدف العقائدي - التي تشدّ إليها الشعب ، وجعلوا القضية الفلسطينية ترتدّ على أعقابها إلى عشرات السنين الخالية . لقد قلت لأحد أولئك القادة الفلسطينيين عندما جاء إلى هنا في بداية الثورة : لماذا لا ترفعون شعار

الإسلام؟ فأتى بأعذار واهية! بأنهم لم يشاءوا ذلك، لأن قلوبهم لم تكن تنبض بالإسلام. واليوم، ومنذ اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً نزل الشعب الفلسطيني إلى الساحة باسم الإسلام ورافعاً شعار الإسلام، فأدرك العدو فوراً أصل القضية. فعندما اشتعلت شرارة الانتفاضة في العقد الماضي في فلسطين فإن الأعداء - أي الصهاينة وحلفاءهم الأميركيين - أحسّوا بالخطر قبل أي أحد آخر. فقرروا القضاء عليها لأنها تفجرت باسم الإسلام. ثم حاولوا معالجة الأمور لكنهم وجدوا أنفسهم عاجزين، لأنهم في الواقع لا يعرفون سوى منطق القوة.

إن الكيان الصهيوني كيان عنصري في فلسطين المحتلة، فهل يمكن أن نتوقع العدالة من كيان عنصري؟ إنه كيان جاء إلى الوجود عن طريق قوى السيطرة السياسية والاقتصادية العالمية، وذلك بغية الحيلولة دون اتحاد العالم الإسلامي، وتجريده من العزة والكرامة، وإعاقة المسلمين عن الظهور كقوة عظيمة متحدة كي لا يستطيعوا تشكيل أي خطر يُذكر، فهل يمكن توقّع العدل والإنصاف من كيان جاء لتحقيق مثل هذه الأهداف؟! إنهم لسذج أولئك الذين يتصورون أنه بالإمكان عقد مباحثات مع هذا الكيان، فإن أية محادثات مع الكيان الصهيوني تعدّ بمثابة فتح ميدان جديد له للتقدم. لقد ساعدوه في المحادثات بالأمس، فما كان من أمره إلا أن جاء اليوم مطالباً بالمسجد الأقصى! وهكذا تكون العاقبة عندما لا يدري المرء كيف يتصرف مع هكذا كيان متجبر، وعندما يريد اتخاذ قرار تحت تأثير ضغوط الأميركيين والصهاينة المتنفيذين ذوي السيطرة على اقتصاد العالم، فما كان من أمر الجماهير إلا النزول بنفسها إلى الساحة.

إن دخول عنصر صهيوني نجس وبغيض إلى المسجد الأقصى منذ ثلاثة أسابيع أثار مشاعر الجماهير ، فلو كان مدعو القضية الفلسطينية أو حكام البلدان العربية قد احتجوا على هذا التصرف ؛ لشعرت الجماهير أن هناك من يتحدث باسمها ، ولربما تغير مسار الأحداث ، ولكن الجماهير أدركت بأن عليها الحضور في الساحة ، فنزلت إلى الميدان . لقد مضت ثلاثة أسابيع منذ أن التهمت شعلة المقاومة في فلسطين ، ولقد قلت لهؤلاء الفتية الفلسطينين : اعلموا بأن جيلاً قد استيقظ وأن جيلاً قد نزل إلى الساحة ، فهل يمكن إطفاء شعلته بمثل هذه المقولات ؟ ! إن هناك شرذمة تقوم بارتكاب الجرائم وقتل عدة من الشباب والمظلومين ، إلا أن دماءهم تروى شجرة النهضة الفلسطينية والثورة الفلسطينية .

إن المشكلة ليست بتلك الصورة التي يمكن للسلطة الاستكبارية الأميركية أو عميلتها - الدويلة الصهيونية - معالجتها ببساطة ، فالحال أنه لا يمكن معالجتها ، إن شعباً أخرجوه من دياره ووطنه وبلاده ، عدا أولئك الذين يعيشون هناك تحت السيطرة الأجنبية ، مما أدى بهم إلى هذا الوضع ، فهل بالإمكان إخماد لهيب مثل هذا الشعب ؟ إن الأجهزة الاستكبارية تشكو من إيران بسبب معارضتها لمشروع الاستسلام ، وإننا لمعارضون طبعاً ، ولكن اعلموا أنه من السذاجة أن تتصوروا أنه بالإمكان حذف شعب من صفحات التاريخ والإتيان بشعب آخر مزيّف ليحتل موقعه حتى لو لم تكن إيران الإسلامية معارضة ، وحتى لو لم يقم أي شعب أو دولة في العالم بتقديم العون والمساعدة .. إن الشعب الفلسطيني شعب لديه ثقافة ، وتاريخ ، وتجربة ، وحضارة ، ولقد عاش

في هذه الأرض آلاف الأعوام ، ثم تأتون أنتم لتخرجوا هذا الشعب من دياره وأرضه وتفصلوه عن تاريخه ، وتجمعوا شرذمة من المشردين والضائعين والمزيفين والخطاء والانتهازيين من بلدان العالم ثم تخلقون شعباً مزيفاً من العدم ! فهل هذا ممكن ؟! ثم تقومون بممارسة الضغوط واستخدام القوة لفترة من الوقت ، فهل من الممكن مواصلة ذلك ؟ إنه لا يمكن مواصلته للأبد ، وقد تبدّت اليوم علائم ذلك .

الحل الوحيد للقضية فلسطين :

إن كلمتي الأولى حول فلسطين هي أنه لا توجد قوة في العالم بوسعها إخماد شعلة الحرية ولهيب عودة فلسطين إلى أصحابها الأصليين في نفس كل العالم وفي صدور الشعوب الإسلامية ، ولا سيما في صدر الشعب الفلسطيني ، وليس هناك سوى طريق واحد للحل ، ونحن نقول لأولئك الذين يعتبرون مشكلة الشرق الأوسط أزمة دولية ويقولون بأنه لا بد من السعي للتغلب على أزمة الشرق الأوسط وإنهاؤها ، نقول لهؤلاء جميعاً : بأنه لا يوجد سوى طريق واحد وهو استئصال شأفة الأزمة . فما هي جذور هذه الأزمة ؟ إنها الكيان الصهيوني المفروض على المنطقة . فما زالت جذور الأزمة لم تقتلع فإن الأزمة ستظل قائمة . إن طريق الحل هو السماح للمشردين الفلسطينيين في لبنان وفي أي مكان آخر بالعودة إلى فلسطين ، فليعد الشعب الفلسطيني من مسلمين ومسيحيين ويهود من أصحاب فلسطين الأصليين إلى بلادهم ، ويقوموا بإجراء استفتاء وانتخاب نظام للحكم في فلسطين . إن الغالبية العظمى من أبناء الشعب الفلسطيني هم من المسلمين بالإضافة إلى عدة من اليهود والمسيحيين الذين هم من سكان فلسطين الأصليين والذين كان آبائهم يعيشون

هناك ، فليقم هؤلاء بتقرير مصير نظام الحكم في بلادهم ، ثم يتخذ هذا النظام قراراً بشأن أولئك الذين احتلوا فلسطين طوال أربعين أو خمسة وأربعين أو خمسين عاماً ، فهل يبقى عليهم ، أو يعيدهم من حيث جاؤوا ، أو يسكنهم في منطقة أخرى ، فهذا كله يرتبط بالنظام الجديد الذي يحكم في فلسطين ، وهذا هو سبيل حل الأزمة . فما دام هذا الحل لم يُنفذ ؛ فلن يكون هناك حل عملي آخر ، ولن يكون باستطاعة الأميركيين القيام بشيء آخر مع كل ما لديهم من استعراض للعضلات ؛ لقد فعل هؤلاء كل ما كان بوسعهم ، وهذه هي النتيجة . وبالطبع فإنهم يشعرون بالسخط والاستياء إزاء أحداث الأسابيع الثلاثة الأخيرة في فلسطين المحتلة ، وحيال ثورة الشباب ، وشجاعة الرجال والنساء ، وتلك الإرادة القوية والعزم الراسخ الذي أظهره ذلك الشعب المظلوم ، فراحوا يتحون باللائمة على هذا وذاك ! كلا أيها السادة !! إن الجمهورية الإسلامية ليست هي السبب في نهضة فلسطين ، وإن الشعب اللبناني ليس هو الذي يقف خلف ثورة فلسطين ، بل هو الشعب الفلسطيني نفسه ؛ سبب نهضة فلسطين ، هو تلك الآلام والهموم المتراكمة في عمق هذا الجيل الشاب الذي نزل اليوم إلى الميدان بكل أمل ونشاط . وإننا بالطبع نشدّ على أيدي هؤلاء ، ونعتبرهم جزءاً منا ، ونعدّ فلسطين قطعة من لحم الإسلام ودمه ، ونشعر بالأخوة والقربة تجاه الشعب الفلسطيني وشباب فلسطين ، إلا أنهم هم أولئك الذين يتقدمون بالانتفاضة ويقودونها .

إن تلك الاتفاقيات التي عُقدت في «شرم الشيخ» وما إلى ذلك بين الأطراف اللا مسؤولة في القضية لا جدوى لها ولا تأثير ، وستكون مدعاة لخبث المشاركين فيها والموقعين عليها ، ولن تكون لها أدنى فائدة أو تأثير .

مناشدة للإخوة المجاهدين في فلسطين :

إنني أناشد الاخوة والأخوات الفلسطينيين : أن واصلوا جهادكم ، واستمروا في صمودكم ، واعلموا أنه ما من شعب يستطيع الحفاظ على شرفه واسترداد هويته واستقلاله إلا بالصمود والنضال . وإن أي شعب لن يكون بوسعه تحقيق أي إنجاز عن طريق التصاغر والانحناء أمام العدو ، فالعدو لا يمنح شيئاً بوسيلة الضعة والتذلل والرجاء . إن كل شعب بلغ طموحاته وحقق أهدافه في هذا العالم لم ينجز ذلك إلا بالعزم والإرادة والصمود والمواجهة ورفع الرأس عالياً . وإن بعض الشعوب تفتقر إلى هذه الإمكانيات ، ولكن شعباً يؤمن بالإسلام والقرآن والوعد الإلهي وقوله تعالى : ﴿ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ لخليق بهذه الإمكانيات .

إن نصيحتي الأخرى هي أن العدو يبذل قصارى جهده اليوم لإشغال فتيل الاختلاف بين الأوساط الفلسطينية ، حتى إن تلك العناصر الفلسطينية الخائنة تسعى هي الأخرى لزرع جذور الخلافات ؛ فكونوا على حذر من هذه المؤامرة التي ينسج العدو خيوطها . وعلى عناصر حماس ، والجهاد الإسلامي ، وفتح - شباب فتح الذين نزلوا إلى الساحة حديثاً - ألا يغادروا الميدان ، وأن يكونوا جميعاً يداً بيد . كما ينبغي عليهم ألا يلقوا سمعاً لأولئك الرؤساء والزعماء الذين يتحدثون لصالح العدو ويقومون بتوجيه الأوامر . وعلى أبناء الشعب الفلسطيني أن يجتمعوا حول محور العناصر المخلصة والمؤمنة والمضحية . وليعلم الشعب الفلسطيني - الذي يستقطب اليوم انتباه العالم الإسلامي - أن قلوب الأمة الإسلامية معه ، وأنها تدعوه ، ولو كان هناك طريق لمديد العون والمساعدة لما تأخرت الأمة الإسلامية لحظة في تقديمه ، شاءت

الحكومات أم أبت .. إن الأمة الإسلامية لن تتخلى عن فلسطين ، ولن تجفو شعب فلسطين ، ولن تتجاهل شباب فلسطين .

كما وأقول أيضاً لشعبنا العزيز بأن عليه أن يعرف قدر هذه الملحمة التي سطرها في مساندة إخوانه الفلسطينيين الأعزاء والتضحية من أجلهم فهي ملحمة رائعة ، حيث عبر بوضوح والحمد لله عن دعمه العظيم ومساندته الواسعة لإخوانه الفلسطينيين ، ممّا يمثل نموذجاً باهراً في العالم الإسلامي . إن كل العالم يدري مدى حب بلدنا الإسلامي العزيز إيران رجالاً ونساءً واهتمامه البالغ وعزمه الراسخ إزاء القضية الفلسطينية ، ولو كان بوسعه المساعدة لما توانى في تقديمها ، وبإله من أمر رائع أن يبادر المستطيعون بتقديم مساعداتهم المالية ؛ فحتى لو لم يكن باستطاعتنا تقديم العون العسكري والبشري ولم يكن بإمكان شعبنا وشبابنا الالتحاق بصفوف المواجهة ، فإن بالإمكان تقديم الدعم المادي وتسكين بعض آلامهم وتضميد بعض جراحهم وإظهار المحبة والودّ لأمهاتهم وآبائهم .

لقد شاهدتم ذلك الصبي الذي قتلوه وهو في أحضان والده ، فهذه لم تكن الحالة الوحيدة ، بل إن ثمة حالات أخرى مشابهة . إن عظمة هذه الحركة بلغت ذلك القدر الذي يجعل كل هذه التضحيات ضئيلة في أنظارهم ، كما حدث معكم أثناء الحرب المفروضة ، إلا أن تضحياتكم أذهلت كل العالم . وهكذا هو الشعب الفلسطيني اليوم ، حيث راح يستصغر الصعاب والتضحيات ، ولكنه أدهش الألباب وحير عقول العالم . إن حادث شهادة - كشهادة ذلك الصبي على صدر والده - يفجر عواصف المشاعر في صدور شعوب العالم ، وهو أمر يستحق فائق التقدير .

دعم القضية الفلسطينية من الأركان الاستراتيجية للجمهورية الإسلامية :
إن كل الضغوط الشاملة التي يوجهها الاستكبار العالمي وعلى رأسه
أميركا لإيران إنما سببها مواقف إيران المساندة لفلسطين .

قالوها بكل صراحة : إن المشكلة الأصلية بين أميركا وإيران هي
معارضة الجمهورية الإسلامية لمشاريع التسوية والاستسلام المذلة
في فلسطين .

أما بقية الأمور ، كالادعاء السخيف بشأن انتهاك حقوق الإنسان
وتصنيع أسلحة الدمار الشامل ، فلا تعدو أن تكون ذريعة .. وإذا كفت
إيران عن دعمها لنضال الشعبين اللبناني والفلسطيني فإنهم سيكفون
عن مواقفهم العدائية تجاه إيران .. نحن نعلم طبعاً بوضوح أن مشكلتهم
الأصلية هي الإسلام والحكم الإسلامي .

وهم أيضاً يعرفون جيداً حقيقة هذا الاتجاه في سياسات الجمهورية
الإسلامية .. كان جوابنا لهم هو الرفض ، وإنما نعتبر دعم الشعبين
الفلسطيني واللبناني من واجباتنا الإسلامية المهمة ، لذلك فإنهم
يوجهون إلينا ضغوطهم من كل حذب وصوب .. إن سياستهم الأصلية
والاستراتيجية هي بث بذور التفرقة بين الصفوف المتحدة المترابطة
للشعب المسلم الثوري الإيراني . فهم يطلقون على جماعة اسم
الاصلاحيين وعلى آخرين اسم المحافظين .. يساندون جماعة
ويركزون هجومهم على جماعة أخرى .

هؤلاء يسعون عن طريق تضخيم بعض الاشكاليات ليصوروا عدم
فاعلية النظام الإسلامي وليبثوا اليأس في القلوب من النظام الديني
ويروجوا لفصل الدين عن السياسة .

إن الإيمان الديني العميق في نفوس الجماهير أكبر سد في طريقهم ..
إنهم يحاولون بخططهم الإعلامية أن يبتثوا اليأس في نفوس الشباب ،
وأن يصوروا المشاكل الاقتصادية المتعارفة الرائجة بدرجة وأخرى في
كل أرجاء العالم بأنها من المشاكل المستعصية على الحل في الجمهورية
الإسلامية الإيرانية .. إنهم بخططهم الإعلامية يسعون إلى التشكيك في
مصادقية الإمام وأركان الثورة ، وسبب ذلك يعود إلى أن مصالحهم
تضررت من نهوض المسلمين والثورة الإسلامية .

إنهم يشعرون بالخطر من الصحوة الإسلامية في العالم ويحسون
بقلق شديد من اتساع نطاق النضال الإسلامي في لبنان وفلسطين ،
ولذلك شملوا عن ساعد الجد لاستئصال جذور الفكر الإسلامي ووجهوا
سهامهم الاعلامية السامة صوب الإسلام والدين .. وكلما اتسع نطاق
النضال في لبنان وفلسطين ازدادت الصهيونية وأميركا غضباً وحنقاً
على نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية وازداد تأمرهم علينا ، ولكنهم
يجب أن يعلموا أنه على الرغم من كل تضليلهم فإن الانسجام يسود بين
المسؤولين والرؤساء في بلدنا ، وأن الشعب الإيراني المسلم يقف بكل
قطاعاته وراء أهداف الثورة والإسلام والنضال ضد الصهاينة وحماتهم
من الأركان الأساسية والاستراتيجية للجمهورية الإسلامية الإيرانية .

نحن على يقين بأن فلسطين ستتحرر بمواصلة نضال الشعب
الفلسطيني ودعم العالم الإسلامي ، وستعود القدس ويعود الأقصى إلى
حضيرة العالم الإسلامي بإذن الله ﷻ والله غالب على أمره .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

نظرية المعرفة في فلسفة الشهيد السيد محمد باقر الصدر (٢)

الدكتورة عائشة يوسف المناعي (قطر)

نظرية المعرفة في الفلسفة الإسلامية :

بعد دراسته المستفيضة لمجمل المذاهب الفلسفية في المعرفة ونقدها ، يستخلص السيد محمد باقر الصدر ما يسميه بالخطوط العريضة لنظرية المعرفة في الفلسفة الإسلامية ، وذلك على الترتيب التالي :

الخط الأول : تقسيمها للإدراك إلى تصور وتصديق ، والتصور بمختلف ألوانه ليس له قيمة موضوعية لأنه عبارة عن وجود الشيء في مداركنا فقط . أما التصديق أو المعرفة التصديقية فهي المعرفة التي لها خاصة الكشف الذاتي عن الواقع الموضوعي . والفلسفة الإسلامية في هذه النقطة لا تخرج عن المنطق الأرسطي .

الخط الثاني : ترجع المعارف التصديقية جميعاً إلى معارف أساسية ضرورية يسلم العقل بها ويعتقد صحتها دون برهنة أو دليل ، وقيمة المعرفة تكون بمقدار اعتمادها على تلك الأسس ومدى استنباطها منها ، ولذلك فمن الممكن الحصول على معارف صحيحة في الميتافيزيقا والرياضيات والطبيعات إذا التزمت بتلك المبادئ العقلية الضرورية ، وتأتي نتائج الميتافيزيقا والرياضيات قطعية في الغالب دون النتائج العلمية في الطبيعات وذلك لأن الميتافيزيقا والرياضيات في التطبيق لا تحتاج إلى تجربة خارجية بعكس الطبيعات المتوقفة على التجربة .

الخط الثالث : يبحث في مدى تطابق الصورة الذهنية - فيما إذا كانت دقيقة - مع الواقع الموضوعي الذي صدّقنا بوجوده ، وفيها يرى السيد محمد باقر الصدر أن الصورة الذهنية التي نكوّنها عن شيء معيّن بالرغم من وجودها في أذهاننا إلا أنها تختلف عن الواقع الموضوعي اختلافاً أساسياً لأنها لا تملك خصائص الواقع التي يتمتع بها الواقع الموضوعي لذلك الشيء .

وهذا الشيء المتمثل في الذهن فاقد لكل الفاعلية والنشاط الذي يتمتع بها الشيء في مجاله الخارجي . وبتعبير آخر يؤكد السيد محمد باقر الصدر على أن الشيء الموجود في الصورة الذهنية هو الشيء الموجود في الخارج ، ولكنه يختلف في لون وجوده في الصورة الذهنية عن لون وجوده الخارجي . وهذا الفارق بين الفكرة والواقع هو ما يسمّى في الفلسفة بالفارق بين الماهية والوجود^(١) .

(١) فلسفتنا : ١٦٢ - ١٦٦ .

المبحث الثالث: الدليل الاستقرائي ومكانته من نظرية المعرفة :

الاستقراء هو كل استدلال يسير من الخاص إلى العام، ولما كانت هذه الطريقة هي الأسلوب المستخدم في التجارب العلمية؛ فقد أطلق على «الاستنتاج العلمي القائم على أساس الملاحظة والاستنتاج العلمي القائم على أساس التجربة بالمفهوم الحديث للملاحظة والتجربة»^(١). والفرق بين الملاحظة والتجربة: أن الملاحظة تتمثل في اقتصار المستقرئ على مشاهدة الظواهر على ما هي عليه في الطبيعة. أما التجربة فتعني التدخل الفعلي العملي في تعديل سير الطبيعة لتبديل ظواهرها ومشاهدة ما ينشأ عن هذا التبديل^(٢). وقد أراد السيد محمد باقر الصدر من تعريفه للاستقراء أن يدخل فيه الملاحظة والتجربة، وهذا أمر يخالف فيه المنطق الأرسطي الذي لم يميز - بصورة أساسية - بين الملاحظة والتجربة في موضوع الاستقراء، ومن هنا جاء تقسيمه للاستقراء إلى استقراء كامل واستقراء ناقص، فالكامل هو تتبع جميع الجزئيات، والناقص تتبع بعض الجزئيات وفي الحاليين ينتقل المستقرئ من الجزئيات إلى الحكم الكلي العام الذي يشملها جميعاً. وفلاسفة الإسلام ينهجون نهج أرسطو في هذه المسألة، فابن سينا - مثلاً - يقول عن الاستقراء: «الحكم على كلي بما وجد في جزئياته الكثيرة، مثل حكمنا بأن كل حيوان يحرك فكه الأسفل عند المضغ استقراء للناس والدواب والطيور»^(٣) فالاستقراء التام - إذن - هو مسح شامل ودقيق لجميع الجزئيات ثم تعميم الحكم الثابت على كل جزئي، ولذلك تكون نتيجته يقينية، ولكنه لا يفيد علماً جديداً - كما يرى بعض الباحثين - لأن النتيجة فيه مساوية لمقدماتها، ولذلك يعد

(١) باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء: ٢٢.

(٢) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي ٢: ٤١٥، وأيضاً محمد باقر الصدر، المصدر السابق: ١٣.

(٣) الإشارات والتنبيهات، تحقيق سليمان دنيا ج ١ ط ٢، دار المعارف بمصر ص ٣٦٧.

الاستقراء التام استنتاجاً لا استقراء ، وفائدته تنحصر في مجرد الاختصار «فهي إذن عملية إحصائية لا تفيد في تقدم العلوم الطبيعية، ولهذا لم يعره المناطق اهتماماً كبيراً»^(١).

والسيد محمد باقر الصدر يرى خلاف ذلك بمعنى أن الاستقراء الكامل ليس من قبيل الاستدلال الكامل في منطق أرسطو ، فهو لا يعد استقراء واحداً بل يعد استقراءين : أحدهما يحصر الأفراد كقطع الحديد مثلاً كلها ، والآخر يفحص أفراد تلك المجموعة قطعة قطعة . والنتيجة التي يخرج بها هي قضية جديدة وهي (كل الحديد يتمدد بالحرارة) ، يقول الصدر : «والاستدلال الاستقرائي على هذا الأساس صحيح من الناحية المنطقية لأنه استدلال على قضية جديدة مستنتجة من القضايا التي عرفت خلال استقراءين مزدوجين»^(٢).

وبالرغم من ذلك يوجه السيد محمد باقر الصدر نقده لموقف أرسطو من الاستقراء الكامل ، ولا يتسع المجال هنا لأن نستقصي نقده ذلك ، إلا أن الأساس الذي بنى عليه نقده هو أن الاستقراء الكامل لا يمكنه أن يستخدم للاستدلال على القضايا الكلية في العلوم استخداماً منطقياً على أساس مبدأ عدم التناقض . ويلخص ذلك في حكمه على أن الدليل الاستقرائي في المنطق الأرسطي يستبطن قياساً «فهو في الحقيقة دليل قياسي من العام إلى الخاص ، وليس دليلاً استقرائياً يسير من الخاص إلى العام»^(٣) يؤكد هذا رأي ابن سينا واتفاقه مع وجهة أرسطو ، يقول د . ابراهيم مذكور في حديثه عن ابن سينا : «ويكاد يلتقي مع أرسطو ... فهو يقول بالاستقراء التام الذي ورد في كتاب (التحليلات الأولى) على صورة

(١) د . رفقي زاهر، المنطق الصوري، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ القاهرة ١٩٨٠ م ص ٢٠٦.

(٢) الأسس المنطقية : ٢٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٢ .

قياس من الشكل الأول ... وقد زعم بعض الشراح أن النوع الأول لا يعد استقراء»^(١).

ويرى الصدر أن المنطق الأرسطي يسمي هذا الدليل الاستقرائي بما يستبطن من قياس (تجربة) وهي أحد مصادر المعرفة اليقينية عند أرسطو ، وذلك «خلافاً للاستقراء الناقص الذي يمثل أحد عنصري التجربة ، ويعطي صغرى القياس المستبطن فيها ، فالتمييز بين التجربة والاستقراء الناقص في المنطق الأرسطي يقوم على أساس أن الاستقراء الناقص مجرد تعبير عددي عن الأمثلة التي لوحظت خلال الاستقراء ، وأما التجربة فهي تتألف من ذلك الاستقراء ومن مبدأ عقلي مسبق ، يتكون منهما معاً قياس منطقي كامل»^(٢).

إذن فأرسطو يثق تماماً بالاستقراء الكامل بل ويتخذ «منه الأساس لكل الأقيسة والبراهين ، لأن كل هذه البراهين تستمد من المقدمات الأولية، وهذه المقدمات تثبت بالاستقراء لا بالقياس»^(٣).

ويفهم من هذا أن الصدر في تعريفه للاستقراء أخرج منه التقسيم الأول في مفهوم أرسطو ، وهو الاستقراء التام ، ولم يسمه استقراء ، بل سماه استنباطاً . واعتبر هذا تجاوزاً من أرسطو لمفهوم الاستقراء الذي حدده الصدر بالتعريف السابق ، ويقول استيفاء لكلامه : «وهذا يعني أن الاستقراء الذي ندرسه في بحوث هذا الكتاب هو أحد قسمي الاستقراء الأرسطي»^(٤) ويقصد به الاستقراء الناقص ، وهو الذي يستحق معالجة

(١) كتاب الشفاء، قسم المنطق، مراجعة وتقديم د. إبراهيم مدكور، تحقيق سعيد زايد ، القاهرة ١٩٦٤م ص ١٦.

(٢) الأسس المنطقية : ٣٢.

(٣) المصدر نفسه : ١٦.

(٤) المصدر نفسه : ١٤.

الصدر له - كما يرى - .

لذلك يرى كثير من الباحثين وشرّاح المنطق الأرسطي ينكر التعميمات الاستقرائية ولا يعترف بالقضايا المستدلة بالاستقراء الناقص . وكان هذا ناتجاً عن فهمهم الخاطئ - على حد قول الصدر - في تفسيرهم وتمييزهم بين الاستقراء الناقص والتجربة في مفهوم المنطق الأرسطي ، بأن الاستقراء الناقص هو ملاحظة الأشياء الجاهزة الموجودة في الطبيعة ، وهي من هذا القبيل ملاحظة منظمة في لغة المنهج العلمي الحديث . وهي لا تصلح أساساً للعلم ، أما التجربة فهي عمل إيجابي يقوم به الإنسان وفيه تأثير وتأثر ولذلك فهي قادرة على إثبات التعميم .

هذا الاستقراء الذي يؤكد المنطق الأرسطي ومن تابعه من الفلاسفة على أن تعميم الظاهرة والمستنتجة فيه من استقراء حالات تختلف في بعض الخصائص الملحوظة والمقومات ؛ يؤكدون على أنه تعميم خاطئ ، لأن الحالات التي لم يشملها الاستقراء تختلف عن التي شملها في بعض تلك الخصائص ، ولذلك «فليس من حقنا أن نستنتج استقرائياً أنها جميعاً تشترك في إيجاد ظاهرة واحدة ، لأن من الممكن أن يكون اختلافها في الخصائص والمقومات سبباً لاختلاف نوع علاقتها بتلك الظاهرة»^(١) ويستشهد الصدر بنصين في الموضوع لابن سينا والإمام الغزالي تابعا فيهما المنطق الأرسطي ، يقول ابن سينا : «وأما الاستقراء فهو الحكم على كلي بما وجد في جزئياته الكثيرة ، مثل حكمنا بأن كل حيوان يحرك عند المضغ فكه الأسفل ، استقراءً للناس والدواب والطيور ، والاستقراء غير موجب للعلم الصحيح ، فإنه ربما كان عالم يستقرأ

(١) باقر الصدر ، الأسس المنطقية : ٢٩ .

بخلاف ما استقرئ مثل التمساح في مثالنا ، بل ربما كان المختلف فيه والمطلوب ، بخلاف حكم جميع ما سواه» ، والإمام الغزالي يقول : ولا يكفي في تمام الاستقراء أن تتصفح ما وجدته شاهداً على الحكم إذا أمكن أن ينتقل عنه شيء ، كما لو حكم إنسان بأن كل حيوان يحرك عند المضغ فكه الأسفل ، لأنه استقرأ أصناف الحيوانات الكثيرة ، ولكنه لم يشاهد جميع الحيوانات ، لم يأمن أن يكون في البحر حيوان هو التمساح يحرك عند المضغ فكه الأعلى - على ما قيل - .. فإذا حصل من هذا أن الاستقراء التام يفيد العلم ، والناقص يفيد الظن»^(١).

وينكر الصدر هذا الفهم الأرسطي - في عدم إفادة الاستقراء الناقص التعميم - ويرى أن أرسطو ومن تابعه يلزمهم الإيمان بإمكان التوصل عن طريق الاستقراء الناقص إلى التعميم ، بشرط أن يشترك فيه مبدأ عقلي قبلي «لأن المنطق الأرسطي لم يرد بالتجربة التي اعتبرها أساساً للعلم بالتعميم كما تقدم ، إلا نفس الاستقراء الناقص ، ولكن في حالة تكوين قياس منطقي يستمد صغراه من الاستقراء ، وكبراه من مبدأ عقلي قبلي ينفي تكرار الصدفة ، فالتجربة لا تختلف عن الاستقراء الناقص في نوعية النشاط الذي يمارسه الإنسان ، وكونه نشاطاً إيجابياً فاعلاً أو مجرد ملاحظة ؛ بل تختلف عنه في اشتغالها على مبدأ عقلي قبلي ينضم إلى الأمثلة الكثيرة المستقراة فيتكون من المجموع قياس كامل»^(٢).

هذا الاتجاه الأرسطي في تفسيره للدليل الاستقرائي في نظرية المعرفة يؤمن بأن العقل مصدر لمعرفة قبلية مستقلة عن التجربة والاستقراء . ولذلك فبإمكان ذلك المنطق أن يبرر التعميمات الاستقرائية

(١) معيار العلم ، دار ومكتبة الهلال ، ط بيروت ١٩٩٢ م ، ص ١٣٦ .

(٢) الأسس المنطقية : ٣٥ .

ويرجعها إلى قضايا عقلية قبلية من قبيل المبدأ القائل : «إن الاتفاق لا يكون دائماً ولا أكثرياً» .

ويتفق السيد محمد باقر الصدر مع أرسطو في إيمانه بالمعرفة العقلية القبلية ، ويتفق معه - أيضاً - في نقطة أخرى وهي أن الاتفاق في الطبيعة لا يكون دائماً وأكثرياً . ولكنه يختلف معه بل وينكر عليه أن يكون هذا القول أو المبدأ مبدأً عقلياً أولياً ، وذلك «فعلنا به ليس علماء عقلياً قبلياً ، بل هو نتاج من نتاجات الدليل الاستقرائي نفسه ، فلا يمكن أن يشكل الأساس المنطقي للاستقراء ويقدم له المبرر الحلي الكافي»^(١) .

وتفسيراً لهذا النص يلقي الشهيد الصدر الضوء على مشكلات ثلاث تواجه دليل الاستقراء الناقص في محاولته للانتقال بحكمه من الخاص إلى العام ، أو ما يسميها الصدر - على حد تعبيره - الطفرة من الخاص إلى العام . ويهدف الصدر من ذلك إلى بيان موقف المنطق الأرسطي من تلك المشكلات ، ومحاولته تقديم العلاج عن طريق مصادرات ثلاث يفترضها المنطق الأرسطي بها يتمكن الدليل الاستقرائي من التعميم .

المشكلة الأولى : يجب أن يثبت الدليل الاستقرائي سببية عامة لكل ظاهرة طبيعية ، وبدون إثبات ذلك يصبح - مثلاً - من المحتمل أن يكون تمدد الحديد غير مرتبط بأي سبب .

المشكلة الثانية : إذا ثبتت السببية العامة ؛ لابد وأن يثبت سبباً بعينه ، بمعنى أنه كلما تمدد الحديد - مثلاً - لابد وأن يكون سببه وجود الحرارة دون غيرها .

والدليل الاستقرائي هنا يحتاج إلى برهان يثبت به أن سبب تمدد الحديد هو الحرارة ؛ لأن مجرد الاقتران بين التمدد والحرارة في التجربة

(١) المصدر نفسه : ٣٦ .

لا يصلح برهاناً من الناحية المنطقية على السببية بينهما ... وبذلك تكون المشكلة في احتمال وجود الصدفة قائمة .

المشكلة الثالثة : إذا ثبتت السببية العامة والسببية الخاصة ؛ فعلى الدليل الاستقرائي أن يثبت أن هذه السببية سوف تستمر في المستقبل في كل الحالات المماثلة التي تشملها التجربة ليكون التعميم شاملاً^(١) .

والمنطق الأرسطي يعالج المشكلتين الأولى والثالثة عن طريق الفلسفة العقلية التي يؤمن بها ويؤمن معها بوجود معارف عقلية مستقلة عن الحس والتجربة ، تلك المعارف تتمثل في مقولة : (إن لكل حادثة سبباً) وهذا مبدأ عقلي مستقل عن التجربة والخبرة الحسية ، ومقولة : (إن الحالات المتشابهة من الطبيعة تؤدي إلى نتائج متماثلة) وهذه قضية عقلية مستقلة عن التجربة ، ومستنبطة بطريق البرهان من مبدأ السببية . أما المشكلة الثانية : فهي التي يرى فيها المنطق الأرسطي أنها مشكلة حقيقية تقف أمام الدليل الاستقرائي الذي لا يستطيع وحده التغلب عليها ، لذلك لا بد في حلها من افتراض قضية عقلية قبلية تنفي أن يكون اقتران الظاهرتين مجرد الصدفة ، بذلك يستطيع الدليل ، الاستقرائي التعميم .

إذن فالمنطق الأرسطي يعالج المشاكل الثلاث بافتراض قضية عقلية قبلية لكل مشكلة . فيفترض مبدأ السببية لعلاج مشكلة احتمال الصدفة المطلقة ، ويفترض مبدأ نفي تكرار الصدفة النسبية لعلاج مشكلة الصدفة النسبية ، ويفترض مبدأ الحالات المتماثلة التي تؤدي إلى نتائج متماثلة لعلاج مشكلة احتمال التغير وعدم الاطراد .

ويلخص السيد محمد باقر الصدر موقف المنطق الأرسطي ومصادراته الثلاث التي يفترضها لحل المشاكل التي تعترض قدرة

الدليل الاستقرائي على التعميم في نقطتين رئيسيتين :

الأولى : إن المنطق الأرسطي يؤمن بأن الدليل الاستقرائي بحاجة إلى ثلاث مصادرات ، لا بد من افتراضها مسبقاً لكي يتاح للدليل الاستقرائي أن يتغلب على مشاكله الثلاث ، ويؤدي إلى العلم بالتعميم المطلوب . وما لم نسلم بتلك المصادرات تسليماً مسبقاً ؛ لا يمكن الاعتراف بالعلم الاستقرائي والمنهاج الاستقرائية في الاستدلال .

الثانية : إن المنطق الأرسطي يؤمن بأن مبدأ السببية ، والمبدأ الذي ينفي تكرار الصدفة النسبية ، والقضية القائلة : إن الحالات المتماثلة تؤدي إلى نتائج متماثلة ، هي قضايا عقلية قبلية مستقلة عن التجربة والاستقراء ، ومن أجل ذلك وجد فيها المنطق الأرسطي تلك المصادرات الثلاث التي يحتاجها الدليل الاستقرائي^(١) .

ويرى الصدر أن المنطق الأرسطي لم يكن موفقاً في بحثه عن تلك المصادرات ، لأن كل مصادرة من تلك المصادرات الثلاث يمكن إثباتها عن طريق الاستقراء ذاته . يقول الصدر عن نظريته في إيمانه بالدليل الاستقرائي أنها «تؤكد أن الاستقراء يؤدي إلى التعميم بدون حاجة إلى أي مصادرات قبلية ، وسوف يبدو بوضوح في ضوء تلك النظرية أن المصادرات الثلاث التي آمن بها المنطق الأرسطي وربط مصير الدليل الاستقرائي بها ، يمكن إثباتها جميعاً بالاستقراء نفسه ، كما نثبت أي تعميم من التعميمات الأخرى عن طريق الدليل الاستقرائي»^(٢) .

ويستفيض السيد محمد باقر الصدر بعد ذلك في كتابه «الأسس المنطقية» في شرح وتفسير وبيان فكرته تلك ، محاولاً إثبات فكرة قدرة

(١) الأسس المنطقية : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) الأسس المنطقية : ٦٦ .

الدليل الاستقرائي - القائم على حساب الاحتمالات - على إثبات وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى .

ويعتمد الصدر في محاولته لإثبات فكرته - في إيمانه بالدليل الاستقرائي كمنتج للتعميمات - على مرحلتين يمر بهما الاستقراء ، ويرى أن طريقته في تفسيره للاستقراء بهذه الصورة يختلف ويتميز عن غيره مما هو مشهور ومعروف عن الأدلة الاستقرائية :

الأولى : مرحلة التوالد الموضوعي (نظرية الاحتمال) .

الثانية : مرحلة التوالد الذاتي (المذهب الذاتي) .

هاتان المرحلتان : ناتجتان عن جانبين من جوانب المعرفة هما : الذاتي والموضوعي ، فمثلاً حين نعرف أن الشمس طالعة لابد أن نميز بين عنصرين :

أ - الإدراك وهو الجانب الذاتي من المعرفة .

ب - القضية التي أدركناها والتي لها واقع مستقل عن الإدراك . وهذا هو الجانب الموضوعي .

وإذن فتولد المعرفة موضوعياً لابد أن يكون عن طريق التلازم بين قضية أو مجموعة من القضايا وقضية أخرى ، ومن ثم تنشأ معرفة بتلك القضية من معرفة سابقة بالقضايا التي تستلزمها ، وتسمى هذه العملية بالتوالد الموضوعي ، لأنها نابعة من التلازم بين الجانب الموضوعي من المعرفة المولدة ، والجانب الموضوعي من المعرفة المتولدة . ومثاله : معرفتنا الموضوعية (بأن خالداً إنسان ، وأن كل إنسان فان) تتولد عنها معرفة (بأن خالداً فان) فالنتيجة هنا جاءت ملازمة للمقدمات التي تكون منها هذا القياس .

أما التوالد الذاتي : فلا يكون هناك تلازم بين موضوعي المعرفتين

بأن تكون هناك معرفة ، ويولد علم على أساس معرفة أخرى . والتلازم هنا يكون بين نفس المعرفتين ، فهنا نجد المبرر لنشوء معرفة من معرفة أخرى هو التلازم بين الجانبين الذاتيين للمعرفة ، وأن هذا التلازم ليس تابعا للتلازم بين الجانبين الموضوعيين .

ويرى الصدر أن المذهب العقلي يمثله المنطق الأرسطي يرجع المعارف الصحيحة منطقياً إلى نوعين : معارف عقلية أولية ، ومعارف مستنتجة من تلك المعارف العقلية الأولية على أساس طريقة التوالد الموضوعي . أما المذهب الذاتي الذي يمثله السيد محمد باقر الصدر فيذهب إلى النوع الثاني من المعارف والعلوم التي يعترف بصحتها المنطق الأرسطي مستنتجة من النوع الأول بطريقة التوالد الذاتي لا الموضوعي . وكل التعليمات الاستقرائية يعدها الصدر معارف ثانوية مستنتجة عن طريق التوالد الذاتي . وهو لم يرد بإثبات ذلك إنكار دور التوالد الموضوعي في المعرفة ، بل أراد أن يضيف إليه طريقة أغفلها المنطق الأرسطي ، ولم يؤمن بها . يقول : « وهكذا نستطيع أن نبرهن لأنصار المذهب العقلي - الذي يمثله المنطق الأرسطي - على أن طريقة التوالد الموضوعي ليست هي الطريقة الوحيدة التي يستعملها العقل في الحصول على معارفه الثانوية ، بل يستعمل إلى جانبها أيضاً طريقة التوالد الذاتي»^(١) .

فالتوالد الموضوعي يحتاج إلى التوالد الذاتي والعكس أيضاً ... وهذا ما يؤكد عليه الصدر من أن كل معرفة ثانوية يحصل عليها العقل عن طريق التوالد الذاتي تمر بمرحلتين :

- مرحلة التوالد الموضوعي ، والمعرفة هنا تكون احتمالية «وينمو

الاحتمال باستمرار ويسير نمو الاحتمال في هذه المرحلة بطريقة التوالد الموضوعي ، حتى تحظى المعرفة بدرجة كبيرة جداً من الاحتمال ، غير أن طريقة التوالد الموضوعي تعجز عن تصعيد المعرفة إلى درجة اليقين ، وحينئذ تبدأ مرحلة التوالد الذاتي لكي تنجز ذلك وترتفع بالمعرفة إلى مستوى اليقين»^(١).

هاتان المرحلتان تمر بهما كل التعميمات الاستقرائية بما يعني أن هناك صلة وثيقة بين التوالد الموضوعي والتوالد الذاتي .

وهنا تخف حدة الصدر في معارضته للمنطق الأرسطي في تلك المسألة ، ويخشى أن يفهم من توجيه ذلك فتح المجال لاستنتاج أي قضية من أي قضية أخرى على أساس التوالد الذاتي دون تقيد بالتلازم بين القضيتين ، وهذا سيؤدي إلى التوصل إلى استدلالات خاطئة مثل أن نستنتج أن زيدا قد مات من أن الشمس طالعة ... وهكذا ، فيرد على ذلك ويبين عن مقصده بقوله «إن ما نقصده الآن هو أن جزءاً من المعرفة التي يؤمن بها العقليون على الأقل لم يتكون على أساس التوالد الموضوعي ... وإنما يتكون على أساس التوالد الذاتي ، وهذا يعني أننا ما دمنا نود الاحتفاظ بذلك الجزء من المعرفة وبطابعه الموضوعي السليم ، فلا بد أن نعترف بطريقة التوالد الذاتي وبأن العقل ينتهج هذه الطريقة في الحصول على جزء من معرفته الثانوية»^(٢).

وتدلنا نصوص السيد محمد باقر الصدر على أن ما يعنيه في تلك القضية هي التعميمات الاستقرائية ، تلك التي يحاول إثبات صحة استنتاجها عن طريق التوالد الذاتي ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيؤكد

(١) الأسس المنطقية : ١٢٠ .

(٢) الأسس المنطقية : ١٢٩ .

على أن القضايا الثانوية المستنتجة بطريقة التوالد الموضوعي ، نجد أن قضية من هذا النوع تستند في استنتاجها إلى فئتين من القضايا : الفئة الأولى ، قضايا ترتبط بإنتاج تلك القضية المعينة بالذات ، والفئة الثانية ، قضايا تقرر ثبوت التلازم بين الفئة الأولى والقضية المستنتجة بالتوالد الموضوعي.

ويرى أن قضايا التلازم عامة بطبيعتها ، ولا تختص بإنتاج قضية دون أخرى . ويضرب الصدر لذلك مثلاً : (خالد إنسان) قضية أولى ؛ (وكل إنسان فان) قضية ثانية ؛ وهاتان القضيتان تعدان من الفئة الأولى لأنهما مرتبطتان بإنتاج قضية معينة وهي : (إن خالدأ فان) . ولكن لو أضفنا إليهما قضية ثالثة : (كلما كان شيء عنصراً من فئة وكانت كل عناصر تلك الفئة تتصف بصفة ؛ فإن ذلك يستلزم أن يكون ذلك الشيء متصفاً بتلك الصفة) ، وكانت تلك القضية من الفئة الثانية لأنها تقرر تلازماً عاماً بين شكلين من القضايا مهما كان محتواها .

ومن هذه القضايا الثلاث تصح القضية المتولدة منها بصورة موضوعية وهي : (إن خالدأ فان)^(١) .

ويسمى الصدر الاستدلال الناقص الذي يثق به بالدليل العلمي ويعرفه بأنه «كل دليل يعتمد على الحس والتجربة ، ويتبع منهج الدليل الاستقرائي ، القائم على حساب الاحتمالات»^(٢) .

وقد أراد الصدر مخالفة الاتجاه الحسي والتجريبي الخالص بهذا الدليل وهو يرى أن المذهب التجريبي كان بإمكانه في بحثه عن نظام الكون أن يقدم دعماً جديداً للإيمان بالله تعالى ، إلا أنه استخدم من قبل

(١) الأسس المنطقية : ١٢٤ وما بعدها .

(٢) المرسل الرسول الرسالة ، المصدر السابق : ١٩ .

أصحابه «لضرب فكرة الإيمان بالله تعالى ، فما دام الله سبحانه ليس كائنًا محسوساً بالإمكان رؤيته ، والإحساس بوجوده فلا سبيل - إذن - إلى إثباته ، ولم يكن هذا الاستخدام على يد العلماء الذين مارسوا الاتجاه التجريبي بنجاح ، بل على يد مجموعة من الفلاسفة ، ذوي النزعات الفلسفية والمنطقية التي فسرت هذا الاتجاه الحسي تفسيراً فلسفياً أو منطقياً خاطئاً»^(١).

هذا مع العلم بأن الاستقراء ينطوي على كل ألوان الاستدلال العلمي القائم على التجربة والحس . وأن الاستدلال العلمي هو نفس المنهج الذي يتخذه الاستقراء على إثبات الصانع بمظاهر القصد والحكمة .

الاحتمال والدليل الاستقرائي :

يستعرض السيد محمد باقر الصدر تعريفين مشهورين للاحتتمال في مذهب التوالد الموضوعي . ويستخرج منهما تعريفاً ثالثاً يراه الأنسب لمعنى الاحتمال ، يعتمد فيه على مفهوم ما سماه بالعلم الإجمالي ، وهو العلم بشيء غير محدد تحديداً كاملاً ، ويفسر الصدر معنى ذلك أن المعلوم قد يكون مشخصاً محدداً كأن يعلم المرء أن فلاناً من أصدقائه سيزوره ، ويعتبر العلم في هذه الحالة علماً تفصيلياً ، وليس فيه مجال للشك والاحتمال .

وقد يكون المعلوم غير محدد ولا مشخص ، كأن يعلم المرء أن أحداً من أصدقائه الثلاثة سوف يزوره دون تحديد لأي منهم ، فهذا العلم يعتبر علماً إجمالياً ، لأن العلم ارتبط مع المعلوم بشيء غامض غير محدد ، فيحتمل أن يزوره أحمد أو محمد أو محمود . إذن فالعلم الإجمالي هنا

(١) المرسل الرسول الرسالة : ١٤ .

تكوّن من ثلاثة أطراف وهي الزيارات الثلاث ، ويسمّيها الصدر : أطراف العلم الإجمالي . وعلاقة العلم الإجمالي بكل طرف من الأطراف هي علاقة تستبطن بطبيعتها الاحتمال ، والعلم الإجمالي النافع في هذه المسألة هو العلم الذي تكون أطرافه متنافية ، أي لا يحتمل أن يجتمع اثنان منها في وقت واحد ، فالزيارة المحتملة هي زيارة واحد من الأصدقاء فقط ، وليس اثنين . أما العلم الإجمالي الذي لا تتنافى أطرافه فمن المحتمل فيه اجتماع زيارة اثنين مثلاً ، وهذا العلم يخرج عن مقصوده السيد محمد باقر الصدر ، يقول : « ونحن هنا نريد بالعلم الإجمالي - متى أطلقناه - العلم الإجمالي من القسم الأول الذي يفرض التنافس بين أطرافه »^(١) .

وصورة العلم الإجمالي عند الصدر تشتمل على ما يلي :

١ - العلم بشيء غير محدد (كلي) .

٢ - مجموعة الأطراف التي يعتبر كل عضو فيها ممثلاً احتمالياً

للمعلوم .

٣ - مجموعة الاحتمالات التي يطابق عددها عدد مجموعة الأطراف .

٤ - التنافس بين أعضاء مجموعة الأطراف .

وملخص تلك الطريقة - كما يقول الصدر في «أنها تتطلب افتراض علم إجمالي على نحو يكون عدد كبير من أعضائه وأطرافه مستبطناً أو مستلزماً للقضية الاستقرائية ، فتصبح القضية الاستقرائية محوراً لعدد من القيم الاحتمالية بقدر ذلك العدد الإجمالي المفترض مرناً بشكل يزداد فيه عدد الأعضاء التي تتضمن إثبات القضية الاستقرائية ، وينمو هذا العدد باستمرار تبعاً لزيادة عدد التجارب أو الملاحظات في عمليات الاستقراء ، وبهذا يصبح نمو القيمة الاحتمالية للقضية الاستقرائية

(١) الأسس المنطقية : ١٧٦ .

مطرداً مع نمو الاستقراء وامتداده»^(١).

بهذا المفهوم قدم السيد محمد باقر الصدر دراسته في خطوات ثلاث :
تحديد المنهج الذي سيتبعه ، وتقييم هذا المنهج وتحديد مدى إمكان
الوثوق به ، وتقييمه في ضوء تطبيقاته العلمية المعترف بها عند كل
إنسان عاقل .

وسوف نعرض هذه النقاط الثلاث في إيجاز شديد :

١ - تحديد المنهج وخطواته :

يحدد السيد محمد باقر الصدر منهجه في خمس خطوات :

أ - يواجه المرء ظواهر عديدة في مجال الحس والتجربة .

ب - ينتقل بعد ملاحظة تلك الظواهر وتجميعها إلى مرحلة تفسيرها ،
وذلك عن طريق فروض صالحة لتفسير وتبرير تلك الظواهر وصلاحها ،
بمعنى أنها إذا كانت ثابتة في الواقع فهي تستبطن أو تتناسب مع وجود
جمع تلك الظواهر التي هي موجودة فعلاً .

ج - إذا لم تكن الفرضية صحيحة وثابتة في الواقع ؛ ففرصة تواجد تلك
الظواهر كلها مجتمعة ضئيلة جداً ، أي تكون نسبة احتمال وجودها
جميعاً إلى احتمال عدمها أو عدم واحد منها على الأقل ضئيلة كواحد في
المائة مثلاً .

د - يستخلص من ذلك صدق الفرضية ، والدليل على ذلك وجود تلك
الظواهر التي أحس بوجودها في الخطوة الأولى .

هـ - إن درجة إثبات تلك الظواهر للفريضة المطروحة في الخطوة
الثانية تتناسب عكسياً مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً إلى

احتمال عدمها ... فكلما كانت هذه النسبة أقل ؛ كانت درجة الإثبات أكبر، حتى تبلغ في حالات اعتيادية كثيرة إلى درجة اليقين الكامل بصحة الفرضية^(١).

٢ - ٣ - تقييم المنهج وكيفية تطبيقه لإثبات الصانع :

اعتمد السيد محمد باقر الصدر في تقييمه لمنهج الاستقراء على تطبيقه على الحالات الاعتيادية من الحياة اليومية ، التي يطبق فيها الإنسان بصورة فطرية مقاييس وضوابط دقيقة لقيمة الاحتمال . وأيضاً يستدل الصدر عليها بطريقة العلماء في الاستدلال على النظرية العلمية ، فإذا صدق المنهج في كلتا الحالتين انتقل إلى بيان كيفية تطبيق هذا المنهج لإثبات الصانع الحكيم ، متبعاً في ذلك خمس خطوات نعرضها بإيجاز :

١ - نلاحظ توافقاً مطرداً بين عدد كبير وهائل من الظواهر المنتظمة، وبين حاجة الإنسان ككائن حي، وتيسير الحياة له ، على نحو نجد أن أي بديل لظاهرة من تلك الظواهر يعني انطفاء حياة الإنسان وتوقفها على الأرض ، ويضرب الصدر لذلك أمثلة كثيرة .

٢ - هذا التوافق المستمر يمكن أن يفسر في جميع هذه المواقع بفرضية واحدة ، وهي : أن نفترض صانعاً حكيماً لهذا الكون قد استهدف أن يوفر في هذه الأرض عناصر الحياة ، وسير مهمتها ، وهذه الفرضية تستبطن كل هذه التوافقات .

٣ - ننتقل بعد ذلك إلى الاحتمالات ، فنتساءل إذا لم تكن تلك الفرضية ثابتة في الواقع ؛ فما هو مدى احتمال أن تتواجد كل تلك التوافقات بين الظواهر

(١) باقر الصدر ، المرسل الرسول الرسالة : ٢٤ - ٢٥ .

الطبيعية ، ومهمة تيسير الحياة دون أن يكون هناك هدف مقصود ؟
فإن قلنا بالاحتمال الثاني ، فذلك يعني افتراض مجموعة هائلة من
الصدف وافتراض مشابهة الصدفة أو المادة غير الهادفة للفاعل الهادف
الحكيم في كل الصفات ضئيل وبعيد جداً .

٤- إذن نرجح أن تكون فرضية الصانع الحكيم هي الصحيحة .
٥- نربط بين هذا الترجيح وبين ضالة الاحتمال التي توصلنا إليها في
الخطوة الثالثة ، الذي تزداد ضالته كلما ازداد عدد الصدف التي لا بد من
افتراضها فيه ... وهكذا نصل إلى النتيجة القاطعة ، وهي أن للكون صانعاً
حكيماً بدلالة كل ما في هذا الكون من آيات الاتساق والتدبير^(١) .

ويستدل السيد محمد باقر الصدر بالآية الكريمة : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي
الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴾^(٢) .

ويقول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : «يعني نريهم من هذه
الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ، ويحصل فيها
الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل
والضد»^(٣) .

ويواصل السيد محمد باقر الصدر إثباته للصانع بالدليل الاستقرائي
برسم خطوات أربع لذلك الدليل ، يقول : «ونحن حين ندرس الفرضيات
المتصورة بشأن تفسير مجموعة من الظواهر - كالمجموعة التي يتكون
منها التركيب الفسيولوجي للإنسان معين (سقراط مثلاً) يمكننا أن
نفترض الفرضيات الأربع التالية :-

(١) المرسل الرسول الرسالة : ٣٩ - ٥١ .

(٢) فصلت : ٥٢ .

(٣) التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، ط ١ بيروت ١٩٩٠م ٢٧ : ١٢٠ .

أولاً: فرضية تفسير تلك الظواهر على أساس أنها من صنع ذات حكيمة .
 ثانياً: فرضية تفسيرها على أساس أنها صدف مطلقة .
 ثالثاً: فرضية تفسيرها على أساس أنها من صنع ذات ليست حكيمة،
 قد تصرفت تصرفاً غير واع ولا هادف فأوجدت تلك الظواهر .
 رابعاً: فرضية تفسيرها على أساس علاقات سببية غير واعية ولا
 هادفة يفترض قيامها بين المادة وتلك الظواهر .
 والمطلوب إثبات الأول من هذه الأمور الأربعة ، ونفي الفرضيات
 الثلاث الأخيرة بالدليل الاستقرائي^(١) .

ويبدأ الصدر باصطناع فرضيات لكل فرضية وإسقاطها عن طريق
 الدليل الاستقرائي ، إلى أن يصل إلى إثبات الفرضية الأولى ، وهي أن تلك
 الظواهر من صنع ذات حكيمة .

والسيد محمد باقر الصدر وهو يحاول إثبات الدليل الاستقرائي في
 هذه المسألة ؛ إنما يعتمد على القرآن الكريم الذي استخدم هذا الدليل في
 كثير من آياته الداعية إلى التأمل والتفكير واستقراء الواقع بكل ما فيه من
 آيات كونية وآيات في الأنفس ، قال تعالى : ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَاختلاف الليل والنهار والفلک التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من
 السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح
 والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾^(٢) .

هذه الآية واضحة في تفصيلها لبعض آيات الله تعالى في الكون ،
 ودعوة أصحاب العقول إلى تأملها والتفكير فيها ، ليعلموا بأن هذا الاتساق
 لا بد أن يكون من صنع خالق حكيم . وقد استخلص الرازي من هذه الآية

(١) الأسس المنطقية : ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٢) البقرة : ١٦٤ .

«ثمانية أنواع من الدلائل التي يمكن أن يستدل بها على وجوده سبحانه أولاً، وعلى توحيده وبرأته عن الأضداد والأنداد ثانياً»^(١).

ويستدل الصدر بآية كريمة أخرى في قوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ثم ارجع البصر مرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير^(٢) وهذه الآية واضحة - أيضاً - في أن المرء إذا أجال بصره وأعاده وكرّره في السموات وخلقهن ليرى هل هناك اختلاف أو خلل أو تفاوت؛ لم يجد ما يبحث عنه، بل يكون في تكراره لتأمله هذا تأكيداً لعملية الاتساق والنظام في الكون. وبذلك يعلم أن هذا أمره يرجع إلى صانع حكيم. يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية قوله: ﴿خلق الرحمن﴾ تعظيماً لخلقهن وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أن خلق الرحمن وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ... ثم قال ﴿فارجع البصر﴾ حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة ولا تبقى معك شبهة فيه ... وأمره بتكرير البصر فيهن متصفحاً ومتتبعاً يلتمس عيباً وخللاً ﴿ينقلب إليك﴾ أي إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب، بل يرجع إليك بالخشوء والحسور^(٣).

والدليل الاستقرائي الذي سبر غوره السيد محمد باقر الصدر، نجد صورته في الدليل العقلي المشترك بين الفلاسفة والمتكلمين على وجود الله تعالى، ونعني به دليل العناية والنظام، الذي ضم إليه ابن رشد دليلاً آخر سماه دليل الاختراع، وهما دليلان عقليان نبه عليهما القرآن الكريم في كثير من آياته. ويرى ابن رشد أن هذه هي الطريقة الشرعية الدالة

(١) التفسير الكبير، المصدر السابق: ١٦٠.

(٢) الملك: ٣ - ٤.

(٣) الكشاف: ٤: ٥٧٦.

على وجود الله تعالى ، وهي التي دعا إليها القرآن الكريم واعتمدها الصحابة رضوان الله عليهم ، وتنحصر تلك الطريقة في جنسين - كما يقول ابن رشد - الأول سماه دليل العناية وهو يُعنى بملاحظة سريان الدقة الكاملة والاتقان البديع في الكون ، ومبناه : أن جميع الموجودات متوافقة ومنسجمة مع وجود الإنسان - وقد ضرب ابن رشد أمثلة كثيرة على تلك الموافقات - إضافة إلى أن هذه الموافقة لا يمكن أن تكون من قبل الصدفة ، بل لابد أن تكون من فاعل قاصد مريد .

أما الدليل الثاني : فهو دليل الاختراع ، وهو يُعنى بمبدئين عقليين هما : الأول أن هذه الموجودات مخترعة مصنوعة ، والثاني : أن كل مخترع فله مخترع^(١) .

الخاتمة :

نستخلص من دراسة فكرة نظرية المعرفة عند السيد محمد باقر الصدر ما يلي :

أولاً : لم يكن هدف السيد محمد باقر الصدر أن يأتي بنظرية جديدة تماماً للمعرفة ، ولكنه أراد أن ثبت اتجاهًا جديدًا في تلك النظرية يخالف به المنطق الأرسطي ، ومن سار على دربه من الفلاسفة والباحثين المعاصرين الدارسين للاستقراء . ذلك الاتجاه يتمثل في مرحلتين يمر بهما الدليل الاستقرائي ، وحين يتحدث الصدر عن الاستقراء يقصد به الاستقراء الناقص بمفهوم المنطق الأرسطي ، وليس الاستقراء الكامل - والمرحلتان اللتان يمر بهما هما : مرحلة التوالد الموضوعي ، وهي مرحلة استنباطية تتصف بالاحتمالات ، والدليل الاستقرائي في هذه

(١) الكشف عن مناهج الأدلة ، المكتبة المحمودية ط ، القاهرة ١٩٦٨م ص ٦٥ - ٦٦ .

المرحلة ينمّي قيمة احتمال التعميم الاستقرائي ويصل به الى درجة عالية من درجات التصديق ، مستنتجاً تلك الدرجة بطريقة استنباطية من المبادئ والبدييات .

وبناء على ذلك فإن نظرية المعرفة عند السيد محمد باقر الصدر تعنى بمنهج أساسي أراد من خلاله إثبات صلاحيته في بلوغ درجة اليقين في المعارف البشرية ، وعلى الأخص منها معرفة صانع وخالق هذا الكون ومدبره ، هذا المنهج هو منهج الدليل الاستقرائي القائم على حساب الاحتمالات ، الذي لا يؤمن به المنطق الأرسطي ولا غيره من الفلاسفة ، ولم يتنبه إليه - أيضاً - الباحثون المحدثون الذين عالجوا مسألة الاستقراء.

وبناء على هذا المنهج الجديد في الدليل الاستقرائي تصل المعرفة إلى درجة عالية - كما ذكرنا - من التصديق ، ولكنها لا تستطيع أن ترقى لتمام اليقين ، فتبدأ بعد ذلك المرحلة الثانية ، وهي ما سمّاه السيد محمد باقر الصدر بمرحلة التوالد الذاتي التي يصطنعها منهج الدليل الاستقرائي لتصعيد المعرفة إلى درجة اليقين .

ثانياً : يؤكد الصدر على تميزه في معالجته للاستقراء في مرحلتيه فيقول عن المرحلة الأولى : (التوالد الموضوعي) وهي المرحلة الاستنباطية - وطريقته فيها : «وطريقتي في تفسير هذه المرحلة الاستنباطية للدليل الاستقرائي على هذا الأساس تتميز عن المحاولات التي عالجتها هذه المرحلة من الدليل الاستقرائي - وفي حدود ما أُتيح لي الاطلاع عليه»^(١).

أما المرحلة الثانية : (التوالد الذاتي) فكأنه يؤمّي في حديثه عنها إلى أنه

(١) الأسس المنطقية : ٢٢٨ .

اخترع مذهباً ثالثاً ليعالج به مسألة الاستقراء إلى جانب المذهب العقلي والمذهب التجريبي ، وهذا ما يتبادر من قوله : «نريد أن ندرس الدليل الاستقرائي على أساس مذهب ثالث في نظرية المعرفة ، نطلق عليه اسم «المذهب الذاتي» تمييزاً له عن المذهبين العقلي والتجريبي ، ونريد بالمذهب الذاتي للمعرفة اتجاهاً جديداً في نظرية المعرفة يختلف عن كل من الاتجاهين التقليديين اللذين يتمثلان في المذهب العقلي والمذهب التجريبي»^(١).

هذا الاتجاه الجديد للسيد محمد باقر الصدر اتخذته بعد اكتشافه عجز الاتجاه السائد اليوم في بحوث كثير من العلماء عن تفسير الاستقراء بوصفه تطبيقاً خالصاً لنظرية الاحتمال ، الأمر الذي دعاه إلى ابتداع فكرته الجديدة ، لأن البحوث السابقة عليه «اتجهت - فيما يقول الصدر - إلى القول : بأن الدليل الاستقرائي بحاجة إلى مصادرات خاصة ، ولا يمكنه أن يمارس مرحلته الاستنباطية بدون تلك المصادرات»^(٢) مع إن هذا الدليل لا يحتاج - في المنظور الجديد الذي قدمه الصدر - إلى المصادرات القبلية كالتى يؤمن بها المنطق الأرسطي ، ويربط مصير هذا الدليل بها ، بل يؤكد الصدر على أن تلك المصادرات ذاتها يمكن إثباتها بالاستقراء نفسه كما تثبت أي تعميم من التعميمات عن طريق الدليل الاستقرائي الذي يطابق تعريف الاستقراء الصحيح وهو : (كل استدلال يسير من الخاص إلى العام).

ثالثاً : وليثبت الصدر الاتجاه السائد ؛ قام بدراسة شاملة للاستقراء خصها بمؤلف كبير سمّاه «الأسس المنطقية للاستقراء» يقول في

(١) المصدر نفسه : ١٢٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٨ .

خاتمته : «إن هذه الدراسة الشاملة التي قمنا بها كشفت عن الأسس المنطقية للاستدلال الاستقرائي ، الذي يضم كل ألوان الاستدلال العملي القائم على أساس الملاحظة والتجربة ، واستطاعت أن تقدم اتجاهاً جديداً في نظرية المعرفة ، يفسر الجزء الأكبر منها تفسيراً استقرائياً ، مرتبطاً بتلك الأسس التي كشف عنها البحث ، وتبرهن هذه الدراسة في نفس الوقت على حقيقة في غاية الأهمية من الناحية العقيدية ، وهي الهدف الحقيقي الذي توخينا تحقيقه عن طريق تلك الدراسة . وهذه الحقيقة هي أن الأسس المنطقية التي تقوم عليها كل الاستدلالات العلمية المستمدة من الملاحظة والتجربة ، هي نفس الأسس المنطقية التي يقوم عليها الاستدلال على إثبات الصانع المدير لهذا العالم ، عن طريق ما يتصف به العالم من مظاهر الحكمة والتدبير»^(١).

بهذا الهدف السامي أراد السيد محمد باقر الصدر أن يربط العلم بالإيمان ويزيل الانقسام المصطنع بينهما من جهة النظر المنطقية للاستقراء ، وهذا ما يؤكد القرآن الكريم في منهجه الذي يركز فيه على الاستدلال الاستقرائي ، ويعتني به عناية خاصة من بين أنواع الاستدلالات المتنوعة على إثبات الصانع الحكيم ، يقول السيد محمد باقر الصدر : «فكان من الطبيعي أن يتجه القرآن الكريم إلى دليل القصد والحكمة - بوصفه الذي يمثل المنهج الحقيقي للاستدلال العملي ، ويقوم على نفس أسسه المنطقية - ويفضّله على سائر الصيغ الفلسفية للاستدلال على وجود الله تعالى»^(٢).

رابعاً : لم يتطرق السيد محمد باقر الصدر في دراسته لمصادر

(١) المصدر نفسه : ٤٦٩ .

(٢) الأسس المنطقية : ٤٧ .

المعرفة للمصدر الديني (الوحي والإلهام)، شأنه في ذلك شأن الكثير من الباحثين في نظرية المعرفة من الناحية الفلسفية والعلمية - في حصرهم مصادر المعرفة في الحس والعقل . ولا نرى في ذلك خروجاً من السيد محمد باقر الصدر على منهجه الذي اتبعه لإثبات أن لهذا الكون صانعاً حكيماً ، هذا الإثبات المعتمد على الفلسفة والعلم في مواجهة المذاهب والفلسفات المادية التي كانت تستبطن هدفاً أساساً هو هدم فكرة الإيمان بما وراء الطبيعة أو بالله تعالى . لذلك لم يكن لموضوع المصدر المعرفي الديني (الوحي والإلهام) مجال في دراسة الصدر .

وبالرغم من ذلك فقد أكد واستدل السيد محمد باقر الصدر على استعمال القرآن الكريم - وهو أساس الوحي - لأنواع الاستدلالات الحسية والعقلية على وجود الخالق سبحانه وتعالى ، بل وأبان عن عنايته الكبيرة بالدليل الاستقرائي الذي يؤمن به السيد محمد باقر الصدر بصورة أكبر .

خامساً: لم يأت السيد محمد باقر الصدر بفكرته التي توصل إليها في نظرية المعرفة من فراغ ، بل كان دارساً عبقرياً وباحثاً متفرداً للاتجاهات الفلسفية والنظريات العلمية التي عرضها عرض الخبير الواعي ، المدرك لكل مقولة ولكل فكرة ، وقارن وقابل واستنتج ورجح واختار وابتدع ، ومن ثم طرح فكره ورؤيته لإثبات قضية إيمانية عقيدية ، تعدّ أساساً تنبني عليه جميع العقائد الإسلامية ألا وهي (معرفة الله تعالى والإيمان بوجوده) وهذه المحاولة التي حاولها هذا الفيلسوف العملاق لا يعثر عليها الباحث عند أي فيلسوف سابق ، ولا يجدها في قسماتها المتكاملة إلا في كتاب «الأسس المنطقية للاستقراء» فهو كتاب غير مسبوق في التراث العقلي .

المردود السلوكي للإنسان عند النعمة والابتلاء

✽ الشيخ محمد مهدي الرضوي

مقدمة

﴿ وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآ بجانبه وإذا مسه الشرّ كان ينوساً ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ (١).

ما ينزل من عند الله على عباده: أما نعمة مثل الصحة والمال والعمر، والموقع، والرفاه، والتوفيق للعمل الصالح واليقين. وأما ابتلاء مثل الفقر، والمرض، والحروب، وسائر نوائب الدهر. وكلّ منهما لصالح الإنسان وكماله، وكل منهما طريق الإنسان إلى الله. ولهذا وذاك مردود على نفس الإنسان وسلوكه.

وللقرآن الكريم اهتمام خاص بهذا المردود، سواءً منه ما يتعلق بالنعمة أو الابتلاء، كما أن له اهتماماً وعناية كبيرة بتوجيه الإنسان إلى

السلوك الصحيح والرد السليم تجاه كل من النعمة والابتلاء . وإليك تفصيل هذا البحث من خلال تفسير الآية ٨٢ - ٨٤ من سورة الإسراء المباركة .

القرآن شفاء لقوم وخسار لآخرين :

إِنَّ الْقُرْآنَ يَنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ ، فَيَنْزِلُ رَحْمَةً وَهُدًى وَشِفَاءً عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ ، وَيَكُونُ خَسَاراً وَأَذًى عَلَى آخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَنُنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴿٨٣﴾ . وَلَا فَرْقَ بَيْنَ قُرْآنٍ وَقُرْآنٍ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَخَسَارٌ وَأَذًى لِلظَّالِمِينَ .

وليس ذلك شأن القرآن فقط ، فإن النعمة تنزل من عند الله على الناس ، فيكون مردودها على نفوس الظالمين الطغيان والبطر ﴿٨٤﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٨٥﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ شَاكِرَةٌ ﴿٨٦﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٨٧﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٨٨﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٨٩﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٠﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩١﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٢﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٣﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٤﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٥﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٦﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٧﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٨﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿٩٩﴾ . وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الشُّكَّ فَكُنُوا لَهُمْ قُلُوبٌ كَاذِبَةٌ ﴿١٠٠﴾ .

وكان ينبغي أن يكون ردّ الإنسان على النعمة : الشكر ، وردّه على الابتلاء : الصبر والدعاء . وهو الردّ الإيجابي السليم تجاه النعمة والابتلاء في حالات سلامة الإنسان واستقامته . فإذا فقد الإنسان السلامة والاستقامة في نفسه كان ردّه على النعمة والابتلاء سلبياً وضاراً به .

اختلاف الأعمال باختلاف النفوس :

فاختلاف المردود النفسي لنفوس الناس تجاه النعمة والابتلاء ، إذن ، نابع من اختلاف نفوس الناس ، وليس من اختلاف نعمة عن أخرى ، ولا

اختلاف ابتلاء عن ابتلاء ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ .

واختلاف أواني النفوس وشاكلة الناس ليس في أصل الخلقة ، ليقول أحد : أن لا شأن للإنسان في شاكلته ونفسه ، فلا شأن له إذن فيما يردّ به على النعمة والابتلاء من خير وشر ، لأنه خارج عن إرادته وسلطانه . إنّ مثل هذا التفسير يوقع الإنسان في أخطاء كثيرة ... والصحيح أنّ الإنسان هو الذي يصلح نفسه ويفسدها ، وعمله هو أساس صلاحها وفسادها .

وليس يضر بهذا البيان أنّ عمل الإنسان أيضاً ناشيء من نفسه وعلى شاكلته ونيته فإنّ بين نفس الإنسان وعمله علاقة تبادلية (جدلية) . فهي تتأثر به وتؤثر فيه ، وهذا من دقائق الفكر الإسلامي ، وقد وضّحناه من قبل في مواضع أخرى من هذه الدراسات .

الاختلاف بين آدم عليه السلام وإبليس :

ونقتبس هنا من القرآن نموذجاً واحداً من نماذج اختلاف النفوس ، واختلاف ردود الأفعال بين السلب والإيجاب نتيجة لاختلاف النفوس . لقد عصى اللعين إبليس أمر الله تعالى بالسجود لآدم ، في حين سجدت له الملائكة جميعاً ، وتمرد إبليس على أمر الله تعالى علانية ﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾^(١) ، فلما سأله الله تعالى لم يسجد لآدم ، وقد أمره بذلك ... لم يعتذر ، ولم يستغفر عما ارتكب من الظلم ، وإنما أصرّ على موقفه ورأيه : ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾^(٢) فعاقبه الله تعالى بالخروج والصغار والسقوط ﴿فما يكون لك

(١) الأعراف : ١١ .

(٢) الأعراف : ١٢ .

أن تتكبر فيها فأخرج إناك من الصاغرين^(١) . ولم يقتصر على ذلك حتى نسب إلى الله تعالى الغواية . ﴿ قال فيما أغويتني ﴾ . وتعهد أن ينتقم من عباد الله ، فيضلهم ، ويغويهم ، ويقعد لهم على صراط الله المستقيم ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ . فكان عقابه من الله أن ﴿ قال اخرج منها مذئوماً مدحوراً لمن اتبعك منهم لأملئن جهنم منكم أجمعين ﴾ . وهذا هو النموذج الأول .

والنموذج الآخر أبونا آدم وأمنا حواء^(٢) ، وهو عكس النموذج الأول تماماً . فقد ظلما أنفسهما^(٣) ، إذ أكلا من الشجرة الممنوعة ، من غير شك ، ولكنهما سرعان ما عادا إلى الطاعة ، واعتذرا إلى الله ، واستغفرا الله تعالى . عندما سأله الله تعالى : ﴿ ألم أنهما عن تلكا الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾^(٤) ، فعادا يستغفران الله ، ويعتذران إلى الله ، ويعترفان بظلمهما ﴿ قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾^(٥) ، فقال لهما الله جزاء لظلمهما : ﴿ امبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾^(٥) ، وشتان بين هذا الرد وذلك الرد . فقد ظلم كل منهما نفسه . ولكن أبانا آدم^(٦) عاد واعترف بالظلم ، وتذلل لله ، واستغفر واعتذر ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ .

وأما اللعين فقد أصرّ على رأيه وموقفه واستكباره وعناده ، وقال : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ ، وهذا التفاوت في الرد والموقف حاصل من التفاوت بين نفسيهما . فقد كان الغالب على نفس أبينا وأمنا^(٧) : العبودية ، والتواضع ، والتذلل لله ، والفقر ، والحاجة إلى

(١) الأعراف : ١٣ - ١٨ .

(٢) ولسنا نقول أنهما عصيا الله ، فقد كان النهي ارشادياً ، لئلا يخرجوا من الجنة ، ولم يكن النهي مولوتياً . وتكفي هذه الإشارة فعلاً .

(٣) الأعراف : ٢٢ .

(٤) الأعراف : ٢٣ .

(٥) الأعراف : ٢٤ .

الله ، والوعي ، والمعرفة ، وكان في نفس اللعين (الكبر) و (الحسد) . وهذا الاختلاف فيما بينهما كان السبب في اختلاف الرد والموقف من كل منهما ، فعادا إلى الله ، وتقبل الله توبتهما ، وسقط اللعين ، فلعنه الله ، وأخرجه مذبذوماً مدحوراً . لقد كان اللعين معتداً بنفسه فسقط ، وأخرجه الله من رحمته ، وكان أبونا وأمنا متهمين لأنفسهما ، معترفين بظلمهما ، فعادا واستغفرا . ومن يتهم نفسه يسلم ، ومن يعتد بنفسه يسقط .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : «ألا وإن المؤمن لا يمسي ولا يصبح إلا ونفسه ظنون عنده» . ويقول عليه السلام في صفة المتقين في خطبة المتقين المعروفة : «فهم لأنفسهم متهمون» .

ردود الفعل السلبية والإيجابية تجاه الابتلاء :

القرآن الكريم يرسم بعناية ودقة ردود الفعل السلبية والإيجابية تجاه الابتلاء . إن (الابتلاء) سنة من سنن الله تعالى في حياة الإنسان ، ومن دون الابتلاء لا تستقيم حياة الناس ، ولا بد للناس من الابتلاء لعلمهم يتضرعون ، وليكتسبوا القوة والمقاومة ، ولا يخلص من الابتلاء مؤمن ، ولا كافر ، ولا منافق .

ولكن ردود فعل الناس تجاه الابتلاء تختلف اختلافاً كبيراً ، على قدر اختلاف نفوس الناس من الهدى إلى الضلال . وللقرآن عناية واضحة واهتمام برسم كل من الردين :

الرد السلبى للإنسان في الابتلاء ، والرد الإيجابى للإنسان في الابتلاء ، يرسمهما القرآن بدقة وعناية . وللقرآن عناية واضحة بتوجيه الإنسان من خلال هذا العرض بالرد السليم الذي يجب على الإنسان أن يمارسه في حياته تجاه الابتلاء حتى يحقق الابتلاء غاياته وأهدافه في حياة الإنسان . فلا شك أن لهذه السنة الإلهية أهدافاً وغايات لخدمة الإنسان

وعروجه وكماله ، فإذا كان ردّ الإنسان على الابتلاء إيجابياً حقّق أهداف هذه السّنة الإلهية . وإذا كان ردّ الإنسان على الابتلاء سلبياً تحمّل ضريبة الابتلاء ولم يحقّق أهدافه وغاياته . فللنظر إلى كل من الردود السلبية والإيجابية للابتلاء في حياة الناس من خلال قراءة كتاب الله .

ردود الفعل السلبية تجاه الابتلاء :

١ - من هذه الردود اليأس من رحمة الله واليأس كفر ، يقول تعالى : ﴿ وَلئن أذقنا الإنسان مآاً رحمةً ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ ^(١) . إنّ الإنسان الذي ينتشي في النعمة والرحمة وتملكه والبطر والرّثاء سرعان ما يغليه اليأس والكفر ، إذا ابتلاه الله ، فانتزع النعمة من حياته .

يقول تعالى : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسّه الشرّ فيئوس قنوط ﴾ ^(٢) ، إنّ الإنسان ليسعى إلى الخير ، ويكثر من طلب الخير ، ولا يسأم من ذلك ، ولكن مقاومته أمام الشرّ ضعيفة ، فإذا أصابه الشرّ ، ولم يصب الخير أسرع إليه اليأس والقنوط .

٢ - الجزع ، وهو في مقابل الصبر والاستقامة يقول تعالى : ﴿ وإذا مسّه الشرّ جزوعاً ﴾ ^(٣) ، وعجيب أمر هذا الإنسان يملأ نفسه الغرور ، إذا أقبل عليه شيء من الخير ، فإذا مسّه بعض الشرّ في ساعات الابتلاء غلبه الجزع ، وفقد كل صبره ومقاومته .

٣ - الإعراض عن الله وعدم الاستكانة لله ، وهو مردود سلبي عجيب ، فإنّ الله تعالى إنّما يبتلي الناس ببعض الابتلاء ، لعلّهم يتضرعون

(١) هود : ٩ .

(٢) فصلت : ٤٩ .

(٣) المعارج : ٢٠ .

ويقبلون على الله : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾^(١) . ولكن الإنسان بعكس ذلك ، إذا أخذه بالعذاب لم يستكنّ ولم يتضرّع : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾^(٢) .

٤ - قسوة القلوب ، هذه النقطة كسابقتها في الغرابة ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَبْتَلِي عِبَادَهُ لِيَتَضَرَّعُوا ، ولترقّ قلوبهم ، ولكن الناس عندما يسيئون تصرّف سنن الله تقسو قلوبهم في الابتلاء : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾^(٣) .

تلك هي نماذج من الردّ السلبي للناس على الابتلاء من خلال كتاب الله ، والآن ننتقل إلى بعض النماذج من الردود الإيجابية للناس على الابتلاء .

الردود الإيجابية تجاه الابتلاء :

١ - الدعاء : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾^(٤) ، وهذا هو الرد السليم على الابتلاء ، حيث يلجأ العبد في ساعة المحنة والابتلاء إلى الله ، ليفرّج عنه ، ويكشف عنه سوء .

٢ - الصبر والرجوع إلى الله : وهو من النقاط المهمة التي يعطيها القرآن عناية كبيرة في قصة العبد الصالح أيوب عليه السلام : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾^(٥) .

٣ - الإنابة : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾^(٦) .

(١) الأنعام : ٤٢ .

(٢) المؤمنون : ٧٦ .

(٣) الأنعام : ٤٣ .

(٤) ص : ٤١ .

(٥) ص : ٤٤ .

(٦) الزمر : ٨ .

- ٤ - الدعاء العريض : يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾^(١) ،
والدعاء العريض الدعاء بإلحاح ، ومن غير انقطاع .
- ٥ - التضرع إلى الله : يقول تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَا هُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ ﴾^(٢) ، ﴿ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾^(٣) .
- ٦ - الجَّوَّار : وهي حالة التضرع والصراخ والولولة : ﴿ وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ
فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾^(٤) .

الدعاء والتضرع في السراء والضراء :

ولابد من الإشارة إلى أن الجَّوَّار وسابقه الدعاء العريض حالتان
ممدوحتان ، ولكتّهما وردتا في القرآن في سياق الذم . ولنقرأ سياق كلّ
منهما في القرآن من سورة فصلت : ﴿ وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ
الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون^(٥) ،
﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بَجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾^(٦) .
وليس من شك أنّ السياق سياق الذم وليس من شك أنّ الجَّوَّار والدعاء
العريض عند الابتلاء ممدوح وجيد . يقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا
دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ .

والجواب أنّ الذم في الآية الكريمة ليس على الجَّوَّار والدعاء العريض ،
وإنّما الذم على اقتصار الإنسان على الجَّوَّار والدعاء العريض في ساعة
المحنة والابتلاء فقط ، فإذا كشف الله تعالى عنه الضرّ والمحنة ؛ عاد إلى

(١) فصلت : ٥١ .

(٢) الأنعام : ٤٢ .

(٣) الأعراف : ٩٤ .

(٤) النحل : ٥٣ .

(٥) فصلت : ٥٣ - ٥٤ .

(٦) فصلت : ٥١ .

لهوه وغفلته وانصرافه وإعراضه عن الله وانصرافه عن الدعاء والجوار . ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضرِّ مسه ﴾ (١) . وهذا هو الذي يذمه القرآن ، وأمّا الجوار والدعاء العريض فهما من الإقبال على الله الذي يحبه الله تعالى ويدعو إليه . وإنّما يذم القرآن لجوء الإنسان إلى الله ساعة المحنة ، وإعراضه عنه تعالى ساعة اليسر والعافية : لأنّ فقر الإنسان إلى الله وحاجته إليه لا تنقطع أبداً ، ولا تختص بفترات المحنة والشدة . يقول تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ الحميد ﴾ (٢) . ولكن الإنسان لا يشعر بفقره وحاجته إلى الله في أوقات الراحة والعافية ، كما يشعر بها في ساعات ضرّه ومحنته ، وإذا يسّر الله تعالى أموره ؛ تراءى له أنه استغنى عن الله ، وهو أشدّ ما يكون فقراً وحاجة إلى الله . وبتعبير القرآن في هذا الشأن : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ .

فهو لا يستغني عن الله في حال ، ولا يفارقه فقره وحاجته إلى الله ، وإنّما يتراءى له في ساعات اليسر والعافية أنه قد استغنى عن الله ﴿ أن رآه استغنى ﴾ فيطغى عندئذ ، ولو كان يعي فقره وحاجته إلى الله ؛ لم ينفك عن التضرع إليه تعالى .

إنّ المسألة مسألة رؤية ووعي ، فمن يرى حاجته وفقره الدائم إلى الله ؛ يتصل تضرّعه وإقباله على الله ، ومن لا يعي فقره إلى الله يطغى ويعرض عن الله . وأنّ الحجاب الذي يحجب الناس عن فقرهم وحاجتهم إلى الله هو الأسباب التي يتوسّل بها الناس إلى حاجاتهم ، فإذا تقطّعت بهم الأسباب ؛ شعروا بحاجتهم وفقرهم إلى الله .

ولو أنّ الناس كانوا يعرفون ويعون أنّ هذه الأسباب بيد الله ، وهو خالقها ، ومانحها الوجود والقوة والفاعلية ، وهو قادر على أن يسلبها

(١) هود : ٢٨ .

(٢) يونس : ١٢ .

الوجود والقوة والتأثير ، وأنَّ الله تعالى مسبَّب الأسباب ، بيده أسباب السماوات والأرض جميعاً ، ولا يخرج سبب عن قبضة قدرته وسلطانه لم تكن تحجبهم هذه الأسباب عن وعي فقرهم وحاجتهم إلى الله في السراء والضراء .

إنَّ الإنسان إذا أراد أن ينتقل من منطقة إلى أخرى في بلده يملك أسباباً كثيرة وبدائل وخيارات عديدة للانتقال فلا يشعر بحاجته وفقره إلى الله . وأمّا إذا حدث خلل للطائرة التي تحمله في أعماق الجو وتقطّعت به الأسباب وهو على بعد شاسع عن الأرض ؛ لجأ إلى الله وتضرّع إليه ، وإنّه لا يعرف عندئذ بديلاً عن الله ينقذه من الهلاك ، ولا يعرف خياراً آخر يلتمسه للنجاة من السقوط غير الله تعالى .

ولو أنَّ الإنسان عرف حاجته وفقره إلى الله في كلِّ من الحالتين ، وأنَّ حالته ، وهو على الأرض ، في داخل بيته ، لا تختلف عن حالته وهو في أعماق الجو ، وهو في كل منهما فقير إلى الله . ولو شاء الله لتقطّعت به الأسباب جميعاً ، فلم يتمكّن أن ينقل خطوة واحدة من مكان إلى مكان ، لكان له شأن آخر من التضرّع والإقبال على الله .

إنَّ الإنسان يصيبه الصداع الخفيف ، فتتيسّر له أسباب العلاج فلا يتضرّع إلى الله ، ولا يلتمسه الشفاء ، ولا يشعر بالحاجة إليه ، فإذا أصابه السرطان الذي أعين الأطباء علاجه ، وتساقطت أمامه أسباب العلاج لجأ وتضرّع إلى الله . ولو علم صاحب الصداع أنه هو وصاحب السرطان سيّان في الحاجة إلى الله ، ولو شاء الله لم ينفعه علاجه ، ولو شاء الله لامتدّ به الصداع حتى يسلبه كل قوته ونشاطه ... لكان له شأن آخر في معرفة الله واللجوء والتضرّع إليه .

وقد ورد في الحديث القدسي في خطاب الله تعالى لموسى بن عمران عليه السلام : «يا موسى اطلب مني حتّى شسع نعلك ، وعلف دابتك ، وملح عجيتك» .

وهو درجة عالية من الوعي والمعرفة ، جاء بها الأنبياء ﷺ من عند الله إلى الناس ، ليشتدوا بها الناس إلى الله في كل حالاتهم ، حالة السراء وحالة الضراء ، وليس فقط في حالة البأساء والضراء .

يقول تعالى : ﴿ هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنّوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين ﴾ * فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴿ (١) ، ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البرّ إذا هم يشركون ﴾ (٢) . وهذه الحالة من الانقطاع عن الله في ساعات اليسر والعافية والانقطاع إلى الله في ساعات البأس والشدة هي التي يذمّها القرآن ، وليس الدعاء العريض والجوّار . تأملوا مرة أخرى هذه الآية الكريمة : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضرّ فإليه تجأرون ﴾ . إنّ مصيبة الإنسان في علاقته بالله أنه لا يعي هذه الحقيقة التي يجليها القرآن ويؤكدّها : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ولا يعرف الله إلا إذا مسّه الضرّ ، فإذا عرف ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ لم ينفك عن الإحساس بالفقر والحاجة إلى الله في كل حالاته ، ولم ينفك عن الجوّار والتضرّع إلى الله في حال من الأحوال ، تيسّرت له الأسباب أم تقطّعت به الأسباب .

إنّ من أعلى مراحل الوعي والمعرفة معرفة الفقر والحاجة إلى الله ، وإنّ من أسوأ الحجب التي تحجب الإنسان عن الله حجاب الأسباب . فطوبى لمن رزقه الله تعالى هذه المعرفة ، ومكّنه من اختراق هذا الحجاب . نسأل الله أن يزرّقنا هذا الوعي والمعرفة ويمكّننا من اختراق هذا الحجاب ، كما صنع بعباده الصالحين .

(١) يونس : ٢٢ - ٢٣ .

(٢) العنكبوت : ٦٥ .

عود إلى بدء :

هذه هي المردودات الإيجابية للابتلاء في نفوس المؤمنين : (النداء ، والدعاء ، والدعاء العريض ، والإنابة ، والجوار إلى الله) . وتلك هي المردودات السلبية للابتلاء في النفوس المريضة : (اليأس ، والكفر ، والقنوط ، والجزع ، والإعراض عن الله) .

ومن عجب فإن الابتلاء هو الابتلاء ، ولا فرق بين ابتلاء وابتلاء ، ولكنه في نفوس الصالحين يثمر الإنابة والتضرّع ، وفي النفوس المعرضة عن الله يثمر اليأس والقنوط والكفر . إنّ الفرق ليس في الابتلاء ، وإنّما في النفوس التي ينزل عليها البلاء ، إنّ المطر ينزل من السماء ، فيعطي في التربة الخصبة الثمار الطيبة والرياحين والزهور ، ويعطي في التربة السبخة العوسج والشوك . وليس الفرق في المطر ، وإنّما في التربة التي ينزل عليها المطر . ولننظر الآن في نموذج آخر من ردود الفعل :

ردود فعل الإنسان السلبية والإيجابية تجاه النعمة :

النعمة كالابتلاء تنزل من عند الله وما ينزل من الله فهو خير ، سواء كان النازل ابتلاءً أو نعمةً . وردّ الإنسان على النعمة النازلة على شاكلة وعي الإنسان للنعمة ، وعلى قدر وعيه . فإذا كان وعي الإنسان للنعمة أنّها من فضل الله ورحمته كان ردّه على النعمة الشكر والطاعة . وإذا كان فهم الإنسان للنعمة أنه اكتسبها بحوله ، وقوته ، وبذكائه ، وفطنته ، لا بحول الله وقوته ، فإنّ ردّ الإنسان على النعمة الطغيان والغرور واللجاج والاستكبار . وكلما كان وعي الإنسان للنعمة أكثر كان شكره وخضوعه لله تعالى أكثر . فإذا كان شعور الإنسان تجاه نعم الله العجز عن الشكر ، لأن شكر النعمة أيضاً من نعم الله ورزقه لعباده كان ذلك أعلى مراتب الوعي والمعرفة والشكر .

والقرآن كما يولي اهتماماً وعناية كبيرة برّد الإنسان على الابتلاء ويعطي اهتماماً كبيراً برّد الإنسان على النعمة ، فهو يرسم صورة كاملة عن ردود الناس السلبية والإيجابية تجاه النعمة ، ويوجّه الناس إلى الرّد السليم والصحيح على النعمة : ﴿وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون﴾^(١) ، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكرون﴾^(٢) ، ﴿ورزقكم من الطيبات لعلّكم تشكرون﴾^(٣) .

ويبيّن القرآن للناس ، أنّ الناس قليلاً ما يشكرون الله على نعمه : ﴿وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون﴾^(٤) . وقلة الشكر تحصل من قلة الوعي والمعرفة ، ومن يشكر الله يعود الشكر له ، وليس ينتفع الله من شكره ، وإنما ينتفع هو بشكره : ﴿ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه﴾^(٥) ، ﴿ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه﴾^(٦) . وهذا باب واسع من المعرفة لا نريد أن ندخله الآن . والآن ننظر في كتاب الله لنرى ردود الناس على النعمة من السلب والإيجاب .

ردود الفعل السلبية تجاه النعمة :

١ - الإعراض والتأّي عن الله : ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأّ بجانبه﴾^(٧) ، وهو مردود النفوس المريضة تجاه النعمة ... بدل الإقبال ، الإعراض ، وبدل التقرّب ، التأّي والبعد .

(١) النحل : ١٤ .

(٢) النحل : ٧٨ .

(٣) الأنفال : ٢٦ .

(٤) الأعراف : ١٠ .

(٥) النمل : ٤٠ .

(٦) لقمان : ١٢ .

(٧) الاسراء : ٨٤ .

٢ - اللّجّاج والطغيان : يقول تعالى : ﴿ولو رحمناهم وكشفنا بهم من ضرّ
للّجّوا في طغيانهم يعمهون﴾^(١) ، واللّجّاج والطغيان من أسوأ أحوال الإنسان ،
وأسوأ مظاهر (الأنا) و (الأنانية) في شخصية الإنسان ، واللّهُ تعالى
يمقتها أشدّ المقت ، وإنّ الإنسان ليطغى ويلجّ في الطغيان فيهدم في
طغيان ساعة ما رزقه اللّهُ من رزق المعرفة والإيمان في سنين طويلة .
يقول أمير المؤمنين عليه السلام : «فاعتبروا يا أولي الألباب بما كان من فعل اللّهُ
بإبليس ، إذ احبط عمله الطويل وجهده الجهد ، وكان قد عبد اللّهُ ستة آلاف سنة ، لا
يدري من سنّي الدنيا أم من سنّي الآخرة عن كفر ساعة واحدة» .

٣ - المنع والبخل : يقول تعالى : ﴿وإذا مسّه الخير منوعاً﴾^(٢) .

٤ - الكفر : يقول تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة اللّهُ كفراً﴾^(٣) ، وتبديل
النعمة بالكفر أن يبدل الإنسان الشكر بالكفر . فإنّ النعمة تتحوّل في
أواني النفوس السليمة إلى الشكر ، وأمّا في النفوس المريضة فتتحوّل
فيها النعمة إلى الكفر .

٥ - النسيان : يقول تعالى : ﴿ثم إذا خوّله نعمة نسّي ما كان يدعو إليه من
قبل﴾^(٤) ، إن النعمة تلهي الإنسان وتنسيه حاجته ودعائه من قبل ، وإنّ
النسيان أسرع شيء إلى نفوس الغافلين عندما يكشف اللّهُ الضرّ عنهم :
﴿فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه﴾^(٥) .

٦ - الاعتداد بالنفس : يقول تعالى : ﴿فإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا ثم إذا
خوّلاه نعمةً مثاً قال إنّما أوتيته على علم بل هي فتنة﴾^(٦) ، إنّ العبد ليلجأ إلى اللّهُ

(١) المؤمنون : ٧٥ .

(٢) المعارج : ٢١ .

(٣) إبراهيم : ٢٨ .

(٤) الزمر : ٨ .

(٥) يونس : ١٢ .

(٦) الزمر : ٤٩ .

ويتضرّع في ساعة المحنة والشدة أن يكشف عنه السوء ، فإذا خوّله الله النعمة ، نسي دعاءه وتضرّعه من قبل ، ونسي أن الله قد خوّله النعمة وحسب أنه إنّما أوتي النعمة بحوله وقوته وذكائه وفطنته ، فيملكه الغرور والاعتداد بالنفس .

٧ - التكذيب والجدد : يقول تعالى : ﴿ ذرني والمكذّبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾^(١) . إنّها هي النعمة تتحوّل في النفوس المريضة إلى طغيان ولجاج وتكذيب بالله وأنبيائه وآياته ونعمه . يقول تعالى : ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ .

٨ - الطغيان : يقول تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴾^(٢) . إنّ النعمة توهم الإنسان بالاستغناء والقوة ، وهذا الوهم الكاذب يبعث في نفوس الناس الطغيان والاستكبار . والطغيان والاستكبار مصدر كل شر وفساد في حياة الناس .

٩ - الفرح والفخر : ﴿ وَلئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السينات عني إنه لفرحٌ فخور ﴾^(٣) . إنّ المؤمن سيء الظن بنفسه ، كثير الاتهام لها ، حزنه غالب ، وفرحه قليل ، حزنه في قلبه وبشره على وجهه ، وأبعد شيء عن الفخر ، لما يرى من عجزه وفقره إلى الله وقلة بضاعته عند الله ، ولا تزيده النعمة إلّا المزيد من الإحساس بالتواضع والتذلل بين يدي الله . ولكن مردود النعمة في النفوس الفارغة ، الفرح والفخر ، كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ .

١٠ - الشرك بالله : يقول تعالى : ﴿ ثم إذا خوّله نعمةً منه نسي ما كان يدعو

(١) المزمّل : ١١ .

(٢) العلق : ٦ .

(٣) هود : ٩ .

إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله^(١) ، عندما تشتدّ المحنة بالإنسان ، وتتقطع الأسباب به ؛ تتهاوى أمامه الآلهة الذين اتخذهم الإنسان شركاء لله من قبل ، ولم يبق أمامه غير وجه الله تعالى فينصرف الإنسان بكل قلبه ووجهه إلى الله وحده : ﴿ قل مَنْ ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر ﴾^(٢) . فإذا صرف الله عنه المحنة التي امتحنه بها من قبل ، نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وعادت الآلهة إلى حياته من جديد تملأ عقله وقلبه .

١١ - البغي في الأرض : ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾^(٣) ، إن البغي نتيجة النسيان والطغيان . وفي حالات اليسر ينسى الإنسان الله ويطغى ، ويسرع إليه النسيان والطغيان ، فإذا كان كذلك بغى في الأرض بغير الحق ، فإنّ البغي أقرب شيء إلى الطغيان . هذه هي أهم ردود الفعل السلبية للإنسان تجاه النعمة . والآن نتحدّث عن ردود الفعل الإيجابية للإنسان تجاه النعمة .

ردود الفعل الإيجابية تجاه النعمة :

نلتقي في القرآن بمشاهد عديدة من ردود الصالحين من عباد الله تجاه النعمة :

١ - من هذه المشاهد مشهد مرور سليمان عليه السلام على وادي النمل . ولنتأمّل في هذه اللوحة الرائعة التي يرسمها القرآن عن مشاهد النعم التي أنعم الله بها على عبده سليمان عليه السلام ، وعن شعور سليمان عليه السلام تجاه هذه النعم وهو شعور جميل ، جمال النعم التي أنعم الله بها عليه . ولنقرأ الآيات من سورة النمل ، ثم نتأمّل فيها : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن

(١) الزمر : ٨ .

(٢) الأنعام : ٦٢ .

(٣) يونس : ٢٢ .

والإنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين^(١) ، وهو مشهد جميل ، يستعرض فيه سليمان عليه السلام جنده من الجن والإنس والطير ، وهو المشهد الفريد في التاريخ ، فلم يجعل الله تعالى لأحد من قبله ولا من بعده سلطاناً على الجن والإنس والطير ، ويقف سليمان عليه السلام ، ليشهد هذا المنظر المهيّب من الاستعراض العسكري ، فيستمع إلى نملة تقول للنمل ، وقد آتاه الله تعالى علم منطق الطير ومنطق النمل : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * ، فتبسم سليمان ضاحكاً من قولها . ويشعر من أعماق قلبه بفضل الله عليه ورحمته بما أنعم عليه من السلطان الذي لم ينعم على أحد من قبله بمثله فيمتلئ قلبه شعوراً بعظيم نعم الله عليه ، ويمتلئ قلبه بالشكر لله . ويشعر أنه ليس في وسعه ، على الإطلاق ، أن يؤدّي شكر الله تعالى عليه وعلى والديه إلا أن يعينه الله تعالى ويمكّنه من ذلك ، وهو يشعر أنّ ما أنعم الله على والديه من الصلاح والنبوة ، من نعم الله عليه وليس في وسعه أن يشكر كل هذه النعم ، فيستعين بالله تعالى على شكره .

ولست أدري ما في هذا المشهد الرائع الذي يرسمه القرآن بدقة وعناية من مظاهر نعم الله وفضله بعبده ، ومما في نفس سليمان من الوعي والمعرفة والشكر ، والإحساس بالعجز عن الشكر ، واللجوء إلى الله أخيراً بالدعاء أن يعينه على شكره . وأنّ في (العبودية لله) و (المعرفة

باللَّهِ) آفاقاً من الجمال لا يعرفها إلا مَنْ تذوّق عرفان العبودية .

ولو أنّ غير سليمان عليه السلام من عامة الناس الذين لم يتذوقوا معنى العبودية والمعرفة كان يرزقه الله بعض هذه النعم والقوة والسلطان لتحوّل هذه النعم في حياته إلى غرور، وطغيان، واستكبار، وبغي، كما نشاهد ذلك في حياة الطغاة والجبابرة، الذين آتاهم الله الملك والسلطان .

٢ - ولنتقف عند مشهد آخر من مشاهد الرد تجاه نعم الله في حياة الصالحين في قصة موسى بن عمران عليه السلام، بعد أن أنجاه الله من قبضة القوم الظالمين، يقول: ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمَجْرِمِينَ ﴾^(١)، لقد أنجاه الله من القوم الظالمين، بعد أن كان في قبضتهم، وتحت سلطانهم، فكان حقاً عليه أن يعاهد الله تعالى ألا يكون ظهيراً للمجرمين . وقد عرف موسى عليه السلام أنّ شكر هذه النعمة أن يقاوم الظالمين، ويهدم ملكهم وسلطانهم ولا يكون ظهيراً لهم، فلو لا أنّ الناس يظاهرون المجرمين لم يتمكّنوا من البغي والعدوان، وهي وعي ومعرفة وشكر وعهد .

٣ - ونقف عند مشهد ثالث من مشاهد ردّ الإنسان تجاه نعم الله، وهو مشهد حضور بلقيس بعرشها عند سليمان عليه السلام . ولنتأمّل في صورة هذا المشهد الجميل في القرآن: ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ اسْتَقَرَّأَ عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ * وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾^(٢) . فيرى سليمان عليه السلام بلقيس ملكة سبأ ماثلة أمامه بعرشها . وقد مثلت أمامه، وهو في فلسطين وهي في سبأ، في لحظة أو أقلّ من لحظة، إن صحّ التعبير، لأنّ الذي آتاه الله علم الكتاب قال له إنه يحضرها له بعرشها قبل أن يرتدّ إليه طرفه . فيراها سليمان عليه السلام صاغرة أمامه، وقد جاء بها الذي آتاه الله علم الكتاب

(١) القصص: ١٧ .

(٢) النمل: ١٨ - ١٩ .

بعرشها ... فيشعر سليمان أول ما يشعر بفضل الله ورحمته ، وليس بقوته وسلطانه : ﴿ قال هذا من فضل ربّي ﴾ .

وهذا هو الشعور الأول الذي ينتابه تجاه هذا الملك والسلطان العظيم الذي آتاه الله ، ثم يشعر أن في هذه النعم الكبيرة امتحاناً له وابتلاءً ، وأن النعم التي يسبغها الله على عباده لها وجهان ، وجه النعمة والوجه الآخر الابتلاء . فلا ينبغي أن تشغله النعمة من الابتلاء الذي تستبطنه هذه النعم ، فما إن تشغل النعمة عن الابتلاء حتى يوقعه الشيطان في شركه الذي ينصبه عند مشاهد الابتلاء . ولذلك يسارع سليمان ﷺ فيقول بعد إدراك الحقيقة الكبرى التي ملأت قلبه من قبل : ﴿ هذا من فضل ربّي ﴾ ، يقول بعدها مباشرة : ﴿ ليلبوني أشكر أم أكفر ﴾ ، وعظيم أمر هذه المعرفة بعد ذلك الوعي معرفة الابتلاء بعد وعي النعمة .

ثم يقول ثالثاً : إنّ هذا الشكر الذي يودّيه العبد لله تعالى في مواجهة النعم لمصلحة العبد نفسه ، وليس الله بمستفيد من شكر عباده وعبادتهم ، فهو الغني بذاته عن كل شيء ، وعن كل أحد . فإذا شكر العبد ربه عاد الشكر إليه .

سلام الله عليك يا ابن داود . لقد أنعم الله عليك بنعمة المعرفة والوعي والبصيرة والهدى والنور ، ونعمة السلطان والقوة مع العدل ، ذلك السلطان الواسع الذي لم يؤتّه الله تعالى لأحد من عباده قبلك ولا بعدك من جند الإنس والجن والطير ، ومعرفة منطق الطير والنمل ، والقدرة على تحضير عرش ملكة سبأ وعرشها من سبأ إلى فلسطين في أقل من لحظة . وكل نعم الله تعالى عظيمة ، ولكنني لا أتردد في أن أقول : إن الأولى أعظم من الثانية ، والحمد لله على كل منهما وعلى كل حال .

المشاكلة بين العمل والنفس :

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ . يقرّر القرآن في هذه الآية حقيقة على درجة عالية من الأهمية في تفسير سلوك الإنسان . إن سلوك الإنسان وعمله جزء من نفسه ، وكيفما تكون نفسه طيبة أو خبيثة يكون سلوكه وعمله . النفوس الطيبة ثمارها طيبة في القول والفعل والموقف . والنفوس الخبيثة ثمارها خبيثة في القول والفعل والموقف . وهذه هي القاعدة التي يقرّرها القرآن في تفسير وفهم سلوك الإنسان : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ ولا يغير هذه الحقيقة أن يكون سلوك الإنسان تجاه خير أو شر ، بلاء أو رحمة ، قرآن وهدى ، أو فتنة وإضلال .

فإن سلوك الإنسان يبقى تجاه هذه الحوافز دائماً واحداً ، ولا يفسره غير نفسه التي بين جنبيه . وقد ورد في الحديث في تفسير هذه الآية أن (الشاكلة) في هذه الآية هي النية ، وما ذكرناه من التفسير هو تطبيق دقيق لهذه الرواية ، على أن الآية الكريمة واضحة في هذا الأمر حتى من دون هذه الرواية .

دور الحوافز في سلوك الإنسان :

وليس معنى ذلك تفريغ الحوافز من كل دور في سلوك الإنسان ، فلا يمكن عزل سلوك الإنسان عن الحوافز التي تثيره ، وتدفعه إلى الفعل . ولكن دور الحوافز هو التحفيز فقط إلى الفعل والقول ، وأما نوع العمل ومحتواه من خير وشر ، وجميل وقبيح ، وهدى وضلال ، وعدل وظلم ، وإنصاف وإجحاف فلا تفسره الحوافز وحدها وإنما تفسره نفس الإنسان ونيته ، وما في نفسه من طيب وخبث ، وسلامة واستقامة وانحراف وهدى وهوى .

إن العفو والانتقام حالتان تجاه الجريمة ، لا تحدّدهما الجريمة ، وإنما

تحدّدهما نفس صاحبها ، إن كان يحب العفو أو كان يحب الانتقام .
والعدل والظلم حالتان في نفوس الحكام ، لا يحدّدهما القوة والسلطان ،
وإنما يحدّدهما ما في نفس صاحبه من ميل إلى العدل أو جنوح إلى الظلم .
والغرور والتواضع حالتان في نفوس الناس لا تحدّدهما القوة والثروة ،
وإنما يحدّدهما ما في نفوس الأغنياء والأقوياء من ميل إلى الغرور أو
التواضع .

إن الحوافز في هذه الأمثلة وغيرها نفس الحوافز ، ولكن الردود
مختلفة ، واختلاف الردود ليس بسبب اختلاف الحوافز ، وإنما بسبب
اختلاف النفوس التي تتلقّى هذه الحوافز . فإذا استقامت فطرة الإنسان
كان سلوك الإنسان طيباً على شاكلة فطرته ونفسه ، وإذا انحرفت
الفطرة ، وتلوّثت نفس الإنسان ، كان سلوك الإنسان خبيثاً على شاكلة
نفسه وهواه .

إن تتألف العوامل التي تكوّن سلوك الإنسان من عنصرين من
الحوافز وهي التي تحفّز الإنسان إلى القول والفعل ، وهي من خارج
النفس ، ونفس الإنسان ونيّته وما في نفسه من طيب أو خبيث وهو من
الداخل ، وهذا العامل الأخير هو الذي يحدّد نوع العمل وشكله ومحتواه .
إن النفوس ليست أواني فقط لاستقبال الحوافز ، وإنما هي التربة التي
تعطي لسلوك الإنسان شكله ومحتواه . إنّ المطر ينزل من السماء ، فينزل
على تربة خصبة طيبة فتثمر الثمار الطيبة والأزهار والرياحين ، وينزل
على تربة سبخة قاحلة فتثمر الشوك والعوسج والحنظل . إن المطر هو
المطر ، لا فرق ، ولكن الفرق بين تراب و تراب . كذلك القرآن ينزل على
الناس ، فيكون شفاءً ورحمة لقوم ، وخساراً لقوم آخرين : ﴿ وننزل من
القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ ، والقرآن هو
القرآن ، لا فرق ، ولكن الفرق بين النفوس .

عامل الاختيار في سلوك الإنسان :

وإذا كانت المشكلة والمسألة بين سلوك الإنسان ونفسه قانوناً حتمياً ضمن سنن الله تعالى الثابتة ، كما تقرره هذه الآية الكريمة ، وإذا كانت النفس هي التي تعطي التفسير الكامل لسلوك الإنسان من خير وشر ... فليس ذلك بمعنى سلب المسؤولية عن الإنسان عن مشكلة نفسه بأنه لا يملك أن يفعل غير ذلك .

فإن الله تعالى قد مكن الإنسان من نفسه ، وأمكنه من تغيير نفسه ، فيتحمل الإنسان إذن المسؤولية الكاملة لسلوكه ، وإلى هذه المعنى يشير القرآن في مواضع كثيرة ، ومن هذه المواضع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ ﴾ ، إن كل تغيير في سلوك الإنسان وحياته لا يتم إلا إذا غير الإنسان نفسه ، واستجاب الإنسان للتغيير ، ومن دون أن يغير الإنسان نفسه لا يتغير شيء من حياته وسلوكه . إذن الإنسان هو مبدأ كل تغيير . وصحيح أن سلوكه تابع لنفسه ، وكيفما تكون نفسه يكون سلوكه وتكون حياته ، ولكن الإنسان قادر أن يغير نفسه ، وقد أمكنه الله تعالى من ذلك : ﴿ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ ﴾ . وهذا هو البعد الاختيار الإرادي من شخصية الإنسان وسلوكه . أما البعد الأول وهو مشكلة سلوك الإنسان لنفسه فهو من سنن الله تعالى الثابتة التي لا تتحول ولا تتبدل .

رسالة الأنبياء في حياة الإنسان :

ورسالة الأنبياء في حياة الإنسان هي تغيير نفوسهم وتطهيرها من الأدران بالتزكية حتى ينفعهم الكتاب والحكمة ، ولولا أن الأنبياء يقومون بدور التزكية في نفوس الناس لم ينفعهم الكتاب والحكمة . يقول تعالى :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾^(١). إن الكتاب يدعو الناس إلى الله ، ويأمر الناس بالحق والعدل ، ولكنه : ﴿ لا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ .

فإذا قام الأنبياء بتزكية نفوسهم وتطهيرها من أدران الهوى والذنوب؛ أصبح القرآن في حياتهم شفاءً ورحمةً . وشأن الأنبياء في ذلك شأن الفلاح الذي يريد أن يزرع أرضه ، لابد له أن يقوم أولاً باجتماع النباتات الطفيلية والأعشاب والأشواك من الأرض ، وحرث الأرض ، وسقيها ، فإذا تم له ذلك كان بإمكانه أن يزرع في الأرض ما شاء من الأزهار والأشجار والأثمار .

المنهج الكامل لتكامل الإنسان وإصلاحه :

والمنهج الكامل لتكامل الإنسان وإصلاحه يتضمن شطرين :

الشطرا الأول ما ينزل من جانب الله على الناس من نعمة أو بلاء . فإن هذه النعم والابتلاءات التي ينزلها الله تعالى على عباده تأتي لأهداف وغايات عالية لإصلاح الإنسان وكماله . فالنعم النازلة من عند الله هي أحد الطريقين إلى الله وذلك من خلال الشكر وعرفان الجميل والحمد والثناء والتمجيد . يقول تعالى : ﴿ ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾^(٢) ، ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾^(٣) ، والابتلاء ثاني الطريقين إلى الله ، وذلك من خلال التضرع والدعاء . يقول تعالى : ﴿ فأخذناهم بالأسساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾^(٤) .

(١) الجمعة : ٢ .

(٢) الأنفال : ٢٦ .

(٣) النحل : ٧٨ .

(٤) الأنعام : ٤٢ .

الشطر الثاني دور الأنبياء في تهذيب النفوس وتزكيتها وتطهيرها ، وإعداد النفوس لاستقبال التوازن من عند الله من الرحمة والابتلاء ، بالشكر والتضرع إلى الله . ولولا أن الأنبياء يهذبون نفوس الناس ويزكونها ؛ لكان ردّ الناس على النعم النازلة والابتلاء النازل من عند الله ردّاً سلبياً وجافياً في أغلب الأحوال ، ولكن الأنبياء يوطئون النفوس لاستقبال النعمة والابتلاء ، وعندئذ تكون النعمة والابتلاء طريقين للإنسان إلى الله تعالى .

الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة في التاريخ والمجتمع :

إن الناس يختلفون بأعمالهم وأقوالهم إلى فئتين كبيرتين واسعتين : الفئة الطيبة وهي الشجرة الطيبة ، والفئة الخبيثة وهي الشجرة الخبيثة ، وتختلف الفئتان في الأعمال والأقوال باختلاف النفوس كما يقرّره القرآن ، فأصحاب النفوس الطيبة أعمالهم طيبة وأقوالهم طيبة ، وأخلاقهم طيبة ، كالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها وثمارها ، طيبة كل حين . وأصحاب النفوس الخبيثة أفعالهم خبيثة ، وأقوالهم خبيثة ، كالشجرة الخبيثة . ولا يصدر الطيب إلا من الطيب ، ولا يصدر الخبيث إلا من الخبيث .

والناس في التاريخ والمجتمع شجرتان ، شجرة طيبة هي ، شجرة الأنبياء وأتباعهم ، وهي شجرة مباركة تؤتي أكلها كل حين ، أعمالها مباركة ، وأقوالها مباركة ، وذريتها مباركة ، وآثارها مباركة ، وثمار هذه الشجرة التوحيد ، والعدل ، واليقين ، والإخلاص ، والتقوى ، والإنصاف ، والعطاء ، والبذل ، والتعاون ، والمحبة ، والتواضع ، والعفاف ، والشجاعة ، والعلم ، والبصيرة ، والإصلاح ، وغير ذلك من القيم

والأصول التي أودعها الله تعالى في فطرة الإنسان . والشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ، مالها من قرار ، أفعالها خبيثة ، وأقوالها خبيثة ، ثمارها الشرك ، والظلم والفسق ، والعداوة ، والبغضاء ، والبخل ، والاستئثار ، والأنانية ، والاستكبار ، والفساد ، والتخريب ، والعدوان ، وغير ذلك من وجوه الفساد .

وهاتان الشجرتان جبهتان متقابلتان ومتصارعتان على امتداد التاريخ . وهذا التضاد والصراع والتقاطع فيما بينهما في الأخلاق ، والقيم ، والعقيدة ، والعمل ، والقول ، والمواقف ، وهما كلمتان في التاريخ . يقول تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (١) .

والصراع بين هاتين الشجرتين والكلمتين هو التاريخ ، وليس غيره ، والصراع بين هاتين الكلمتين ليس في ساحات الحرب فقط ، وإنما في الثقافة ، والحضارة والأخلاق والمواقف والقيم ، وفي هذا الصراع : ﴿ ثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

والحقيقتان الكبيرتان اللتان ينبغي أن نفهما ونؤكد عليهما في هذه الثنائية العظيمة في التاريخ والمجتمع ، وفي انشطار المجتمع إلى كلمة طيبة وكلمة خبيثة ، إن الله تعالى لم يخلق نفساً خبيثة قط ، وإنما خلق النفوس طيبة ، وأودع فيها الطيبات من القيم ، والأخلاق ، والعقل ، والضمير ، والفطرة . والنفوس كما خلقها الله تعالى كلمة طيبة وشجرة

طيبة لا تؤى إلا الثمرة الطيبة ، وإنما الإنسان هو الذي يفسد هذه الكلمة التي خلقها الله تعالى طيبة ، ويجعلها خبيثة .

والحقيقة الثانية أن بإمكان الناس في كل من الجبهتين أن يتحولوا إلى الجبهة الأخرى ، وليست هناك حواجز ثابتة بين الجبهتين . وساحة الطف شاهدة على ذلك فقد تحول الشمر وعمر بن سعد اللذان كانا مع علي عليه السلام في صفين إلى جبهة يزيد بن معاوية في الطف ، وتحول زهير والحر رحمهما الله اللذان كانا من جبهة بني أمية إلى جبهة الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء . فقد رفع الله تعالى الحواجز بين الجبهتين وألهم النفوس فجورها وتقواها ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (١) .

بين النفس والعمل :

وفي ختام البحث عن هذه الآية الكريمة نطرح السؤال التالي في العلاقة بين العمل والنفس الإنسانية : إذا كانت النفس الإنسانية هي أساس العمل ، والعمل ثمرة النفس ، سواء كان العمل طيباً أم خبيثاً ، فإن الطيب لا يصدر إلا عن النفوس الطيبة والخبيث لا يصدر إلا عن النفوس الخبيثة ، وإذا عرفنا أن مآل الطيب هو الله ، وكل طيب يرجع لا محالة إلى الله ومآل الخبيث إلى نار جهنم : ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ﴾ (٢) .

أقول : إذا عرفنا هذه الحقائق نتساءل أيهما يصعد إلى الله ، العمل الصالح أم الكلمة الطيبة التي هي أصل العمل وهي النفس المؤمنة ،

(١) البلد : ٨ - ١٠ .

(٢) الأنفال : ٣٧ .

وما هي العلاقة بينهما في العروج والصعود إلى الله ؟
 إنّ القرآن الكريم صريح في أن الكلمة الطيبة هي التي تصعد إلى الله ،
 والكلمة الطيبة هي النفس الطيبة والقلب السليم . ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا
 من أتى الله بقلب سليم ﴾ (١) .

ولكن ذلك لا يتم إلا بالعمل الصالح ، فلا تستطيع الكلمة الطيبة أن
 تصعد إلى الله إلا أن يرفعها العمل الصالح . وهذه حقيقة مهمة يقرّها
 القرآن في العلاقة بين النفس والعمل : إنّ النفس هي التي تصعد إلى الله ،
 ولكن العمل الصالح يرفعها ، يقول تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل
 الصالح يرفعه ﴾ (٢) . وهذه واحدة من رقائق حقائق القرآن نلخصها فيما
 يلي :

إنّ العمل دائماً على شاكلة نفس الإنسان من خير أو شر ، وإنّ النفس
 هي الأساس في صياغة وتبلور عمل الإنسان . ولكن الله تعالى فتح على
 نفس الإنسان أبواب الهداية والصالح ومكّنها من ذلك ، كما أودع فيها
 كنوزاً من الصلاح والبصيرة والهدى . وساحة الحياة كلمتان طيبة
 وكلمة خبيثة ، وثمار الكلمة الخبيثة خبيثة وثمار الكلمة الطيبة طيبة .
 ومآل الكلمة الطيبة إلى الله ، ومآل الكلمة الخبيثة إلى نار جهنم . والذي
 يصعد إلى الله هو الكلمة الطيبة ، وليس العمل الصالح ، ولكن لابد من أن
 يرفعها العمل الصالح إلى الله ، ولا تصعد الكلمة الطيبة إلى الله تعالى من
 دون العمل الصالح ، ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ صدق
 الله العلي العظيم .

والحمد لله رب العالمين

(١) الشعراء : ٥٩ .

(٢) فاطر : ١٠ .

جواز الإقسام على الله

محمد خاتر الميدي

مقدمة :

من المسائل التي أفتى الوهابيون بعدم جوازها هي الإقسام على الله بالأولياء وحقهم وجاههم ، قائلين بأنها نوع من التوسل المنهي عنه . إذ قسموا التوسل إلى أقسام وعدوا منها الإقسام على الله تعالى على ما جاء في كلام ابن تيمية حيث قال : «أما التوسل بذاته (محمّد) في حضوره أو مغيبه أو بعد موته مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السّؤال بنفس ذواتهم لآبدعائهم فليس هذا مشهوراً عند الصحابة والتابعين»^(١).

وقال المفتي الوهابي : «... أن يتوسل بجاه الرسول سواء في حياته أو

(١) قاعدة جلية في التوسل والوسيلة : ١٢٩ .

بعد مماته فهذا توسل بدعي لا يجوز»^(١).

يبنغي لتوضيح المراد ، بيان معنى البدعة وأقسام التوسل على نهجهم أولاً ، ثم التحقيق حول المسألة ثانياً .

معنى البدعة :

جاء في فتاوى في العقيدة أن «البدعة هي كل ما أحدث على غير مثال سابق ، ثم منها ما يتعلق بالمعاملات وشؤون الدنيا ... فهذه في نفسها لا حرج فيها ولا إثم في اختراعها ... وقد يكون البدعة في الدين عقيدة أو عبادة ، قولية أو فعلية كبدعة نفي القدر وبناء المساجد على القبور ، وإقامة القباب على القبور وقراءة القرآن عندها للأموات والاحتفال بالمواليد إحياء لذكرى الصالحين والوجهاء ... فهذه وأمثالها كلها ضلال لقول النبي ﷺ : «ياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» لكن منها ما هو شرك أكبر يخرج من الإسلام كالاستعانة بغير الله والذبح والنذر لغير الله ، ومنها ما هو ذريعة إلى الشرك كالتوسل إلى الله بجاه الصالحين .

ثم أضاف فيه بأنها : لا تنقسم البدعة في العبادات إلى الأحكام الخمسة كما زعم بعض الناس لعموم حديث كل بدعة ضلالة^(٢) .

نقول : تعريف البدعة بما مر منهم مما لا بحث فيه وهو كما جاء في

(١) فتاوى في العقيدة : ١٠١ ، هذا عنوان كتاب يحتوي على أكثر من ٤٠ فتوى من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز مفتي عام المملكة العربية السعودية والرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ومحمد بن صالح العثيمين عضو هيئة كبار العلماء بتلك المملكة .

(٢) نفس المصدر : ٣١ .

الأخبار الواردة من أئمة أهل البيت عليهم السلام مثل ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام : «السنّة ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وآله والبدعة ما أحدث من بعده»^(١) وجاء في رواية عن الصادق عليه السلام : «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة إلى النار»^(٢) وفي الكتاب العزيز : ﴿اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(٣).

وأما في كون الأمثال المذكورة مصاديق البدعة ففيه نظر جداً كما سيأتي الإشارة إلى بعضها.

أقسام التوسل وأحكامه عند الوهابية :

قال ابن تيمية : لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان :

أحدها : التوسل بطاعته (محمد) فهذا فرض لا يتم الإيمان إلّا به .

الثاني : التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته .

الثالث : التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه لا في حياته ولا بعد مماته ولا عند قبره ولا غير قبره ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه : «إنه لا يجوز ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك»^(٤).

وجاء في فتاوى في العقيدة :

(١) معاني الأخبار : ١٥٥ .

(٢) أصول الكافي : ١ : ٧٢ .

(٣) يونس : ٥٩ .

(٤) قاعدة جلية : ٥٠ .

التوسل بالنبي أقسام :

أولاً: أن يتوسل بالإيمان به فهذا التوسل صحيح مثل أن يقول : اللهم إني آمنت بك وبرسولك فاغفر لي وهذا لا بأس به .
 ثانياً: أن يتوسل بدعائه أي بأن يدعو للمشفوع له وهذا أيضاً جائز وثابت لكنه لا يمكن أن يكون إلا في حياة الرسول .
 ثالثاً: أن يتوسل بجاه الرسول ﷺ سواء في حياته أو بعد مماته فهذا توسل بدعي لا يجوز ذلك ؛ لأن جاه الرسول لا ينتفع به إلا الرسول ، وعلى هذا فلا يجوز للإنسان أن يقول : اللهم إني أسألك بجاه نبيك أن تغفر لي (١) .

المناقشة :

وحان لنا الآن بأن نضع قولهم على طاولة النقاش فنقول :
 أما القسم الأول : يعني التوسل بالطاعة والإيمان مما لا يحتاج إلى البحث إذ هو خارج عما نحن بصددده .
 وأما القسم الثاني : أي التوسل بالدعاء والشفاعة ، فنوافقهم بما في صدر مقالتهم من جواز التوسل بدعائه ﷺ وأما حصر جوازه في حياته فلا . إذ لا دليل عليه بل الدليل على خلافه مثل ما دل على أن النبي ﷺ والولي يسمع الكلام في حياته البرزخية ويجب .
 منها ما رواه النووي في رياض الصالحين عن النبي ﷺ بأنه قال : ما من أحد سلم علي إلا ردّ الله على روعي حتى أردد عليه السلام» (٢) .

(١) فتاوى في العقيدة : ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) رياض الصالحين : ٤٨٢ .

وفي رواية أخرى عن أوس بن أوس قال : « قال رسول الله ﷺ : إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ ، فقالوا : يا رسول الله ! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ قال : يقول بُليت ، قال : إن الله عزوجل حَرَمَ على الأرض أجساد الأنبياء »^(١) .

قال النووي : رواه أبو داود بإسناد صحيح وكذا في سابقها .
ومنها ما قاله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله ﷺ وتجهيزه : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك »^(٢) .
وما قاله عليه السلام أيضاً عند دفن سيدة النساء فاطمة عليها السلام : « السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك ... وستنبئك ابنتك بتضايف أمتك على هضمها فاحفظها السؤال واستخبرها الحال »^(٣) .

قال عبد الله بن باز (المفتي الوهابي) : « النصوص الدالة على موته ﷺ من القرآن والسنة معلومة وهو أمر متفق عليه بين أهل العلم ، ولكن ذلك لا يمنع حياته البرزخية كما أن موت الشهداء لم يمنع حياتهم البرزخية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياء عند ربهم يرزقون ﴾^(٤) .

وعلى هذا أفتوا باستحباب الصلاة والسلام على النبي وصاحبيه وقالوا : « يقول الزائر : بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، السلام عليك يا رسول الله ... السلام عليك يا سيد المرسلين وإمام

(١) نفس المصدر : ٤٨٢ .

(٢) نهج البلاغة ، صبحي الصالح ، الخطبة ٢٣٥ .

(٣) نفس المصدر ، صبحي الصالح ، الخطبة ٢٠٢ .

(٤) آل عمران : ١٦٩ .

المتقين ، أشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة ثم يسلم على أبي بكر وعمر»^(١).

يبدو مما ذكر أن للنبي حياة برزخية فيسمع السلام ، ويكون قادراً على جوابه . فأي فرق بين التسليم عليه وبين طلب الدعاء منه ؟
لقاتل أن يقول : إن كتاب الله العظيم ناطق بـ ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾^(٢)
و﴿ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾^(٣) وهو يدل على أن النبي لا يسمع دعاء أحد من أهل الدنيا إذ هو من الموتى ؟
لكنه مردود بالأدلة التالية :

أولاً - لا تدل الآيتان على عدم سماع الأموات كلام الأحياء لأن الآيتين كليهما ترشيح لتمثيل الكفار بالموتى ومبالغة في إقنات النبي عنهم حيث أنهم لا ينتفعون بمسموعهم ، وكان سماعهم كلا سماعاً كما جاء في كثير من التفاسير^(٤) ، وروى السيوطي في تفسيره الدر المنثور عن قتادة قال : هذا مثل ضربه الله للكافر كما لا يسمع الميت كذلك لا يسمع الكافر^(٥).

ثانياً - ما ورد من الأخبار في سبب نزولهما يدل على خلافه :
منها ما قاله النبي ﷺ يوم بدر حين وقف على قتلى المشركين

(١) التحقيق والإيضاح الكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة : ٨٤ .

(٢) النمل : ٨٠ .

(٣) فاطر : ٢٢ .

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تفسير الجلالين، كشف الأسرار وعدة الأبرار للمبيدي، الكشف للزمخشري، التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، الجامع أحكام القرآن للقرطبي، روح المعاني للأوسمي، في ضلال القرآن لسيد قطب وتفسير المراغي لأحمد مصطفى.

(٥) الدر المنثور ٦ : ٣٧٦ و ٧ : ١٨ .

(المطروحين في القليب) فقال : «يا أهل القليب ! هل وجدتم ما وعدكم حقاً؟ يا فلان ابن فلان ألم تكفر بربك؟ ألم تكذب بنبيك؟ ألم تقطع رحمك؟ فقالوا : يا رسول الله أيسمعون ما تقول؟ قال : ما أنتم بأسمع منهم لما أقول»^(١).

فظهر بأن السماع المنفي في الآيتين هو السماع النافع للموتى ولمن كان ميت القلب ، يعني فكما لا يقدر النبي أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم به إلى سبيل الرشاد لا يقدر أن ينتفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب الذي لا يستطيع فهم كتاب الله ومعرفته .

ثالثاً - إن طرف المحاورة في التوسل ليس الأجساد الخالية عن الأرواح ، بل أرواح هذه الأبدان ، فإن لها عيشة برزخية ، والوقوف عند القبر ، مع أن التكلم مع الأرواح ، إنما هو لأجل التوجه والالتفات ولا غير .

وأما القسم الثالث من التوسل يعني الإقسام على الله يقع بما يلي :
الإقسام بذات النبي والولي كما يقال : اللهم إني أسألك بنبيك محمد وآل محمد و ...

الإقسام بحق النبي كما يقال : اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد و ...

الإقسام بجاه النبي والولي كما يقال : اللهم إني أسألك بجاه محمد وآل محمد و ...

الإقسام بحرمة النبي والولي كما يقال : اللهم إني أسألك بحرمة محمد وآل محمد و ...

(١) نفس المصدر ١٨: ٧ ، تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ٢: ١٥٥ .

أما الأول يعني الإقسام على الله بذات النبي و ... فهو ممنوع عند الوهابية ، حيث قال مفتيهم : «التوسل بذواتهم فهذا ليس بشرعي بل هو من البدع من وجه ، ونوع من الشرك من وجه آخر ، فهو من البدع لأنه لم يكن معروفاً في عهد النبي وأصحابه وهو من الشرك ، لأن كل من اعتقد في أمر من الأمور أنه سبب ولم يكن سبباً شرعياً ؛ فإنه قد أتى نوعاً من أنواع الشرك ، وعلى هذا لا يجوز التوسل بذات النبي مثل أن يقول : أسألك بنبيك محمد»^(١).

وقال ابن تيمية : «الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا الذي لم تكن الصحابة يفعلونه ...»^(٢).

يلاحظ عليه في موضعين :

الأول في قوله - نوع من الشرك :

نسأل القائل لماذا تقول : إنه نوع من الشرك مع أنه لا يصدق عليه الشرك بأنواعه ولا ينافي التوحيد بأقسامه ؟

إذ الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ولا يقبل معه عملاً صالحاً عند الوهابية على أربعة أقسام :

شرك الدعوة : والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾^(٣).

شرك النية والإرادة والقصد : والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ أولئك الذين ليس

(١) فتاوى في العقيدة : ٩٠ .

(٢) قاعدة جلية : ٥٠ .

(٣) العنكبوت : ٦٥ .

لهم في الآخرة إلا النار»^(١).

شرك الطاعة : والدليل على قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحابارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾^(٢).

شرك المحبة : والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾^(٣).

والسائل إذا قال : «اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد» لا يكون مشركاً بشرك الدعوة لأنه لا يدعو محمداً وآله مع الله أو بدون الله ، وكذلك لا يكون مشركاً بشرك النية والإرادة لأنه لا يريد محمداً وآله من دون الله ، مضافاً إلى أن الآية بعيدة عن مرامهم فإنها تدل على إرادة الدنيا دون الآخرة كما روي عن سيدنا علي عليه السلام في تفسيرها أنه قال : «ذاك من يريد الدنيا لا يريد الآخرة»^(٤) ولا يكون مشركاً بشرك الطاعة إذ لا يريد بالإقسام إطاعة النبي من دون الله كما يفعل اليهود والنصارى في اتخاذهم الأحابار والرهبان والمسيح أرباباً من دون الله كما روي في الدر المنثور عن حذيفة : «بأنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم أطاعوهم في معصية الله»^(٥).

كما أن ذلك لا يعتبر شركاً في المحبة ؛ لأن الذي يحب محمداً وآل محمد لا يحبهم كحب الله بل إنما هو تمثيل الأوامر الإلهية التي فرضت بحبهم كأجر للرسالة والنبوة لقوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة

(١) هود : ١٥ - ١٦ .

(٢) التوبة : ٣١ .

(٣) البقرة : ١٦٥ .

(٤) الدر المنثور ٤ : ٤٠٦ .

(٥) نفس المصدر : ١٧٣ .

في القريب) ^(١). ولأنه يحبهم الله . إذ هم من المحسنين والمتقين والمتطهرين والمطهرين والصابرين والمتوكلين والمقسطين ، الذين أخبر الله في كتابه بأنه سبحانه يحبهم ^(٢).
على أن الوهابية لا تقول بمنع السؤال بالمحبة والطاعة حيث قالوا :
نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد ومحبه له وطاعته له واتباعه له ، لكان قد سأل بسبب عظيم يقتضي إجابة الدعاء بل هذا أعظم الأسباب والوسائل ^(٣).

الثاني في قوله : هو من البدع :

البدعة - على ما مر في بيانهم - هي كل ما أحدث على غير مثال سابق وهذا لا يصدق على السؤال بنحو : اللهم إني أسألك بنبيك . لأنه كان موجوداً في عهد النبي ﷺ . على ما رواه أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد .

منها : ما رواه عثمان بن حنيف قال : «إن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : أدع الله أن يعافيني ، فقال : إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير ، قال : فادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفعه لي» ^(٤).

(١) الشورى : ٢٢ .

(٢) جاء في الآيات التالية : البقرة : ١٩٥ ، آل عمران : ٧٦ ، البقرة : ٢٢٢ ، التوبة : ١٠٨ ، آل عمران : ١٣٦ و ١٥٩ ، الحجرات : ٩ .

(٣) قاعدة جلية : ٥٥ .

(٤) المستدرک للحاکم ١ : ٣١٣ ، مسند أحمد ٤ : ١٢٨ ، سنن ابن ماجه ١ : ٤٤١ ، وفاء الوفاء ٣ : ١٣٧٢ .

قال الحاكم في مستدركه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين .
وأما من حيث الدلالة فدلالته واضحة لأنه صرح فيه بأن النبي ﷺ أمر
الرجل بالدعاء بهذا النحو : «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد
نبي الرحمة» وتقدير كلمة الدعاء قبل لفظ نبيك خلاف للظاهر وادعاء بلا
دليل ، على أن قوله إني أتوجه بك إلى ربي أو توجهت بك . يدل على أن
ذات النبي محمد يكون وجهة دعاء الرجل لادعاءه .

وهذا الإمام الحسين بن علي عليه السلام يقول في دعائه :
«اللهم إني أسألك بكلماتك ومعاهد عزك وسكان سماواتك وأرضك وأنبيائك ورسلك
أن تستجيب لي فقد رهقني أمري عسراً فأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن
تجعل من أمري يسراً»^(١) .

الثاني : الإقسام على الله بحق النبي والولي ... هذا أيضاً ممنوع عند
الوهابية .

حكى ابن تيمية عن أبي حنيفة بأنه قال : لا يسأل (الله) بمخلوق ولا
يقول أحد أسألك بحق أنبيائك^(٢) وقال في توضيح مقالة أبي حنيفة بأن
السؤال بحق فلان فهو مبني على أصليين أحدهما : ماله من الحق عند الله ،
والثاني : هل نسأل الله بذلك .

ثم فصل في المسألة فقال : من قال ليس للمخلوق على الخالق حق
يسأل به فهو صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق حق عليه بالقياس
والاعتبار على خلقه ... ومن قال للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا

(١) بحوث في الملل والنحل للسبحاني ٤ : ٣١٣ .

(٢) قاعدة جلية : ٥٠ .

أريد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه فإن الله صادق لا يخلف الميعاد وهو الذي أوجبه على نفسه ... وهذا المستحق لهذا الحق إذا سأل الله به يسأل الله إنجاز وعده ، أو يسأل بالأسباب التي علّق الله بها المشيات كالأعمال الصالحة فهذا مناسب ، وأما غير المستحق لهذا الحق إذا سأل به بحق ذلك الشخص ذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب إجابة دعائه^(١).

قال الشيخ بن باز : «قول السائل أسأل الله بحق أوليائه أو بجاه أوليائه أو بحق النبي أو بجاه النبي بهذا ليس من الشرك ، ولكنه بدعة عند جمهور أهل العلم ومن وسائل الشرك ...»^(٢).

ويتم التحقيق حول المسألة ببيان أمور :

١ - في إثبات حق العباد على الله :

نحن معاشر الشيعة والقائلين بجواز الإقسام على الله بحق النبي والصالحين لا نقصد منه أن للمخلوق على الله حقاً بالقياس والاعتبار على خلقه كحقوق الناس بعضهم على بعض . إذ من البديهي أنه ليس لأحد بذاته حق على الله . بل المقصود من الحق هو المنزلة التي يمنحها الله لعباده تجاه طاعتهم وانقيادهم له ، وهو مزيد التفضل والعناية منه تعالى ، وتعبيره بالحق تطلقه لهم حيث يعتبر نفسه المقدسة مديونة وعبيده دائناً . فمن تلك الحقوق :

(١) نفس المصدر : ٥٧ - ٦٠ .

(٢) فتاوى في العقيدة : ٩٣ .

نصرة المؤمنين : لقوله تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) .
 ونجاة المؤمنين : لقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .
 وإثابة المطيعين : لقوله تعالى : ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(٣) .
 وقبول التوبة : لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾^(٤) .

والروايات أيضاً ناطقة ببعض هذه الحقوق :
 منها - عون العباد في الدين :
 قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة حق على الله عونهم ، الغازي في سبيل الله ،
 والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد التعفف»^(٥) .

ومنها - إدخالهم الجنة في الآخرة :
 قال رسول الله ﷺ : «... فمن عمل ذلك كله (جهد النفس والمال والقتل) كان
 حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله
 الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»^(٦) .

وقال ﷺ : «ما من مسلم أو إنسان أو عبد يقول حين يمسي وحين يصبح رضي
 بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً إلا كان على الله أن يرضيه يوم القيامة»^(٧) .
 ومنها - إجابة دعوتهم على ما رواه أبو هريرة :

«ثلاث حق على الله أن لا يرد لهم دعوة الصائم حتى يفطر ، المظلوم حتى ينتصر ،

(١) يونس : ١٠٣ .

(٢) يونس : ١٠٣ .

(٣) الأنعام : ١٢ .

(٤) النساء : ١٧ .

(٥) سنن النسائي ٦ ، كتاب النكاح ب ٥ ، والجهاد ب ١٢ . مسند أحمد ٢ : ٤٢٧ . سنن ابن ماجه ٢ : ٨٤١ .

(٦) سنن النسائي ٦ ، كتاب الجهاد ب ١٨ .

(٧) سنن ابن ماجه ٢ : ١٢٧٢ . وروى المسلم ٦ : ٣٧ بعبارة من رضى ... وجبت له الجنة .

والمسافر حتى يرجع»^(١).

ومنها - عدم تعذيب العباد :

قال رسول الله ﷺ : «... يا معاذ ! أتدري ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، يا معاذ ! أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : حقهم على الله أن لا يعذبهم»^(٢) .
وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : «جعل حقه على العباد أن يطيعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله»^(٣) .
وقال أيضاً : «وحق عليك أن لا تحرم به سائلك»^(٤) .

٢ - وقوع الإقسام بحق الأولياء في الموارد الآتية :

أ - حلف آدم على الله بحق النبي ﷺ جاء هذا الإقسام في كتب التفسير والحديث .

روى عمر بن الخطاب أنه : قال رسول الله ﷺ : «... لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي»^(٥) .

جاء في الدر المنثور : أخرج الطبراني في المعجم الصغير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : «لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه : رفع رأسه إلى السماء فقال : أسألك بحق محمد إلا غفرت لي فأوحى الله إليه ومن محمد ؟ فقال : تبارك اسمك

(١) كنز العمال الرقم ٣٣١٩ .

(٢) صحيح مسلم ١ : ٢٢٢ .

(٣) نهج البلاغة ، صبحي الصالح خ ٢١٦ .

(٤) الصحيفة العلوية : ٥٠ .

(٥) مستدرک الصحيحين للحاكم ٢ : ٦١٥ ، دلائل النبوة للبيهقي ٥ : ٤٨٩ .

لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله .
فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك ، فأوحى الله إليه
يا آدم ! إنه آخر النبيين من ذريتك ولو لا هو ما خلقتك»^(١) .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي
طالب عليه السلام قال : «لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربيه واشتد ندمه ، قال : اللهم إني
أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لي خطيئتي»^(٢) .
سند الحديث ودلالته :

أما من حيث السند فقد قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد^(٣) .
وأما من حيث الدلالة فلا غبار عليه لصراحته في التوسل بحق
النبي عليه السلام ومناقشة البعض بأن الإقسام على الله بمخلوقاته أمر خطير
يقرب من الشرك ، إذ جعل المخلوق بمرتبة الخالق والخالق بمرتبة
المخلوق ، لأن المحلوف عليه أعظم من المحلوف به غير مسموعة لأن
لازم الحلف بشيء على الله هو كون المحلوف به محترماً عند الله
ومقبول الشفاعة والدعاء ، لا كونه أعظم من المحلوف عليه ، فالمناقش لم
يفرق بين كون المحلوف به أكرم عند الله وبين كونه أعظم من الله .

تنبيه :

لا يبعد أن يكون المراد من الكلمات التي تلقاها آدم من ربه وتوسل بها
هي الذوات المقدسة (الخمسة الطيبة) كما اطلق الكلمة على عيسى في

(١) الدر المنثور للسيوطي ١: ١٤٢ . وروح المعالي للألوسي ١: ٢٣٧ . روح البيان للبرسوي ١: ١١٣ .

(٢) الدر المنثور ١: ١٤٦ .

(٣) المستدرک للحاکم ٢: ٦١٥ .

قوله تعالى: ﴿يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح﴾ (١).

قال الآلوسي في تفسيره: إذا أطلقت الكلمة على عيسى عليه السلام فلتطلق الكلمات على الروح الأعظم والحبیب الأكرم ﷺ فما عيسى بل وما موسى إلا بعض من ظهور أنواره وزهرة من رياض أنواره (٢).

ب - حلف النبي بحقه وحق من سبقه من الأنبياء:

عن أنس بن مالك، قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد... قال: الحمد لله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حبتها وأوسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين (٣).

وهذا سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام يقول في دعائه: «بحق من انتجبت من خلقك وبمن اصطفيته لنفسك، بحق من اخترت من بريتك ومن اجتبيت لشأنك، بحق من وصلت طاعته بطاعتك ومن جعلت معصيته كمعصيتك بحق من قرنت مولاته بمولاتك...» (٤).

ج - الحلف على الله بحق السائلين وغيرهم:

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعةً وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك. فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (٥).

(١) آل عمران: ٤٥.

(٢) روح المعاني ١: ٢٣٧.

(٣) حلية الأولياء ٣: ١٢١. مجمع الزوائد ٩: ٢٥٦.

(٤) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧، الفقرة ٨٦.

(٥) سنن ابن ماجه ١: ٢٥٦ الرقم ٧٧٨. مسند أحمد ٣: ٢١. وكذا رواه ابن سني بإسناد صحيح عن

بلال مؤذن... شواهد الحق: ١٥٤.

الحديث واضح الدلالة على صحة التوسل إلى الله بحق السائلين وغيرهم وجعله وسيلة لقضاء الحاجة . إلا أن البعض أورد الخدشة في سندده فيضعفه بأن فيه عطية العوفي وهو ضعيف .

جاء في تهذيب التهذيب : قال أحمد وذكر العطية العوفي فقال هو ضعيف ، كان هشيم يضعف حديث عطية . قال أبو زرعة لين ، قال أبو حاتم ضعيف ، قال الجوزجاني مائل ، وقال النسائي ضعيف ، وقال ابن عدي قد روي عن جماعة من الثقات ولعطية عن أبي سعيد أحاديث عدة وعن غير أبي سعيد وهو مع ضعفه يكتب حديثه وكان يعد مع شيعة أهل الكوفة^(١) ، فالملحوظ أن لا ذنب لعطية عند هؤلاء إلا كونه معدوداً من شيعة أهل الكوفة ومع ذلك كله روى هذا الحديث ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده^(٢) .

وهذا علي بن أبي طالب عليه السلام يقول في دعائه :

«... وبحق السائلين لك والرغبين إليك والمتعوزين بك والمتضرعين إليك وبحق

كل عبد متعبد لك في بر أو بحر أو سهل أو جبل»^(٣) .

فهل السؤال بحق الأولياء بدعة ؟ وهل كان علماء الشيعة وأئمتهم عليهم السلام خارجين من جمهور أهل العلم ؟ مع أن الأدلة الناصعة دالة على شرعية الإقسام بحق الأولياء .

٣ - يلاحظ على قوله : «وأما غير المستحق لهذا الحق إذا سأله بحق ذلك . سؤال بأمر أجنبي» . بهذا البيان .

(١) تهذيب التهذيب ٧ : ٢٢٥ ، الرقم ٤١٣ .

(٢) سنن ابن ماجه ١ : ٢٥٦ .

(٣) الصحيفة العلوية : ٥١ .

إذا ثبت أنه على الله حق للعباد وثبت وقوع الإقسام به . فلا مجال للبحث في استحقاق السائل ، لحق مناسب لأنه إذا قال آدم : اللهم بحق محمد ، أو قال النبي : بحق الأنبياء أو بحق السائلين . أو قال الإمام : بحق المنتجبين والمصطفين وغيرهم . فهل يمكن أن يراد منه إرادة حق السائل نفسه على الله ؟ أو الترادف بين قوله : اللهم بحق محمد أو بحق السائلين وبين قوله : اللهم بحقي عليك وأعمالي الصالحة ؟

مضافاً إلى ذلك يقتضي أدب العبودية أن لا يرى العبد حقه وأعماله شيئاً بين يدي الرب ، وأما حقوق الأنبياء والأولياء لا سيما أشرفهم وأفضلهم تصلح لأن يقع مسؤولاً بها . والعجب من ابن تيمية حيث قال : في توجيه الإقسام على الله بالحق ، إن فيه السؤال بحق السائلين وبحق الماشين في طاعته وحق السائلين أن يجيبهم وحق الماشين أن يثيبهم وهذا حق أوجبه الله تعالى وليس للمخلوق أن يوجب على الخالق شيئاً^(١). هذا ومن جانب آخر إذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة كما «توسل الثلاثة الذين آووا إلى الغار بصالح أعمالهم على ما جاء في الجوامع الروائية»^(٢) . فالتوسل بالنبي ﷺ أحق وأولى لما فيه النبوة والفضائل التي جمعت الكلمات .

الثالث : الإقسام على الله بجاه النبي والأولياء وحرمتهم .

وهو توسل بدعي عند الوهابية .

قال ابن تيمية : ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضي إجابة

(١) قاعدة جلية : ١٤٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الإجارة ١٢ .

دعائه (السائل) إذا سأل الله بهم حتى يسأل بذلك بل جاههم ينفعه إذا اتبعهم وأطاعهم فيما امروا به عن الله أو تأسئ بهم فيما سنوه المؤمنين^(١).

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : «... أن يقول القائل : اللهم إني أتوسل إليك بجاه النبي محمد ﷺ أو بحق نبيك أو بجاه عبادك الصالحين أو بحق عبدك فلان فهذا من أقسام البدعة المذمومة»^(٢). وجاء في فتاوى في العقيدة : «... أن يتوسل بجاه الرسول سواء في حياته أو بعد مماته فهذا توسل بدعي لا يجوز ... فلا يجوز للإنسان أن يقول : اللهم إني أسألك بجاه نبيك أن تغفر لي ...»^(٣).

التحقيق حول المسألة في أمرين :

الأول : في وجاهة الأولياء^(٤)

اتفق المسلمون بأن لأولياء الله وأنبيائه لا سيما أشرفهم وأفضلهم وأهل بيته ﷺ عند الله جاهاً عظيماً ولهم علو القدر والمنزلة .

جاء في الزيارة الجامعة المروية عن عاشر أئمة أهل البيت علي بن محمد الهادي ﷺ : «ولكم المودة الواجبة والدرجات الرفيعة والمقام المحمود عند الله والمكان المعلوم والجاه العظيم والشأن الرفيع»^(٥).

وهذا مما اعترف به الوهابيون وابن تيمية حيث قال : «إن هؤلاء

(١) نفس المصدر : ٥٧ .

(٢) الهدية السننية : ٤٨ .

(٣) فتاوى في العقيدة : ١٠٠ .

(٤) قال الفيومي وابن فارس أن الجاه مقلوب من الوجه .

(٥) عيون الأخبار : ٢ : ٢٧٨ .

(الملائكة والأنبياء والصالحين) لهم عند الله جاه وهذا صحيح فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة»^(١).

وقال أيضاً: إن جاه (النبي) عند الله أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين^(٢).

وجاء في كلمات ابن عثيمين (عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية): إذا كان الإنسان يتوسل بجاه النبي ﷺ باعتقاد أن للنبي ﷺ جاهاً عند الله...^(٣).

وجاه محمد ﷺ عند الله إنما هو بأنه رسول الله الذي أرسله شاهداً على الأمة، بشيراً بالجنة ونذيراً بالعقوبة، وهو سراج المنير وهادياً إلى صراطه المستقيم وهو مبين أحكامه ومبلغ رسالاته.

ونبي الله الذي بعثه لإنجاز عدته، ولإتمام نبوته وهو النبي المأخوذ على النبيين ميثاقه.

وعبد الله الذي أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به منه إلى السماء ليريه من آياته الكبرى وقرن الشهادة برسالاته وعبوديته له «جلّ وعلا» بالشهادة على توحيد نفسه وقرن طاعته بطاعة نفسه فقال: ﴿أطيعوا الله والرسول﴾^(٤)، وقرن الإيمان به بالإيمان بنفسه فقال: ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾^(٥).

فمحمد هذا هو عبد الله وحيبيه وبعيثة ونجيته وخيرته وكريمه

(١) قاعدة جلية: ٥٥.

(٢) نفس المصدر: ١٣١.

(٣) فتاوى في العقيدة: ٩٠.

(٤) آل عمران: ٣١.

(٥) الأعراف: ١٥٨.

وأمينه ورحمته وهو وجيه عند الله وله المقام المحمود . وجاه أهل بيته بأنهم أحد الثقلين في حديثه ﷺ المتفق على صحته الفريقان ، ونزل فيهم عشرات الآيات مثل آية المباهلة والتطهير والمودة و ... وهم الذين يحبون الله ويحبهم .

الثاني : وقوع السؤال بحرمة النبي وجاهه

إن الأدعية المأثورة تشهد بأن السؤال بحرمة الصالحين كان من سيرة المسلمين ، كما جاء في دعاء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام :
«اللهم إني أسألك بحرمة من عاذ بك منك ولجأ إلى عزك واستظل بفيئك واعتصم بحبك»^(١) .

وفي كلامه أيضاً : «يا ذا الجلال والإكرام أسألك بعزتك وجلالك وقدرتك وبركاتك وبحرمة محمد وآله الطاهرين أسألك بك وبهم»^(٢) .
قال السهمودي : إن التوسل والتشفع به ﷺ وجاهه وبركته من سنن المرسلين وسيرة السلف الصالحين^(٣) .

والسر في السؤال أو الحلف بجاه النبي وحرمة أو غيره من الصالحين شيئان :

١ - اعتقاد السائل بأن الله يحب النبي ﷺ بدليل اصطفاؤه واجتباؤه له ، بل هو حبيبته ويحب الصالحين بدليل توفيقه لهم لطاعته والعمل بمرضاته .

(١) الحيفة العلوية : ٣٧٠ و ٧٥ .

(٢) نفس المصدر : ٣٧٠ و ٧٥ .

(٣) وفاء الوفاء : ٣ : ١٣٧١ .

٢- إن السائل يحب النبي والولي والصالح لحب الله لهم . والحب في الله من أعلى مراتب الإيمان ، وهو مما سأله النبي من الله تعالى بقوله ﷺ : اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وأفضل الأعمال الحب في الله (١) .

فإذا جاز التوسل بصالح أعمالنا وهي العوارض فالتوسل بالنبي وصالح العباد وجاههم وهم الذوات كان أولى وأحق لأنهم يحبون الله ويحبهم .

على أن لا ريب في أن الأنبياء والمرسلين خصوصاً سيدهم الأعظم قد اتخذهم الله وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ دينه وشرايعه ، فأبى مانع في اتخاذهم خلق الله مجيبين لدعوتهم ، متضرعين بنبوتهم وصفوتهم وسائط إليه في غفران زلاتهم وقضاء حاجاتهم ، لعلمهم بأن المناسبة بينهم وبينه تعالى أقوى بكثير من المناسبة بين غيرهم وبينه عز وجل وإن كانوا كلهم عبيده .

وأما ما قاله ابن تيمية : من أن جاههم ينفعه إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به ، فيمكن الإيراد عليه بأن العاصي إذا سأل الله بحق النبي التوبة ، وكان قصده واقعاً الندم عما اقترفه من الذنوب والعزم على ترك العود إليها ، فلا ريب في انتفاعه بذلك التوسل للعمومات الدالة على قبول التوبة من التائبين وكلام ابن تيمية مما يطفئ بصيص الأمل في قلوب المسرفين ويوجد اليأس والقنوط في قلوبهم وقد نهى الله عنها ، حيث قال : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ (٢) ﴿ ولا تياسوا من روح الله فإنه لا يياس من روح الله إلا القوم

(١) كنز العمال ، الرقم ٣٧١٨ و ٣٧١٩ .

(٢) الزمر : ٥٣ .

الكافرون ﴿١﴾.

نعم قوله صحيح إجمالاً لأنه لا يقول أحد من القائلين بالجواز أن الكافر والمشارك الذي أنكر نبوته بل وربه إذا قال بلسانه : اللهم إني أسألك بجاه محمد وقلبه منكر له غفر الله ذنوبه وصار من أهل الفوز والجنة ، فالسؤال بهذه الكيفية لا أثر له .

ولإكمال البحث ينبغي الإلماح إلى مطلبين :

المطلب الأول - في أن الإقسام على الله بالمخلوق منهي عنه أو لا ؟
التحقيق في المسألة يقتضي تحرير محل النزاع فنقول ينقسم الحلف إلى أقسام :

١ - أن يحلف الحالف على نفسه ، وهو ما يقع تأكيداً وتحقيقاً لما بنى عليه والتزم به من إيقاع أمر أو تركه في الآتي كقوله : «والله لأصومن أو لأتركن استعمال الدخان» ، ويعبر عن هذا القسم بيمين العقد وهو المراد به في باب اليمين ولا يتحقق إلا إذا كان المقسم به هو الله جلّ جلاله .
٢ - أن يحلف الحالف لنفسه أو غيره لإسقاط حق أو إثباته وهو المراد به في باب القضاء ، فهذا أيضاً لا يصح ولا يترتب عليه أثر إلا أن يكون بالله تعالى .

٣ - الحلف على غيره ، أي الإقسام على الغير ويعبر عنه بيمين المناشدة وهو إما على الله وإما على المخلوق ، وكلاهما إما أن يكون بالله أو بالمخلوق فصارت الوجوه أربعة :

(١) يوسف : ٨٧ .

أ - الإقسام على المخلوق بالمخلوق كما يقال وأبيك والكعبة ، وبالنبي ... فهذا لا يوجب شيئاً ولا يثبت به تكليفاً للمخاطب وفي كونه معصية ، فقال الشافعي وأبو حنيفة بكراهته والحنابلة بحرمة والمالكية قالوا : إن كان الحلف بمعظم شرعاً كالنبي والكعبة فيه قولان الحرمة والكراهة ، والمشهور الحرمة وأما الحلف بما ليس بمعظم شرعاً كالحلف بالأنصاب فلا خلاف في تحريمه^(١).

فيه نظر وملاحظة :

لأنه يوجد كثيراً فيما وصل إلينا من السلف الحلف بغير الله ، كما جاء في كلام النبي ﷺ والإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث أقسما بنفسيهما الشريقتين مرات عديدة كقولهما «لعمري» وهو نموذج بارع في التربية الإسلامية^(٢).

وكذا فيما قاله أبو بكر بن أبي قحافة في قضائه للसारق بقوله (وأبيك ماليلك ليل سارق)^(٣) ، وأيضاً ما رواه البخاري في صحيحه : الحلف بالكعبة عند ابن عمر حيث قال رجل : انشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان ابن عفان فر ! يوم أحد قال نعم^(٤).

وابن عمر هذا نظر يوماً إلى الكعبة أو البيت فقال : ما أعظمك وأعظم

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ٢ : ٧٥ .

(٢) مسند أحمد ٥ : ٢١٢ ، وابن ماجه ١ : ٢٥٥ . نهج البلاغة ، صبحي الصالح ، الخطب : ٢٤ و ٥٦ و ٨٩ ، والرسائل : ٦ و ٩ و ٥٤ .

(٣) الموطأ ، كتاب الحدود ، الباب ١٠ ، الرقم ٢٣ .

(٤) صحيح البخاري ٤ : ٣٧٨ .

حرمته ! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك^(١).

فإذا جاز القسم والمناشدة بالعظيم أي الكعبة فكيف لا يجوز بالأعظم يعني المؤمن ، وإن لم يجز القسم والمناشدة بغير الله رأساً كما ادعى ، فكيف أقسم به النبي ﷺ والإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه والخليفة أبو بكر بغيره ولماذا لم ينه ابن عمر عنه ؟

ب - الإقسام على المخلوق بالخالق «الله» كما يقال : «والله لتفعلن كذا». قال الحنفية : إن أراد استحلاف المخاطب ولم يُرد أن يحلف هو ؛ فلا يكون يمينا ، وإن أراد أن يحلف أو لم يرد شيئاً فإنه يكون يمينا ، وإذا قال : أقسمت بالله لتفعلن كذا ؛ فإنه ينقصد يمينا يلزم به الحالف ولا شيء على المخاطب ، وأما المالكية قالوا : بوجوب الكفارة على الحالف ، وأما الحنابلة والشافعية قالوا : يكون يمينا على الحالف دون المخاطب^(٢) ؟

يلاحظ عليه : بأنه لا يترتب عليه شيء من إثم أو كفارة لا على الحالف ولا على المحلوف عليه ، لعدم صدق الحلف حقيقة على الحالف والقائل وعدم التزامه شيئاً ، ولعدم صدق الحنث على المحلوف عليه في عدم إنجاح مسؤوله ، نعم لا بأس بإنجاح السؤال إكراماً لاسم الله العظيم .

ج - الإقسام على الله بذاته المقدسة وصفاته وأسمائه الحسنی ، فلا إشكال في جوازه وأثره إذا دعيت مع الإخلاص .

د - الإقسام على الله بالمخلوق كما يقال : اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد أن تغفر لي ... فهذا مما ادعى الوهابية وشيخهم ابن تيمية

(١) نفس المصدر .

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ٢ : ٧٦ .

حرمته قياساً على الإقسام على المخلوق بالمخلوق ومستدلاً بأنه لا حق للمخلوق على الخالق .

قال ابن تيمية :

قد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغيره ، وكذلك الحلف بالقرآن بالمخلوقات ، ولا ينعقد به اليمين ولا كفارة فيه حتى لو حلف بالنبي لم ينعقد ، ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كالمالكي والشافعي وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين بل نهى عن الحلف بهذه اليمين فإذا لم يجز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على المخلوق فكيف يقسم بها على الخالق (١) ؟

وقال في موضع آخر : والذي قال أبو حنيفة وأصحابه : أنه لا يجوز، ونهوا عنه حيث قالوا لا يسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك . وقال القدوري : المسألة بخلقه لا يجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا يجوز وفقاً (٢) .

وجاء في الهدية السنية : الإقسام على الله بمخلوق فهو منهي عنه باتفاق العلماء (٣) .

ومما يستدل به على منع الإقسام على الله ما رواه جندب بن عبد الله عن رسول الله ﷺ : « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان قال عزوجل : من الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان ، إني قد غفرت له وأحببت عملك » (٤) .

(١) قاعدة جلية : ١٠٦ .

(٢) قاعدة جلية : ٥٠ .

(٣) الهدية السنية والتحفة الوهابية : ٢٠ .

(٤) صحيح مسلم ، نقلاً عن فتح المجيد : ٤٤٦ .

وفي الكل نظر من جهات :

أولاً - بعد ما ثبت من وقوع الإقسام على الله بذات النبي وحقه وحرمة وغيره من الصالحين ، فالقول بعدم جوازه اجتهد في قبال النص ، وأدّل دليل على جواز شيء وقوعه .

ثانياً - إن الأخبار الكثيرة تدل على جواز الإقسام على الله .

منها : ما رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ بقوله : «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره . وقال أيضاً : ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره»^(١) .

وما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : «إن رسول الله ﷺ قال رب أشعث مدفوع الأبواب لو أقسم على الله لأبره»^(٢) .

لقائل أن يقول حذف المقسم به يدل على اتحاد المقسم عليه والمقسم به ، وأما الجواب هو إن تعيين حمله على الله دون المخلوق يحتاج إلى دليل خاص ، والأصل عدم اتحاد المقسم عليه والمقسم به وعلى هذا يجوز تقدير المحذوف بنبي وغيره .

ثالثاً - الاتفاق الذي أدعى ابن تيمية والقنوري على عدم جواز الإقسام على الله معارض بما قاله أبو حامد بن مرزوق : بأن الجمهور على جواز الإقسام على الله ببعض مخلوقاته نبياً أو غيره^(٣) . على أنه قال أبو يوسف في الحنفية : أكره أن يقول فلان بحق أنبيائك وأسألك بحق البيت الحرام^(٤) . ولا يقول بالحرمة .

(١) صحيح البخاري ١٣٨ : ٢ و ١٥٢ : ٤ .

(٢) صحيح مسلم ٣٦ : ٨ .

(٣) التوسل بالنبي وجهلة الوهابيين : ٢٠٩ .

(٤) قاعدة جليلة : ٥٠ .

رابعاً - هذه مسألة اعتقادية وما جاء في كلام الفقهاء الأربعة فقهية فرعية ولا صلة بينهما حتى يتمسك بقول أبي حنيفة وغيره مضافاً إلى أن ابن تيمية حنبلي وشيخه أحمد لم يقل بالمنع صريحاً، بل لا رأي له في المسألة، نعم جاء في المغني «الحاوي للفقهاء الحنبلي»: «لا يجوز الحلف بغير الله وصفاته نحو أبيه أو الكعبة أو صحابي أو إمام»^(١) وهذا غير ما نحن بصددده أي الإقسام على الله بال مخلوق.

خامساً - قياس الإقسام على الله بالإقسام على المخلوق ممنوع لوجهين:

الأول: وقوع الإقسام على المخلوق بالمخلوق والقياس يقتضي صحته.

الثاني: إذا سلّمنا منع الإقسام على الله بالمخلوق إنما هو في اليمين والقضاء لا في غيرهما.

سادساً - الاستدلال على عدم جواز الإقسام بأنه لا حق للمخلوق على الله لا يسمع، لما مرّ في ثبوت الحق للعباد على الخالق من الأخبار والآيات.

وأخيراً: المراد من التألّي على الله المنهي هو الحلف على أن لا يفعل المعروف لا مطلق الإقسام بشهادة ما رواه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ: «قال أين المتألّي على الله لا يفعل المعروف فقال أنا يا رسول الله وله أي ذلك أحب»^(٢).

وما يدل على منع الحلف بغير الله مثل ما رواه النسائي في سننه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا

(١) المغني لابن قدامة ١١: ١٦٣.

(٢) صحيح البخاري ٢: ١١٤.

تحلفوا إلا بالله^(١).

يحتمل فيه وجهان :

- ١- أن يكون النهي عن الحلف به في مقام فصل الخصومات .
- ٢- إن الآباء والأمهات كانوا مشركين وعبداء الأصنام ، فلذا نهى عن الحلف بهم لأنهم ذوات غير مقدسة . ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله ، وكانت قريش تحلف بأبائها فقال لا تحلفوا بأبائكم»^(٢) . وما رواه النسائي عن عبد الرحمن بن سمرة عن النبي ﷺ قال : «لا تحلفوا بأبائكم ولا بالطواغيب»^(٣) في اقتران الآباء بالطواغيت دلالة على المدعى .

المطلب الثاني :

الرأي العام في التوسل بشكل عام ومن جملة الإقسام .
نذكر هنا آراء عدة من علماء السنة في التوسل لكي يطلع القاري على موقف التوسل عندهم .

- ١- ما قاله تقي الدين أبو الحسن علي السبكي :
يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبي ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين ، المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين ، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الأديان ولا يسمع به في زمن من الزمان ، حتى جاء ابن تيمية فتكلم في ذلك بكلام يلبس فيه

(١) سنن النسائي ٥ : ٧ .

(٢) صحيح مسلم ٨١ : ٥ .

(٣) سنن النسائي ٧ : ٧ .

على الضعفاء والأغمار ، وابتدع ما لم يسبق إليه في سائر الأعصار ، وقال في موضع آخر : ولا فرق بين أن يسمى ذلك تشفعا أو توسلا أو استغاثة ، وليس ذلك من باب تقرب المشركين إلى الله بعبادة غيره^(١) .

٢ - ما ذكره نور الدين السمهودي :

اعلم أن الاستغاثة والتشفع بالنبي ﷺ وبجاهه وبركته إلى ربه تعالى من فعل الأنبياء وسير السلف الصالحين . واقع في كل حال قبل خلقه ﷺ وبعد خلقه في حياته الدنيوية ومدة البرزخ وعرصات القيامة^(٢) .

٣ - ما حكاه النبهاني عن ابن حجر الهيتمي :

لا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو التشفع أو الاستغاثة أو التوجه ، لأن التوجه من الجاه^(٣) وهو علو المنزلة ، وقد يتوسل بذئ الجاه إلى من هو أعلى منه جاهاً^(٤) .

٤ - قاله عبد الرحمن الأزهري الشهير بالقباني :

لما كان أهل البدر في المهمات تنخرق ببركتهم العادات ؛ أحسبت أن أنخرط في مسلك المتوسلين بهم لأكون من الفائزين بإربهم من ربهم (إلى أن قال) وقدمت النبي ﷺ والعشرة المبشرة بالجنة : (وقال) : اللهم إني أسألك بسيدنا محمد رسول الله المهاجري ، وسيدنا أبي بكر الصديق المهاجري وسيدنا عمر بن الخطاب المهاجري وسيدنا عثمان بن عفان المهاجري وسيدنا علي بن أبي طالب المهاجري .
توسل هذا بالنبي والعشرة المبشرة ثم سائر المهاجرين والأنصار

(١) شفاء السقام : ١٣٣ و ١٩٥ .

(٢) وفاء الوفاء : ٣ : ١٣٧١ .

(٣) كما في المصباح والمقاييس وإن قال بعض آخر بكونه من الجوه .

(٤) شواهد الحق : ١٦٨ .

إلى آخر من شهد وقعة البدر على ترتيب الحروف الهجائية^(١).

٥ - ما نقله محمد الفقي من علماء الأزهر :

مما لا يحتاج إلى بيّنة واستدلال ولا يفتقر إلى حجة وبرهان أن التوسل لا يكون عبادة ولا شركاً إذا اقترن باعتقاد الربوبية أو خصيصة من خصائصها في التوسل كالاستقلال بالنفع والضرر . وقال في موضع آخر : إذن ما قضى أنه حاجته من حوائج المتوسلين إلى ربهم كرامة وإكراماً لهم في ذلك إلاّ لحبه لهم وحبهم له^(٢).

٦ - ما صرح به الشيخ داود أفندي :

التوسل بالنبي أو بغيره من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الذات أو بلفظ الحق أو بلفظ الجاه جائز^(٣).

٧ - ما تعرض له أبو حامد بن مرزوق بقوله :

الوسيلة لغة كل ما يتقرب به إلى الغير وتوسّل إلى الله توسيلاً ، عمل عملاً تقرب به إليه ، فتحقق منه أن التوسل لا يسمى عبادة قطعاً ولا يقال فيه عبادة ، وإنما هو وسيلة إليها ووسيلة الشيء غيره بالضرورة ، وهذا واضح ، فإن التوسل لا تقرب فيه للمتوسل به ولا تعظيمه غاية التعظيم ، والتعظيم إذا يصل إلى هذا الحد لا يكون الفعل المعظم به عبادة ، فلا يطلق اسم العبادة على ما ظهر من الاستعمال اللغوي إلاّ على ما كان بهذه المثابة من كون العمل دالاً على غاية الخضوع منوياً به التقرب للمعبود تعطى بذلك التعظيم التام^(٤).

(١) رفع القدر في التوسل بأهل البدر (التوسل) : ٥ - ٢٤ .

(٢) التوسل والزيارة : ١٤٠ و ١٤٨ .

(٣) صلح الاخوان : ٨٥ .

(٤) التوسل بالنبي وجهلة الوهابيين : ٥٨ .

تنبيه :

من المتداول في كلام الوهابيين وشيوخهم وأتباعهم أن كثيراً مما اعتقد به المسلمون كالتوسل ، والاحتفال والتبرك والزيارة والشفاعة والإقسام على الله شرك وبدعة مستدلين بأنها من محدثات الأمور .

فبعد ما عرفت فيما مرّ فهل هذه الأمور بدعة ؟ مع أنها ثبتت بالكتاب والسنة أو ما فعله بعض صحابة رسول الله بل خليفته عمر بن الخطاب أحدث في الدين ما ليس فيه فاعترف ببعضها ثم مدحها بأنها نعمت البدعة كما قال في صلاة التراويح في ليالي شهر رمضان بقوله : «نعمت البدعة هذه» !

روى مالك عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر : والله إنني لأراني لو جمعت هؤلاء على قاريء واحد لكان أمثل فجمعهم على ابن أبي كعب قال : ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم فقال عمر : «نعمت البدعة هذه» (١) .

وروى مسلم عن أبي هريرة ، قال : كان رسول الله ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة فيقول : من قام رمضان إيماناً واحتساباً بالله غفر له ما تقدم من ذنبه . فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدر من خلافة عمر

(١) موطأ مالك : ٧٣ .

على ذلك^(١).

وقال ابن الأثير في كتابه النهاية تبريراً لموقف عمر وكلامه :
البدعة بدعتان بدعة هدى وبدعة ضلالة إلى أن قال : لما كانت من
أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدحها لأن النبي ﷺ
لم يسنها لهم وإنما صلاها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها ولا جمع
الناس لها^(٢).

فإذا كانت البدعة قسماً واحداً ولا ينقسم إلى الأحكام الخمسة كما قال
به المفتي الوهابي^(٣) مستدلاً بعموم ما يروى عن النبي بقوله ﷺ : كل
بدعة ضلالة . فعمل عمر هذا بدعة بلا شك كما اعترف به نفسه ،
والمناقشة فيه بأنه عمل صدر من الصحابي بل الخليفة ، لا يجدي شيئاً
لأن الخلفاء والصحابة لم يكونوا شركاء النبي في الدين والتشريع ولم
يكونوا مأذونين فيه وإلا لكان كل ما عمل به الصحابة تشريعاً وكان
كلام النبي ﷺ : «إياكم ومحدثات الأمور» ناظراً إلى ما بعد عهده وعهد
الصحابة .

مع أن كلامه ﷺ : «إياكم ومحدثات الأمور» ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة
ضلالة» عام يشمل الأفراد والأزمان والأفعال كلها وتخصيصه ببعض
الأفراد أو الأزمان أو الأفعال غير مسموع لأنه يحتاج إلى دليل قطعي وهو
غير موجود .

(١) صحيح مسلم ١ : ١٧٧ .

(٢) النهاية ، بدع .

(٣) فتاوى في العقيدة : ٢٢ .

* قواعد أصول الفقه :

٧ - قاعدة : علانم الحقيقة والمجاز

٨ - قاعدة : لفظ الأمر حقيقة في الوجوب

* إعداد : لجنة في مجمع فقه أهل البيت عليه السلام

* نص القاعدة : علانم الحقيقة والمجاز^(١)

الألفاظ الأخرى للقاعدة : علامات الحقيقة والمجاز^(٢)

توضيح القاعدة :



لا ريب أنّ المعنى ينقسم إلى المعنى الحقيقي والمجازي - سواء قلنا بأنّ المجاز هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له بعلاقة معتبرة مع قرينة معاندة كما هو المشهور ، أم قلنا بأنّ المجاز هو تطبيق المعنى الموضوع له على ما أراده جدّاً بادعاء كونه مصداقه كما في الكليات أو

(١) نهاية الأصول : ٣١ ، ومناهج الوصول : ١ : ١٢٤ .

(٢) المحاضرات : ١ : ١٢٠ ، ودروس في علم الأصول : ١ : ٢١٥ .

عينه كما في الأعلام الشخصية فاللفظ مستعمل في ما وضع له لكن يكون الإرادة الجدّية على خلاف استعماله كما هو مذهب بعض المحققين^(١).

وعلى هذا لو شكننا في لفظ الماء مثلاً لهذا الجسم السيل المعهود نرجع إلى تلك العلام لإثباته^(٢).

وقد ذكر الأصحاب لتشخيص المعنى الحقيقي وجوهاً:

الأول - التبادر:

وهو خطور المعنى في الذهن بمجرد سماع اللفظ من غير قرينة ، وليس المراد منه ما يفهم من لفظه وهو سبق المعنى بالنسبة إلى معنى آخر في الذهن أو سرعة حصوله فيه^(٣).

ثم إنّ التبادر علامة الحقيقة عند الأصوليين من غير خلاف ظاهر . ولا يخفى أنّ تبادر المعنى من اللفظ من غير قرينة في زماننا هذا علامة على كونه معنى حقيقياً للفظ في الأزمنة السابقة على زمان التبادر ، وذلك لبناء العقلاء وسيرتهم على ذلك في محاوراتهم ، وقد يعبر عنه بالاستصحاب القهقرائي على عكس الاستصحاب المصطلح ، فإن المتيقن في الاستصحاب القهقرائي لاحق والمشكوك سابق ، وهذا حجة عند العقلاء ، بل على ذلك يدور استنباط الأحكام الشرعية من الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة ، ضرورة أنه لو لا اعتباره لا يثبت لنا أنّ هذه

(١) راجع مناهج الوصول ١: ١٠٢-١٠٥، ونهاية الأصول: ٢٨-٣٠.

(٢) راجع مناهج الوصول ١: ١٢٤.

(٣) راجع الكفاية: ١٨، ومناهج الوصول ١: ١٢٥، والمحاضرات ١: ١٢٠.

المعاني المتبادرة في زماننا ، هذا هي المعاني الحقيقية في زمان صدور هذه الألفاظ^(١).

والتبادر على قسمين :

١ - التبادر عند أهل المحاوراة ، وهو أن يرجع الجاهل بالوضع إلى أهل المحاوراة في مقام استعلام اللغات فيحصل له العلم بالوضع بما يرى من تبادر المعنى من اللفظ من غير قرينة عندهم .

٢ - التبادر عند المستعلم ، وهو أن يكون تبادر المعنى من اللفظ من غير قرينة عنده علامة على كونه معنى حقيقياً .

وهذا القسم يتوقف على العلم الإجمالي الارتكازي بالمعنى الحقيقي ، فإذا رأى أن هذا المعنى المعلوم ارتكازاً يتبادر من اللفظ من غير قرينة يحصل له العلم التفصيلي بأن هذا اللفظ وضع لهذا المعنى^(٢).

الثاني - عدم صحة السلب وقد يعبر عنه بصحة الحمل :

توضيح ذلك : أن حمل اللفظ بما له من المعنى الارتكازي على معنى وعدم صحة سلبه عنه تكون علامة كونه حقيقة فيه .

ثم لا يخفى أن الحمل على قسمين :

١ - الحمل الأولي الذاتي الذي ملاكه الاتحاد مفهوماً ، فصحة الحمل الأولي الذاتي علامة كون المعنى الارتكازي نفس المعنى .

٢ - الحمل الشائع الصناعي الذي ملاكه الاتحاد وجوداً ، فصحة الحمل

(١) راجع المحاضرات ١ : ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) راجع الكفاية : ١٨ ، ونهاية الأصول : ٣٩ ، ٤٠ ، ومناهج الوصول : ١ : ١٢٦ ، والمحاضرات ١ : ١٢١ .

الشائع الصناعي علامة كونه من مصاديقه وأفراده الحقيقية^(١).

ثم إنَّ صحة الحمل على قسمين :

١ - صحة الحمل عند أهل المحاورة .

٢ - صحة الحمل عند المستعلم ، وقد تقدم توضيحه في التبادر .

وقد أشكل فيه الإمام الخميني «رضوان الله عليه» بأن صحة الحمل لا تكون علامة لا الأولى منه ولا الشائع ، لأن الاستشهاد إمّا أن يكون بصحته عنده أو عند غيره :

أمّا الحمل الأولي عند المستعلم ، فإن التصديق بصحة الحمل الأولي يتوقف على العلم باتحاد المعنى مع اللفظ بما له من المعنى الارتكازي مفهوماً ، وهذا عين التصديق بوضع اللفظ للمعنى ، فلا مجال لتأثير صحة الحمل في رفع الشك .

وأمّا الحمل الأولي عند غيره فلاّنه لا يمكن الكشف عن كونه حملاً أولاً إلّا مع تصريح الغير به ، فيرجع إلى تنصيب أهل اللسان لا صحة الحمل أو العلم بوحدة المفهومين ، فلا يبقى شكّ حتّى يرفع بصحة الحمل .

وأمّا الحمل الشائع فلما كان على قسمين : بالذات وبالعرض ، فمع التردد بينهما لا يمكن الكشف ، ومع التميّز فلا شكّ حتّى يرفع به ، لأنّ العالم بأنّ الحمل بالذات عالم بالوضع قبل الحمل^(٢).

(١) راجع الكفاية : ١٩ ، ودروس في علم الأصول ١ : ٢١٦ .

(٢) منهاج الوصول ١ : ١٢٧ ، ١٢٨ .

الثالث - الاطراد :

قال المحقق الاصفهاني «رضوان الله عليه» : إذا أُطلق لفظ باعتبار معنى كلي على فرد مع القطع بعدم كون ذلك الفرد من حيث الفردية معنى حقيقياً ، والشك في كون هذا المعنى الكلي معنى حقيقياً ، فإذا كان الإطلاق مطرداً باعتبار هذا المعنى الكلي كشف عن كونه من المعاني الحقيقية ، لأن صحة إطلاقه على أفرادهِ مطرداً لا بدّ من أن تكون معلولة لأحد الأمرين ، إمّا الوضع أو العلاقة ، وحيث لا اطراد لأنواع العلائق المصححة للتجوز ثبت الاستناد إلى الوضع ، فنفس الاطراد دليل على الحقيقة وإن لم يعلم وجه الاستعمال على الحقيقة^(١) .

وقد يشكّل فيه بأنّ اللفظ إذا استعمل في المعنى الكلي مجازاً مع علاقة معتبرة بإطلاقه على أفراد ذلك المعنى مطرد ، إذ لا يعقل أن يكون المعنى كلياً ومع ذلك لا ينطبق على تمام أفرادهِ ومصاديقهِ ، بإطلاق اللفظ على أفراد المعنى المستعمل فيه مطرداً لا يدلّ على كون ذلك المعنى من المعاني الحقيقية^(٢) .

الرابع - تنصيب أهل اللسان :

وهو أن يرجع الجاهل باللغة إلى أهل اللغة واللسان في استعلام المراد من اللفظ ، فمع تنصيبهم بأن هذا معنى ذلك اللفظ يعلم كونه معنى حقيقياً^(٣) .

ويظهر مما ذكرنا علائم المجاز أيضاً وهي صحة السلب وعدم الاطراد.

(١) نهاية الدراية ١ : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) الكفاية : ٢٠ ، والمحاضرات ١ : ١٢٠ ، ودروس في علم الأصول ١ : ٢٦٦ .

(٣) مناهج الأصول ١ : ١٢٧ .

ثمرة البحث :

يستفاد من هذه العلائم لتحقيق مصاديق للظهورات من الألفاظ ،
وحينئذ يمكن حجية الظهور واستفادة الأحكام الشرعية من النصوص
ولو بضميمة الأصول العقلائية الأخر .

* نص القاعدة : لفظ الأمر حقيقة في الوجوب^(١)

توضيح القاعدة :

١ - قد ذكر للفظ «الأمر» معانٍ عديدة ، منها : الشأن والفعل والشيء
والحادثة والغرض والطلب^(٢) . والمقصود بالبحث هنا هو الأمر بمادته
(ام ر) وبمعناه الحدثي الذي جمعه أوامر لا أمور ، فالكلام في المعنى
الأخير دون غيره من المعاني .

قيل : إنّ مادة الأمر موضوعة للطلب المتعلق بفعل الغير لا الطلب
المطلق ، لأن لفظ الطلب ينطبق بمفهومه على الطلب التكويني كطلب
العطشان للماء والطلب التشريعي المتعلق بفعل الغير ، فالنسبة بين الأمر
والطلب عموم مطلق^(٣) .

ويمكن أن يقال : إنّ مادّة الأمر موضوعة لمعنى يرادفه ما يقال له
بالفارسية : «دستور» ، وهو غير الطلب مفهوماً .

٢ - الظاهر اعتبار العلوّ في معنى الأمر ، فلا يكون من السافل
والمساوي أمراً .

والعلوّ أمر اعتباري له منشأ عقلائي يختلف بحسب الزمان والمكان ،

(١) الكفاية : ٦٣ .

(٢) الكفاية : ٦١ ، والمحاضرات ٢ : ٥٠ ، ونهاية الأصول : ٨٥ .

(٣) المحاضرات ٢ : ٧ ، ودرس في علم الأصول ١ : ٢٢٤ .

والميزان هو نفوذ الكلمة والسلطة والقدرة على المأمور ، فالسلطان المحبوس لا يكون أمراً بل رئيس المحبس يكون أمراً بالنسبة إليه^(١).

٣ - الظاهر اعتبار الاستعلاء أيضاً في معنى الأمر ، فلا يكون العالي أمراً إذا لم يكن مستعلياً بل كان مستدعياً ، فلا يقول حينئذٍ «أمرتك كذا»^(٢).

وقيل بعدم اعتبار الاستعلاء في معنى الأمر ، لصدق الأمر من العالي المستخفّض لجناحه^(٣).

فبعد هذه التوضيحات نقول :

لا إشكال في ظهور مادة الأمر في الوجوب ، وإنما الكلام في أنه بالوضع . أو بالإطلاق ، أو بحكم العقل ؟ ففيه ثلاثة أقوال : والمشهور هو الأول^(٤).

أدلة القول الأول :

أ - التبادر وهو انسباق الوجوب إلى الذهن عند إطلاق لفظ الأمر^(٥).

ب - قوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾^(٦).

تقريبه أن الأمر لو كان يشمل الطلب الاستحبابي ؛ لما وقع على إطلاقه موضوعاً للخطر من العقاب^(٧).

(١) الكفاية : ٦٣ ، وفوائد الأصول : ١ : ١٢٩ ، ومناهج الوصول : ١ : ٢٣٩ ، والمحاضرات ١ : ١٣ ، ودروس في علم الأصول : ١ : ٢٢٤ .

(٢) مناهج الوصول : ١ : ٢٣٩ ، وفوائد الأصول : ١ : ١٢٩ .

(٣) الكفاية : ٦٣ ، ودروس في علم الأصول : ١ : ٢٢٤ .

(٤) المحاضرات ١ : ١٣ .

(٥) الكفاية : ٦٣ ، ومناهج الوصول : ١ : ٢٤١ ، ودروس في علم الأصول : ١ : ٢٢٥ .

(٦) النور : ٦٣ .

(٧) دروس في علم الأصول : ١ : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، وراجع الكفاية : ٦٣ ، ومناهج الوصول : ١ : ٢٤١ .

ج - قول النبي ﷺ : «لو لا أن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند وضوء كل صلاة»^(١).

وفي رواية : «مع كل صلاة»^(٢).

تقريبه أن الرواية ظاهرة في أنّ الأمر يوجب المشقة والكلفة مع أنّ الاستحبابي لا يوجبهما، مضافاً إلى أن الطلب الاستحبابي وارد بالسواك، فلو كان أمراً لم يقل ذلك^(٣).

تقريب القول الثاني : هو أن لفظ الأمر موضوع لمطلق الطلب الجامع بين الوجوب والندب ، وبيان الندب يحتاج إلى مؤونة زائدة ، فالإطلاق يقتضي الوجوب^(٤).

تقريب القول الثالث : هو أن العبد لابد أن ينبعث عن بعث المولى إلا أن يرد منه الترخيص بعدما كان المولى قد أعمل ما كان من وظيفته وأظهر وبعث ، وليس وظيفة المولى أكثر من ذلك ، وبعد إعمال المولى وظيفته؛ تصل النوبة إلى حكم العقل من لزوم انبعث العبد عن بعث المولى ، ولا نعني بالوجوب سوى ذلك^(٥).

التطبيقات :

كل مورد ورد فيه لفظ الأمر بجميع مشتقاته في الكتاب والسنة فهو ظاهر في الوجوب كقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٦).

(١) الوسائل ١ : ٢٥٤ ، كتاب الطهارة ، الباب ٣ من أبواب السواك ، ح ٤ .

(٢) الوسائل ١ : ٣٥٥ ، كتاب الطهارة ، الباب ٥ من أبواب السواك ، ح ٣ .

(٣) مناهج الوصول ١ : ٢٤١ ، وراجع الكفاية : ٦٣ ، ودروس في علم الأصول ١ : ٢٢٥ .

(٤) المحاضرات ١ : ١٤ .

(٥) فوائد الأصول ١ : ١٣٦ ، والمحاضرات ١ : ١٤ .

(٦) النساء : ٥٨ .

فهم النص عرض ونقد

آراء غادامر والهرمنيوطيقا الفلسفية

✽ السيد هاشم الهاشمي

ملاحظات وإشكالات :

ونذكر هنا بعض الملاحظات على آراء غادامر والهرمنيوطيقا الفلسفية وتأثيراتها، ونقصد بذلك أن بعض هذه الإشكالات والملاحظات على نفس آراء غادامر، وبعضها على ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج، وما تستلزمه من لوازم وآثار في مختلف المجالات، وخاصة الدينية، كما حاول البعض الاستفادة منها لبعض الآراء في الدين أو النص الديني كالقراءات المختلفة للدين كما سنشير لذلك.

١ - الملاحظ أن نظرية غادامر، التي تذهب إلى عدم الاهتمام بقصد المؤلف، والاهتمام بقراءة المفسر وتأثير قنلياته، وتعدد المعنى حسب تعدد المفسرين، وأن التفسير الصحيح هو التفسير الذي يفرض فيه

المفسر أحكامه ومعلوماته المسبقة على النص ، حتى وإن أمكنه التجرد عنها والوصول لقصد المؤلف ، بمعنى أن التفسير الصحيح عندهم هو التفسير بالرأي ، بل ربما يظهر منهم عدم إمكان الوصول لقصد المؤلف وفهمه للتأثير الجبري لهذه القليات والأحكام والمعلومات المسبقة ، وعدم تمكن المفسر من التجرد عنها ، وصحة جميع هذه القراءات .

لعل هذا الرأي متأثر بمذهب الشك ، الذي يصرح بعدم إمكان الوصول للحقيقة ، وإنما تكشف الظواهر متأثرين بمقولات ذهنية ، ولهذا المذهب جذوره التاريخية ، وحمل لواءه في القرن الثامن عشر ديفد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) يقول هيوم : (لو امتدنا ببحثنا إلى ما وراء المظاهر الحسية للأشياء ؛ فإن معظم النتائج التي نصل إليها ستكون مليئة بالشك وعدم اليقين ، والطبيعة الحقيقية لموضع الأجسام ستظل مجهولة ، ولا نعرف غير آثارها المحسوسة)^(١).

وكان لهيوم تأثيره في عمانوئيل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) ، حيث صرح : (إننا لا نعرف الأشياء كما هي في ذاتها ولكن فقط كما تظهر لنا) وكانت يريد بهذا أن يقول : إننا لا نستطيع بالحواس أن نعرف الأشياء كما هي في ذاتها ، وليس في هذا إنكار لحقيقة موضوعات التجربة ، فهي موجودة ، ولكننا لا نعرف منها غير الظواهر التي تتبدى عليها^(٢).

وتأثر به أيضاً جون ستيورات مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) حيث قال : ليس لنا معرفة غير معرفة الظواهر ، ومعرفتنا بالظواهر معرفة نسبية ، وليست مطلقة ، ولسنا نعرف الماهية الباطنية^(٣).

والملاحظ أن هذه الآراء لا تنكر وجود الحقيقة الثابتة في ذاتها وراء

(١) مدخل جديد إلى الفلسفة، عبدالرحمن بدوي : ١٢٢ .

(٢) نفس المصدر : ١٢٤ .

(٣) نفس المصدر : ١٦٧ .

هذه الظواهر ، وإنما تنكر إمكان معرفتها ، ولكن هناك من أنكر ثبات الحقيقة في ذاتها ، وأنها متغيرة ، وفي حالة صيرورة . ولعل هذا الرأي أكثر تأثيراً في نظرية هيدجر وغادامر ، كما ذهب لذلك أنصار مذهب الجدلية والديالكتيكية ، أمثال هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) حيث يرى أن الحقيقة في صيرورة وتغير ، وليس ثم حقيقة مطلقة صادقة صدقاً كلياً في الزمان والمكان ، إلا إذا وصلت الصيرورة إلى خاتمة مطافها ، وأنهى لها أن تبلغ ذلك أبداً^(١).

وهكذا نرى بأن هذه المذاهب الغربية في الشك ونسبية الحقيقة أو الفهم ، أثرت في وجود بعض الاتجاهات الحديثة في فهم النص والتعددية الدينية والقراءات المختلفة وأمثالها ، حيث يظهر من غادامر إنكاره لوجود واقع نهائي معيّن مطلق النص . وإنما تتعدد الحقيقة حسب تعدد القراءات والتفسيرات . ولا أهمية لفهم المؤلف ، ولا يمثل الحقيقة وإنما المهم فهم المفسر ، لذلك كتب بعض أنصارها عن (موت المؤلف) .

ويلاحظ على هذا الرأي في فهم النص ، الإشكالات التي وجهت لمذاهب الجدلية والحقيقة النسبية والشك وأمثالها ، وقد ذكرها علماء الغرب ، وبعض الباحثين من غيرهم .

وسنذكر في مقال (التعددية الدينية)^(*) أنها لا تتلاءم والتصور الإسلامي ، حيث أن هناك تعاليم ثابتة مطلقة من أحكام وعقائد ، لا تتحدد بزمان . وهي الأحكام القائمة على الفطرة الإنسانية الثابتة في جميع البشر ، وهذه الأحكام وإن كانت أموراً اعتبارية ولكنها قائمة على حقائق واقعية وهي المصالح والمفاسد الواقعية ، وإذا احتفظ الموضوع بكل

(١) نفس المصدر : ١٤٢ .

(*) دراسة سننشرها للكاتب في الأعداد القادمة من مجلة رسالة الفيلسوف .

مقوماته ؛ فلا يتغير حكمه وإنما يتغير إذا تغير الموضوع ، ولكن البشر لعوامل القصور فيه لا يمكنه إدراك الكثير من الحقائق الواقعية ، وخاصة في الأحكام ، وإن أمكنه إدراكها في غيرها ، وأما الله تعالى فهو خالق الإنسان والكون فيعلم بها بعلمه المحيط ، مع تجرده عن عوامل القصور تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وبينها للبشر من خلال نبيه ﷺ عبر نصوصه وتعليماته ، فيمكن التعرف على الحقائق الواقعية بمدد الله تعالى ، لذلك عبر القرآن الكريم عن الإسلام أنه (دين الحق) إشارة إلى أنه يعبر عن حقائق الأشياء والأحكام الواقعية.

ثم أن القول بتعدد الحقيقة بتعدد التفسيرات وأنها جميعا على حق ، مع ما فيها من تناقضات وخاصة مع اعتمادها على الظنون والأهواء ، واشتمالها على الباطل والضلال ، مما لا يمكن القول بأنها جميعا على حق. إذن فهذه المذاهب في الشك وتغير الحقيقة لعلها من عوامل وجود أمثال هذه التيارات في التعددية الدينية وفي فهم النص وأمثالها .

٢ - إذا كانت جميع القراءات والتفسيرات والآراء نسبية ، متغيرة متأثرة بقبليات المفسر وأحكامه ورغباته وقناعاته المسبقة ، وليست عندنا حقيقة مطلقة ثابتة ، فمن هذه الآراء والتفسيرات هذه النظرية في فهم النص نفسها كآراء هيدجر وغادامر ، فيمكن لنا أن نقول : إن آراءهم حول حقيقة الفهم متأثرة بقبلياتهم وأحكامهم المسبقة الخاصة بهم ، ولا تملك قيمة مطلقة ولا يمكن طرحها كنظرية نهائية جازمة حول الفهم ، فلماذا طرحها أصحابها كنظرية مطلقة ، فإذا اعتقدوا بأنها تمثل الحق وأنها ثابتة ، فهذا يلزم منه إمكان وجود قراءات وآراء مطلقة غير متغيرة ، أما إذا لم يكن كل رأي وتفسير مطلقاً ، فهذا الرأي كذلك ؟

فلماذا تطرح كنظرية مطلقة مقدسة ، ولماذا التهجم على سائر

النظريات والآراء وإنها باطلة ؟

٣ - على ضوء هذه النظرية تكون جميع التفسيرات صحيحة ، ولا يوجد معيار لتقويم الصحيح والخطأ منها ، بل لا مبرر لنقد هذه التفسيرات وتقويمها ، فإنه لا يوجد تفسير نهائي صحيح على أساسه تقوّم صحة سائر التفسيرات أو خطأها ، أو تناقض ، لأنها كلها خاضعة وربما جبر بالقبليات المفسر فلا مبرر لأي نقد وتقويم للتفسيرات في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والتاريخية ، ومنها النصوص الدينية ، لأن هذا الرأي حول حقيقة الفهم يؤدي لتبرير جميع التفسيرات المتعددة للنص الواحد ، حيث تكون له تفسيرات غير متناهية ، ولا يوجد فهم نهائي ثابت لها ، ومثل هذه النسبية غير المحدودة التي لا تملك معياراً للتقويم والنقد تؤدي بطبيعتها لانحطاط قيمة الفهم والمعرفة الإنسانية ، مع اعتقادها بمشروعية كل فهم وصحته .

ويشير غادامر في بعض كتاباته ، أن بعض الأحكام المسبقة مولده للفهم ، وبعضها تؤدي لسوء الفهم ، دون أن يطرح معياراً للتمييز بين هذين النوعين من الأحكام المسبقة ، حتى يمكن من خلاله التخلص من تأثير تلك الأحكام المسبقة التي تؤدي لسوء الفهم .

٤ - إن علماء المسلمين يؤمنون في مجال تفسير النصوص ، أن الرأي الصحيح في النصوص الدينية الوصول لقصد الشارع المقدس ومراده ، لذلك يؤمنون (بمحمورية المؤلف) في مجال تفسير النصوص الدينية لا (بمحمورية المفسر) كما يذهب إليه غادامر ، وسنذكر ذلك بصورة أوضح ، ولذلك يبحث العلماء عن تعاليم الشارع المقدس ، وما يريده من نصوصه ، ويبحثون عن القرائن الحالية والمقالية التي ترشداهم إليه متبعين مختلف القواعد والأساليب العقلانية والشرعية الخاصة والعامة

التي توصلهم إلى المراد الجدي الذي يقصده الشارع المقدس ، لأن تلك المعاني والتعاليم هي التي يقصدها الشارع من نصوصه من أجل هداية البشر وسعادتهم في الدارين ، وهو يتوقف على الفهم الصحيح لقصد الشارع من نصوصه ، لذلك يلزم تجنب التفسير بالرأي وقبليات المفسر ، كما أكد عليه أئمة الدين عليهم السلام ، فلا يقاس النص الديني بالنصوص الأخرى وخاصة الأدبية ، التي يمكن أن تطبق عليها الهرمنيوطيقا الفلسفية ، أو نظريات النقد الأدبي ، التي تتحدث عن موت المؤلف ، وعدم الاهتمام بقصده ، وإن كل تفسير هو الحق ، ولا بد أن يتأثر المفسر بأهوائه وظنونه . وإن التفسير الصحيح عندها هو التفسير بالرأي الذي يتأثر فيه المفسر بنوازه وأحكامه المسبقة على تقدير إمكان تجرده عنها .

٥ - إن الهرمنيوطيقا الفلسفية تؤكد كثيراً على قبليات المفسر وخلفياته من المعلومات والأحكام والقناعات المسبقة للمفسر حيث أنها تشكل وعيه الفكري ، المتفاعل مع النص ، وإن وجودها شرط لازم لفهمه ، بل ربما لا يمكن التجرد عنها ، لأن المفسر يعيش محيطاً تتحكم فيه هذه القبلات ، فإذا كان التفسير بالرأي مذموماً حسب المنطق الإسلامي ؛ فإنه مطلوب بل لازم ، بل جبري في هذه النظرية .

ولكن نحن لا ننكر احتياج المفسر في فهم النص وتفسيره إلى معلومات مسبقة ، ولكن هذه المعلومات إنما تؤثر في استخراج المعنى أو مراد المؤلف أو الشارع المقدس الاستعمالي أو الجدي من النص وفهمه ، لا أنها تغير في معنى النص ومحتواه ، بحيث تعطيه المعنى ليتشكل حسب قبلات المفسر ومعلوماته المسبقة ، وتحجبه عن الوصول لمراد المؤلف أو الشارع المقدس .

وتوضيح ذلك : إن المعلومات التي تؤثر في فهم النص على أقسام :

أ - المعلومات التي يتوقف عليها استخراج المعنى من النص ، أو فهم قصد الشارع المقدس ومراده من نصه ، سواء المراد الاستعمالي أو الجدي ، دون أن تفرض معنى على النص حسب قبهليات المفسر ومعلوماته ، فهي مثل وسائل إخراج الماء من البئر ، تؤثر في إخراجها ، دون أن تصنع الماء أو تغيره ، وهذه المعلومات أمثال معرفة اللغة وقواعدها ، مما يتوقف عليها معرفة المراد الاستعمالي من النص ، وكذلك القواعد والأساليب التي تؤدي لمعرفة المراد الجدي حيث يحتاج لقواعد أخرى ، أما عامة عند جميع العقلاء ، أو خاصة ببعض المتكلمين ، كالشارع المقدس ، الذي بين أنه قد يستخدم بعض الأساليب كذكر العام قبل الخاص ، أو استعمال التقية أو التدرج أو الناسخ والمنسوخ وأمثالها مما ذكرها علماءنا وخاصة في أصول الفقه حيث أن بعض الأفراد كزعماء الأمم والمبادئ قد يستعملون أساليب خاصة في الكلام ربما اختلفت عن أساليب غيرهم ، حتى أن العقلاء ينظرون لكلامهم وفهمهم بأساليب خاصة ، وقد ذكرت أكثر هذه القواعد والأساليب العقلانية العامة والخاصة في الفقه والاصول ، وهي أساليب وقواعد يعتمدها العقلاء في فهم المراد الاستعمالي والجدي ، ولكنها تساعد المفسر على استخراج المعنى من النص ، دون أن تفرض مضموناً معيناً عليه ، ولكن بدون معرفتها لا يمكن استخراج المعنى من النص وفهمه .

والملاحظ أن للفظ ثلاث دلالات :

الدلالة التصورية : دلالة اللفظ على ذات المعنى ، سواء قصد المتكلم تفهيمه للآخرين أم لا ، لذلك يدل اللفظ على معناه حتى لو صدر من النائم أو الحجر ، مع عدم وجود القصد .

الدلالة الاستعمالية أو التفهيمية : أي دلالة اللفظ على المعنى المقصود

للمتكلم ، بأن قصد المتكلم تفهيمه للآخرين ، سواء أَرادَه جِداً أم لا ، كاللفظ الصادر من الهازل ، حيث يقصد تفهيمه ولكنه لا يريد المعنى جِداً بل هزلاً .

الدلالة الجدية : بأن يدل اللفظ على المعنى المراد للمتكلم جِداً أو واقعاً ، لا من باب الهزل وأمثاله ، من دواعي عدم الإرادة الجدية للمعنى .

ومرحلة الإرادة الجدية هي محور الأحكام الشرعية ، والمراد غالباً من النصوص الشرعية ، وربما كان المراد الجدي هو المعنى الحقيقي للفظ ، وربما كان مجازياً أو كنائياً ، وغيرها من الأساليب البلاغية والعرفية .

وفي المرحلتين الأولى والثانية ، لا تحتاج في فهمها من النص إلا لمعرفة اللغة وقواعدها ، بل يشترط تجريد ذهن من القبلات العقائدية أو القرائن العقلية ، ليفهم المعنى الظاهر من الكلام ، حسب التعهدات العقلانية ، وإن كل متكلم متعهد بأنه يريد من اللفظ المعنى الظاهر منه . وأما المرحلة الثالثة : ففي اكتشاف إرادة المعنى جِداً ، أو عدم إرادته ، ثم تحديد المراد الجدي للشارع المقدس ، يأتي دور الأساليب والقواعد العقلانية ، العامة لكل متكلم ، أو الخاصة للشارع المقدس وأمثاله من المتكلمين من قادة الملل والنحل حيث ربما اقتصوا بأساليب كلامية معينة .

والقاعدة العامة فيها ، الاعتماد على أصل عقلائي في باب الألفاظ ، وهو أصل التطابق بين المراد الاستعمالي والجدي ، وأن المعنى الظاهر بالدلالة الاستعمالية هو المراد بالإرادة الجدية ، وإلا لو لم يكن يريده لنصب قرينة على ذلك ، نعم لو وجدت قرينة قطعية على إرادة خلاف المعنى الظاهر من اللفظ ، فلا يؤخذ بظاهره .

ولذلك بحث العلماء وخاصة في الفقه والأصول عن أمثال هذه الأساليب والقواعد والقرائن، الدالة على الإرادة الجدية للمعنى الظاهر أو عدم إرادتها، أمثال: استعمال الأساليب البلاغية من المجاز والكناية لما ذكرناه، أنها من عناصر الإعجاز أو الكلام العربي الفصيح وكذلك استعمال التقية والاعتماد على القرينة المتصلة أو المنفصلة، وحمل العام على الخاص والمطلق على المقيد، ومعرفة ظروف النص، وآراء المذاهب الأخرى المعاصرة لصدور النص من المعصوم، لتأثيرها في فهمه، وملاحظة ضروريات الشارح وقطعياته ومسلماته وتجانس النص معها، فإنه ربما كان المعنى الظاهر يخالفها، فهذه المخالفة تعتبر قرينة قطعية على عدم إرادة المعنى الظاهر، وضرورة حمله على معنى آخر يتلاءم معها، كما ذكر حول بعض الآيات الدالة على جسمية الله، مثل الله ﷻ على العرش استوى، حيث أن من الضروريات عدم جسميته تعالى، وغيرها الكثير من القواعد والأساليب التي ذكرها علماءنا في مختلف البحوث، مستفيدين في ذلك من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأساليب العقلانية العامة والخاصة، وتجارب الآخرين في بحوثهم.

ب - المعلومات التي تبعث المفسر على طرح الأسئلة على النص لبحث عن الإجابة عليها فيه، ولكنها لا تفرض معنى وجواباً على النص، وذلك لأن كل نص يعبر عن بعض المعاني والمفاهيم التي تمثل محتوياته الظاهرة المباشرة، ولكن من خلال طرح بعض الأسئلة على النص من الممكن أن تظهر العلاقة بين محتوياته وموضوعات أخرى، أي يعلم منه الجواب عن تلك الأسئلة المناسبة للنص، وأما نوعية الأسئلة وكميتها فتخضع لوعي المفسر وأفق الفكري، ولكن مهمة الأسئلة إعداد

المفسر لاستنباط المضمون من النص ، دون أن يكون لها تأثيرها في تحديد محتواه، ومعناه فلا يفرض السؤال معنى معيناً على النص لم يكن يملكه، وإنما مهمته استخراج معنى كان النص يملكه قبل طرح السؤال عليه .

جـ- المعلومات اليقينية التي لها تأثيرها في فهم النص ، وقد ذكرنا : أن الدلالة اللفظية للنص ويعبر عنها (ظهور الكلام) خاضعة لألفاظ النص والدلالة اللفظية للكلام ، ولكن (المراد الجدي) والنهائي للنص ، ربما اختلف عن مدلوله اللفظي الظاهر ، وربما كانت هناك بعض القرائن تساعدنا على فهم المراد الجدي بما يخالف ظهوره ، وربما قامت بعض المعلومات اليقينية المسبقة بدور هذه القرائن في الكشف عن المراد الجدي للمتكلم .

فهناك بعض النصوص التي لها ظهور مباشر في بعض المعاني ، ولكن بسبب عدم ملائمة هذا الظهور لبعض القضايا والمعلومات اليقينية أو المسلمة العقلية أو الدينية ، فلا يمكن أن يكون هذا المعنى الظاهر هو المراد الجدي للمتكلم ، لذلك لابد أن نفسر المراد الجدي للكلام بما يلائم تلك المعلومات اليقينية وترك الظهور اللفظي ، ومثال ذلك : إن المفسر نتيجة للأدلة العقلية اليقينية يقطع بنفي الجسمية عن الله تعالى ، ولكن الآية الشريفة ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تدل بظهورها اللفظي على إثبات اليد له تعالى ، ولذلك فإن المفسر اعتماداً على ذلك المبدأ اليقيني الذي يتقبله المتكلم والقارئ ، يتوصل إلى عدم كون المعنى الظاهر هو المراد الجدي لله تعالى ، ولذلك يفسر ﴿اليد﴾ بأنها استعارة عن قدرة الله أو مدده ، وأنه هو المراد الجدي .

ويلزم التأكيد على هذه الحقيقة بأن المعلومات اليقينية هي التي يمكن

أن تكون قرائن على فهم المراد الجدي وعدم الأخذ بالظهور اللفظي ، وأما المعلومات الظنية أو الاحتمالية غير المعتمدة ، لا يجوز اعتمادها في نفي الظهور اللفظي .

د - المعلومات الظنية غير اليقينية ، والتي تؤثر في فرض معنى على النص ، ولها تأثيرها في المفسر بصورة شعورية أو لا شعورية في تعيين الظهور اللفظي للنص أو في مراده الجدي ، ومثل هذا التأثير غير مشروع ، وما يصطلح عليه (بالتفسير بالرأي) مما يرتبط بمثل هذه المعلومات وتأثيرها ، والملاحظ أن تفسير النصوص ، وخاصة الدينية معرضة لمرض (التفسير بالرأي) ، وقد أكد الأئمة الأطهار عليهم السلام وتبعهم العلماء على تجنب التفسير بالرأي ، لأن تأثير المفسر بهذه الأحكام والمعلومات المسبقة للمفسر في عملية تفسير النص ، تمنع من الفهم الموضوعي والصحيح لمحتوى النص ورسالته ، ولذلك رأينا أن بعض الأفراد ، الذين يحملون بعض المبادئ والقناعات المنحرفة يحاولون فرضها على الآيات والأحاديث الشريفة بصورة شعورية أو لا شعورية ، كتفسير بعض الآيات بالماركسية أو الاشتراكية أو الجبرية أو الجسمية أو التعددية الدينية أو الليبرالية وأمثالها ، ناشئة من التأثير بالمعلومات الظنية والتفسير بالرأي ، ولكن أكثر النظريات التفسيرية الحديثة في الهرمنيوطيقا والنقد الأدبي ، كما أنها تعتقد بمشروعية التفسير بالرأي ، فإنها تراه ضروريا ولازما في عملية التفسير ، بل لا يمكن للمفسر أن يتجنب التفسير بالرأي ، لأنه لا يمكن أن يتجرد عن قنانيه وظروفه ، وفي رأيها أن تفسير النص يكون دائما من التفسير بالرأي .

ويتضح من خلال هذه الأقسام التي ذكرناها ، صحة القول بتأثير المفسر بمعلوماته وقنانيه والأفق الفكري والوعي الثقافي للمفسر خلال

عملية الفهم ولكن في بعض الأقسام لا في جميعها وبالمعنى الصحيح للتأثر، لا بالمعنى المنحرف، ولكن ما ذهب إليه أتباع النظريات الحديثة، وهو لزوم التأثر في جميع الأقسام، وأن هذا التأثر من نوع التفسير بالرأي، من الاعتماد على الأهواء والظنون وأحكام المفسر المسبقة بأن يكون للمعلومات المسبقة تأثيرها في محتوى النص، بحيث تفرض معنى معيّنًا عليه، فلا شك بأن هذا الرأي باطل ومنحرف بالتصور الإسلامي، فلا بد من استخدام المعلومات في مساعدة المفسر على استخراج مقاصد المؤلف ومعانيه، وأما لو كان تأثير المعلومات من قبيل القسم الثالث، فيلزم تجنبها.

وفي رأينا أنه (يمكن) هذا التجنب والتجرد الموضوعي عن التأثر السلبي بهذه المعلومات وإن احتاج إلى قليل من التمرين، ليتمكن الباحث من التجرد عن التأثر بقبلياته، وأما القول بعدم إمكان الفهم الموضوعي والتوصل لقصد المؤلف أو الشارع المقدس، وعدم إمكان تجرد المفسر عن قبلياته ومعلوماته، فهو مخالف للوجدان، إذ أن الإنسان كثيرا ما يصل لمراد المؤلف وخاصة في النصوص أو الأقوال أو الممارسات الواضحة.

٦- ذكر غادامر أن عملية الفهم تبدأ من سؤال يطرحه المفسر. لأنها حوار بين المفسر والنص، وهذا السؤال ينطلق من الأفق الفكري لوعي المفسر، الذي تملؤه القبليات من المعلومات والأحكام المسبقة، ويكون له تأثيره في فهم النص.

وذكر بعض المتأثرين بهذه النظريات: بأن المفسر يدخل النص وهو يحمل تساؤلات وتوقعات معينة يبحث عن جوابها من النص، وهي تؤثر في فهمه، وربما أدت لانحراف الفهم، لذلك يلزم عليه قبل عملية الفهم

تصحيح تساؤلاته وتوقعاته من النص ، ولعل من أسباب اختلاف آراء العلماء والفتاوى عدم تحديد توقعاتهم من النص وتصحيحها ، فربما كان توقع الفقيه وتصوره عن القرآن الكريم والسنة الشريفة أنهما يبحثان عن أحكام المكلفين بخصوصياتهما في كل لحظات حياتهما ، ولذلك من خلال دراسته للنص لا يتنبه لوجود القواعد والمبادئ العامة فيه ، بل ربما أنكر وجودها في النصوص . وأما لو كانت توقعاته من النصوص البحث عن المبادئ والقواعد العامة ، فربما أنكر اهتمام القرآن والسنة في بيان الأحكام الجزئية ، وإنما أوكل الإسلام معرفتها للعقل ، فلا بد من تصحيح الفقيه والباحث لتوقعاته وتساؤلاته ، حتى يفهم النص فهما صحيحا ، لأنها تؤثر في كيفية رؤيته للنص ، ومثل هذه التساؤلات مما ترتبط بمجالات فلسفية وكلامية واجتماعية وأمثالهها ، ولا علاقة لها بالفقه ، ومن هنا كانت من مجالات فلسفة الفقه ولا بد من تصحيحها في علومها .

والجواب عن ذلك :

أ - إن ما ذكره غادامر كأساس لنظريته بأن الفهم دائماً وبالضرورة يبدأ من سؤال ، ولا يمكن الفهم بدون تقديم سؤال ، فهذا مخالف للوجدان وللواقع الخارجي في بعض المجالات ، فربما يرى القارئ ورقة فيها نص ، فيقرأ النص ويفهم منه المعنى دون تقديم سؤال ، ومنه يظهر عدم صحة ما ذكره من ضرورة وجود المعلومات والمفاهيم القبلية عن محتوى النص ليفهمه ، لأنها ضرورية لوجود السؤال والحوار ، فإنه لو يمكن الفهم بدون السؤال والحوار ، فلا نحتاج معها لهذه القبلات .

فكثيرا ما نفهم محتوى النص دون سؤال مسبق ، أو معلومات مسبقة عنه كما لو قرأنا آية قرآنية في الاقتصاد ، فنفهم معنى اقتصاديا ، وربما

ندخل مكتبة مبعثرة ، وتتناول كتاباً ما ، دون أن نحمل توقعاً أو سؤالاً ، فنرى أنه يبحث في الأخلاق مثلاً ونفهمه ، وربما دون أن تكون لنا معلومات مسبقة عن محتوياته ومعلوماته .

ب - وربما يقرأ القارئ النص وهو يحمل أسئلة وتوقعات معينة ، ولكن حين يقرؤه يتوصل لنتائج أخرى غير ما كان يتوقعها ، أو أن النتيجة تكون أوسع أو أضيق مما كان يتوقع ، فكان يتوقع - مثلاً - أن الكتاب والسنة يبحثان عن القواعد الكلية فيتوصل أنهما يبحثان عن أفعال المكلفين . إذن ففهم النص لا يتحدد على ضوء الأسئلة والتوقعات التي يحملها المفسر .

ج - ذكرنا سابقاً أننا لا ننكر تأثير السؤال ، ولكن قد يكون له تأثيره في البحث عن موضوعات من النص لم يبحثها غيره ، فمثلاً يبحث في القرآن الكريم ولديه سؤال مسبق وموضوع معين يحاول البحث عن رأي القرآن فيه ، فيسأل القرآن عنه لبحث عن جوابه فيه ، كما لو أردنا معرفة رأي القرآن الكريم في الاشتراكية أو الرأسمالية ، وهذا السؤال يدفع المفسر للفهم والدراسة ، فإذا لم تكن له معلومات مسبقة عن الاشتراكية لا يبرز السؤال في ذهنه ولا يبحث في القرآن عن الجواب .

ولكن وكما ذكرنا ، أن السؤال لا تأثير له في محتوى النص ، ولا يفرض معنى على النص ، فإن الجواب إنما يحصل من النص لا من السؤال ، فالسؤال جاء من معلومات المفسر ، ومن خارج النص .

ومن هنا رأينا اختلاف كتب التفسير ، كاختلاف تفسير الميزان عن مجمع البيان ، باختلاف الأسئلة التي يبحث المفسر عن جوابها ، فالميزان يطرح أسئلة وموضوعات كثيرة ومعاصرة على الآيات القرآنية ليعرف

جوابها ، بينما مجمع البيان لم يطرحها ، وإنما طرح أسئلة أخرى ، لأن المفسر غير عارف أو غير مهتم بتلك الأسئلة والمعلومات المسبقة فمعلومات المفسر تؤثر في مجال طرح السؤال فحسب ، دون أن تؤثر في محتويات النص وأجوبته .

٧- وقد ذكر أتباع هذه النظريات : أن معتقدات المفسر القبلية تؤثر في فهم النص ، لذلك يفرضها على محتويات النص ، أو أنه لا يتمكن معها من فهمه فهماً موضوعياً حيث يتحدد المحتوى حسب هذه المعتقدات ، فيكون تأثيرها جبرياً في الفهم ، وإذا كانت منحرفة فتؤثر في انحرافه ، ومن هنا لابد من تصحيح هذه المعتقدات ليتمكن فهم النصوص الدينية فهماً موضوعياً ، وهذا يعني أنه لابد أن يقبل الدين ، ليفهم النص الديني فهماً صحيحاً .

ويلاحظ على هذا الاستدلال :

أ - أن هذا يخالف الواقع الخارجي ، فكيف فهم أهل الجاهلية القرآن الكريم وتعاليم الإسلام من خلال كتابه وسنته ، حتى دخلوا في الإسلام أفواجا ، ولماذا كان يمنعهم المشركون من سماعه إذا لم يفهموا منه إلا أحكامهم المسبقة ، وكيف يؤمن اليوم الكثير بالإسلام ، من خلال قراءة النصوص الدينية متجردين عن تراكماتهم الثقافية ومعتقداتهم وقبلياتهم ، بل ربما حاربوها بعد إسلامهم ، فهل فهموا معتقداتهم ، فكيف أعرضوا عنها ، متجهين للإسلام .

ب - إننا نجد بعض الباحثين من غير المسلمين ، يفهم النص الديني ولو فهماً عاماً ، وعلى ضوء هذا الاستدلال يجب أن لا يفهم غير المسلم النص الإسلامي وتعاليمه ، أو يفهمه فهماً منحرفاً حسب معتقداته ، حيث

أنه لا يقبل أصول الإسلام العقائدية ، ولم يحاول تصحيح معتقداته ، نعم فهم القرآن والسنة بمرتبته العالية شرطه الإيمان ، ولكن هناك فهماً عاماً مشتركاً بين المسلم وغيره . لذلك يفهم غير المسلم رأي القرآن والإسلام حول الكثير من الموضوعات والقضايا ، أمثال البيع والشراء والتوحيد والإيمان وغيرها .

جـ- ما ذكر بأن محتوى النص يتحدد بحدود تلك المعتقدات فقد أجبنا عنه حين تحدثنا عن أسئلة المفسر ، ونضيف أنه ربما يقرأ المفسر الكتاب أو السنة بمقدمات وقناعات إسلامية وعقائدية معينة ، ولكنه يتوصل من خلال قراءته لخلافها . فمثلاً يقرؤه مع الاعتقاد بأنه يبحث عن الدنيا ، وأن الإسلام يهتم بالدنيا فحسب ، ثم يتوصل أنه يهتم بالآخرة أو بالدنيا والآخرة ، وهذا شاهد آخر على التوصل لتوقعات أخرى غير توقعاته التي كان يحملها قبل قراءة النص .

٨- وقد ذكر بعض أتباع هذه النظريات : أن ميول المفسر ورغباته تؤثر في فهم النص ، فإذا كانت ميوله فلسفية فيؤثر في فهم النص فهما فلسفياً ، ويحمل مثلاً الآيات القرآنية على معان فلسفية ، ولا يمكن أن يتجرد في فهمه عن ميوله ، وإذا كان أخبارياً أو أصولياً أو عرفياً فيؤثر كذلك ، لذلك لا بد أن يهذب القارئ ميوله ويصححها قبل قراءة النص ، ولعل هذا أيضاً من توابع القول بالتأثير الجبري لقبليات المفسر في عملية الفهم .

ويلاحظ عليه : ما ذكرناه من إمكان التجرد الموضوعي عن قبليات المفسر ومنها ميوله ، وإنكار إمكانه خلاف الوجدان ، لذلك رأينا علماءنا يؤكدون على الفقيه والباحث التجرد عن ميوله وقناعاته وأحكامه

المسبقة حين قراءة النص ، وعليه الالتزام بالقراءة الموضوعية ، وقد التزموا فعلاً بذلك خلال بحوثهم ، لذلك رأينا بعض الفقهاء من ذوي الاختصاص والميول الفلسفية ، يتجردون عنها عند ممارستهم للبحث الفقهي والأصولي ، بل يؤكدون على اختلاف المجالين ، وأن مجال الفلسفة القضايا الحقيقية والتكوينية ، وأما الفقه ففي الغالب مجالها القضايا الاعتبارية ، ولكل منهما خصائصه وأحكامه ، وقد ذكرت بعض الشواهد على هذه الحقيقة في بعض المقالات .

٩- إن القول بإمكان القراءات المختلفة لجميع النصوص الدينية وصحتها ، حتى لو اعتمدت الظنون وخالفت الضروريات والمسلمات ، يؤدي إلى عدم اقتناع المسلم بالتعاليم الإسلامية ، حيث لا يعلم أن ما يعتقده أو يعمل به قد جاء به الإسلام حقاً ، أو أنها تفسيرات للباحثين متأثرة بقبلياتهم ، فماذا يبقى من الدين ، وكيف يؤمن الإنسان بدين لا يعلم بتعاليمه النازلة من السماء ، وأن كل ما يعرفه مدركات الإنسان نفسه ، وبذلك يسود جو من الشك والنسبية في مجالات الدين والمتدينين .

وبكلمة : فإن هذه النظرية في فهم النصوص الدينية ، تعني أنه ليس للإسلام تعاليم معيّنة ، وإنما تعاليمه تابعة لآراء المفسرين وقبلياتهم وأذهانهم .

١٠- إن الإسلام إنما بعث من الله تعالى للبشر لأجل هدايتهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وهو يتمثل في تعاليمه الحقّة ، لا قبليات الجاهليين ، ومعتقداتهم وميولهم وأحكامهم المسبقة ، لأن ما يحقق السعادة المنشودة للإسلام تعاليم السماء ، لا قناعاتهم قبل النص .

فهل يتناسب عجز الله ورسوله ﷺ وأئمة الدين ﷺ عن تفهيم مقاصدهم ، أو عجز البشر عن فهم النصوص الدينية ، وحملها على قبلات المفسرين ، هل يتناسب ذلك مع أهداف الأديان والأنبياء والكتب السماوية وخاصة الإسلام ؟

ويمكن لنا أن نقول : إن الاعتقاد بأن جميع التفسيرات المنطلقة من تلك القبلات على حق ، يعني إمضاء تلك المعتقدات والقبلات والتقاليد الجاهلية ، لأن تفسيراتهم حسب هذا الرأي خاضعة جبريا لها ، وهذا ما تستهدفه التعددية الدينية ويرفضه الإسلام بل جميع الشرائع السماوية . وربما لزم من صحة القراءات المختلفة ومشروعيتها ، تبرير جميع القراءات والتفسيرات للنصوص الدينية التي تبرّر الجور والفسق والفجور والانحراف ، وتلغي التعاليم الإسلامية الأصلية .

١١- إن النصوص الإسلامية القطعية تصرّح ببطلان هذا الرأي :

أ- إن هناك أحاديث كثيرة تؤكد على المنع من (الظن غير المعتبر) الذي لا يوجد دليل قطعي على حجّيته منها الآيات الشريفة ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئا﴾ وخاصة مع تعميم الظن القرآني للمعتقدات والتقاليد الجاهلية التي قد يؤمن بها الإنسان إيمانا جازما ، ومثل هذه التفسيرات المتعددة والمختلفة التي تعتمد الظنون والأهواء حتى للضروريات ، والنصوص الصريحة من مصاديق هذا الظن .

وكذلك الأحاديث والروايات الشريفة التي تردع عن (التفسير بالرأي) «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»^(١) ، مع تفسير التفسير بالرأي

(١) تفسير العياشي ١ : ١٧ - ١٨ ، عيون أخبار الرضا ١ : ٥٩ ، الباب ١١ ، الحديث ٤ . أمالي الصدوق :

١٥٥ الحديث ٢ ، التوحيد ٩٠٥ ، الحديث ٥ .

بفرض الإنسان معتقداته وقناعاته الباطلة المسبقة على النص ، بالإضافة إلى روايات أهل البيت عليهم السلام في النهي عن الاعتماد على الظنون والأدلة غير المعتمدة ، كما تدل على ذلك بحوث علماء هذه المدرسة وخاصة في الفقه وعلم الأصول ، فالأدلة التي تمنع عن العمل بالظن والتفسير بالرأي تشمل أيضاً بعض القراءات والتفسيرات الجديدة التي تنكر أو تشكك في المعتقدات والأحكام الضرورية والمسلّمة والاتفاقية الإسلامية بحجة القراءة الجديدة اعتماداً على بعض الظنون أو التفسير بالرأي .

ان هذه النصوص التي تمنع عن التفسير بالرأي والظن ، كما تدل على عدم صحة هذا الرأي في فهم النص الذي يذهب لمشروعية التفسير بالرأي ، وأنه هو الفهم الصحيح دون غيره ، كذلك تدل على إمكان التجرد الموضوعي عن التأثير بهذه القبلية ، والظنون والتفسير بالرأي ، وإلا فكيف ينهي أو يأمر الشارع المقدس بغير المقدور ؟

بل حتى لو كانت القناعات والأحكام المسبقة بمستوى القطع كبعض المعتقدات الجاهلية ، فيمكن إزالة تأثيرها ، وتحويلها إلى الشك بل الإنكار ، من خلال البراهين المحكمة ، كما فعله الأنبياء في عصورهم ، بل حتى لو قلنا ببقاء الإنسان القاطع غافلاً ، فهذا لا يدل أنه وتفسيره على الحق ، وإن كان معذوراً مع القصور .

إذن فيمكن التجرد الموضوعي لكل قارئ عن قبلياته وأحكامه المسبقة ، وإنكار ذلك خلاف الوجدان والواقع الخارجي وأهداف الإسلام وغيرها .

ب- إن القرآن الكريم يدعو في الكثير من آياته إلى التدبر والتفكير فيه ، وأخذ الهداية والنور منه ، وإذا لم يمكن فهمه ، فكيف يدعو للتأمل والتدبر

فيه ، وأخذ الأحكام منه ، بل يكون أمره بالتدبر فيه أمراً بالأخذ بقبليات المفسرين .

كما أن هناك الكثير من الأحاديث والروايات تأمر بعرض الروايات على القرآن الكريم ، لمعرفة أنها توافقه أم لا فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه فاطرحوه ، وكذلك الروايات التي تصرّح بأن الشروط إذا خالفت الكتاب والسنة ، فتكون باطلة ، وأمثالها ، فإذا لم يفهم القرآن الكريم فكيف تعرض عليه الروايات والشروط ؟

وكذلك هناك الكثير من الآيات التي تؤكد على التمسك بالقرآن والعترة كحديث الثقلين ، وأخذ الأحكام والتعاليم الإسلامية منهما ، كل ذلك يدل على إمكان فهمه وإلا فلا معنى للتمسك به أو أخذ الأحكام منه . وكذلك الآيات التي تصرّح أن القرآن الكريم عربي مبين وأمثالها . وقد ذكرنا هذه الآيات والأحاديث التي تدل على إمكان فهم القرآن وحجية ظواهره ، في مقال سابق ، مع مناقشة آراء بعض الأخباريين وأدلتهم التي ذكروها للتشكيك أو إنكار حجية ظواهر الكتاب ، حيث ذكرناها بالتفصيل ، فإن الأدلة التي ذكرها علماؤنا في هذا الموضوع تجيب عن الكثير من الشبهات الحديثة والآراء والنظريات غير الصحيحة في مجال فهم النص ، وخاصة في تطبيقها على النصوص الإسلامية ، من الكتاب والسنة فراجع^(١) .

ولعله بهذه النظريات الحديثة حول فهم النص ، سوف تسقط مرجعية الكتاب والسنة من مصادر الاستنباط ، حيث أننا نريد التعرف على أحكام الشارح المقدس وتعاليمه منها ، ولكن إذا لم يمكن فهمها وإنما نفهم

قلياتنا جبريا ، فما هو المبرر للرجوع إليها لمعرفة تعاليم السماء ؟ وخاصة مع ما يذهب إليه أنصار التعددية الدينية بأن وحي السماء تفسير بشري للرسول عن تجربته الدينية ، وأن أقوال المعصومين كلها تفسير بشري أو استنباطات منهم لا تعبر عن الواقع الالهي ، وسنذكر في مقال التعددية الدينية الجواب عن هذا الرأي غير الصحيح ، وأن الوحي اتصال مباشر بالله تعالى عن طريق وحيه ، وأن تفسيرات المعصومين عليهم السلام لكلام الله ، بل أن جميع أقوالهم ، ليست اجتهادات شخصية ، كتفسيرات واجتهادات سائر الفقهاء أو الباحثين ، بل أنها تعبر عن الواقع الإلهي نفسه بمدد الله تعالى ، ومن هنا حتى لو قبلنا هذه النظرية في تأثير القليات والأحكام المسبقة في فهم النصوص ، وعدم معرفة الواقع نفسه ، تأثراً بنظرية (كانت) ولكن إنما يصح ذلك بالنسبة لبعض النصوص والأفراد ، بينما هناك نصوص يفهم الواقع من خلالها ، كما أن المعصومين عليهم السلام ، يدركون الحق والواقع بمدد الله تعالى ، وعن طريقهم يعرف البشر الواقع ويدركون الحق ، فإنكار معرفة الحق والواقع في جميع النصوص ، والأفراد ، غير صحيح .

١٢- إن هذه النظرية في فهم النص تعتبر من النظريات الجبرية ، حيث يكون الإنسان مجبوراً على الخضوع لقلبياته في تفسير النصوص ، فلو كانت قلياته منحرفة فيكون انحرافه جبريا ، وبذلك تتوجه عليها جميع الإشكالات الموجهة للجبرية ، أمثال ، أنه على القول بالجبر فلا مبرر لبعث الرسل والشرائع والكتب السماوية ، لأنها إنما بعثت لأجل إصلاح الإنسان وتغييره وهدايته بل لا مبرر لكل الحركات والنظريات الإصلاحية التي تستهدف إصلاح الإنسان وتغييره فإنه بناء على

الجبرية كيف يرسل كتابا ، ثم يطالب البشر بفهمه ، وتغيير أحكامهم ومعتقداتهم حسب ما فهموه ، وكذلك لا مبرر لعقاب الإنسان على مخالفته للتعاليم الإلهية التي تبينها الكتب السماوية ، لأنه لا يمكن أن يفهم منها إلا المخالفة والانحراف حسب معتقداته وأحكامه المسبقة ، بناء على هذه النظرية .

ولكن الإسلام لا يقبل الجبرية بكل إشكالاتها ، بل حتى لو عاش الإنسان بيئة منحرفة جداً ، وتحكمت في نفسه معتقداتها وممارساتها المنحرفة بل حتى لو وصل لمستوى القطع ، ومع ذلك يمكنه انتزاع نفسه منها ، فإن تأثيرها - كما ذكرنا - ، ليس من قبيل العلة التامة أي الجبرية ، بل من قبيل المقتضي الذي يمكنه أن يمنع من تأثيره ، بل يمكنه تغييره ، وتحويل نفسه إلى نفس نظيفة مؤمنة ، لا تنطلق منها إلا المشاعر والنوايا الصالحة ، وإن كان انتزاع البعض نفسه من انحرافات المتروكة في نفسه شاقاً ، كما لو عاش وراثته وتربية منحرفة جداً ، ولكنه ممكن وفي كل الظروف وخاصة مع تذكيره ومواجهته بالأدلة الموضوعية المقنعة ، كما يمكن إزالة قطع القطاع ، فهذه القبلية مهمات ترسخت في وعي الإنسان ، فيمكن له التخلص من تأثيرها ، بل إلزالتها ، والنظر للنصوص نظرة موضوعية وفهمها فهماً حقيقياً ، وإن احتاج إلى قليل من بذل الجهد والمشقة والتمرين ، ويختلف حجم الجهد باختلاف الأفراد ومدى تحكم الانحراف في نفوسهم ، ولكنه ممكن .

١٣- إن تلك المعلومات المسبقة ، لا تمنع من الفهم الموضوعي للنص ، والوصول لقصد مؤلفه ، بل ربما ساعدته على الفهم الموضوعي ، كما ذكرناه في أقسام المعلومات ، حيث تساعد المفسر على استخراج

المعنى المراد للمؤلف من النص ، لا أنها تحجبه عنه ، ثم أنه ليست كل المعلومات والأحكام المسبقة على خطأ لتحرف القارئ والمفسر ، بل أن بعضها صحيحة ، اختزنت في نفسه خلال مسيرة حياته ، فيما لو كان يعيش بيئة ملتزمة ومؤمنة .

ثم على تقدير تأثيرها سلبيا في فهم القارئ للنص ، فإنما يمكن ذلك في النصوص البشرية كالأدبية ، التي لا يطلب فيها فهم معين ، أو الالتزام بتعاليم معينة ، أو أن مؤلفها مما تؤثر فيه العوامل الذاتية والسيكولوجية والاجتماعية وأمثالها حين كتابة النص ، أو الكاتب الذي لا يمكنه إدراك الواقع ، لعوامل القصور فيه ، أو في تلك النصوص الدينية غير الإسلامية ، لأنها إما أن تكون منسوخة أو أنها محرّفة بشرية ، كما تدل عليه الكثير من الشواهد والدليل على ذلك اشتغالها على الكثير من الخرافات التي لا يمكن صدورها من الله والأنبياء .

ولكن هذا الرأي لا يصح في النصوص الإسلامية الأصيلة نفسها ، من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، حيث أنها تقصد أن يفهم البشر تعليمات ومفاهيم معينة ، للالتزام بها عقائديا أو عمليا ، كما أن العوامل البشرية وعوامل القصور لا تؤثر في نصوصه ، بالإضافة إلى أن علمه تعالى محيط بالحقائق الواقعية ، وقد ذكرنا أن العجز على التفهيم والفهم لا يتناسب وأهداف الأنبياء والشرائع الإلهية .

١٤- إذا كان الوعي والأفق الفكري والثقافي والقبليات في كل إنسان تؤثر في فهمه ، فيلزم من ذلك عدم إمكان التفاهم بين البشر بواسطة الألفاظ وغيرها من التعبيرات عن المقاصد ، ويسود الشك بين البشر وتزول الثقة المتبادلة التي يعتمد عليها نظام المجتمع وتوازنه ،

ومعاملاته وعلاقاته في مختلف المجالات ، وخاصة مع تعميم تأثير القبلية لكلام الناس ووسائل الإعلام وأمثالها ، ولكل مسموع ومكتوب وفعل إنساني ، وهل يستقر نظام المجتمع وفعالياته وتوازنه مع هذا الشك السائد بين أبنائه ، إذ لا خلاص من هذه المشكلة إلا القول بحجية ظواهر الكلام ، وأنها المعبر عن قصد المتكلم ، وإمكان الوصول إليه من خلال ظاهره ، وأن الظاهر حجة ملزمة على المتكلم والسامع ، ولكن مع ملاحظة قواعد اللغة وأساليبها العامة أو الخاصة للمتكلمين ، ومسيرة العقلاء قائمة على حجية الظواهر وأمضاها الشارع المقدس ؟

١٥- إن اتفاق جميع الأفراد على فهم معنى واحد في بعض النصوص ، دليل على عدم تأثير القبلية ، مع وضوح اختلافهم في القبلية والظروف والمعتقدات ، وإذا كان هناك اختلاف في الفهم أحيانا ، فليس لتأثير القبلية وحدها ، وإنما لعوامل أخرى ، وقد ذكرنا في المقالات السابقة الفرق بين الظهور النوعي والشخصي ، وأن الظهور النوعي هو الحجة ، ولا شك بوجود الظهور النوعي الواحد في بعض الألفاظ والنصوص ، ولكن لو قلنا بتأثير القبلية دائما ؛ فلا بد أن لا يوجد الظهور النوعي ، وإنما كلما يوجد ظهور شخصي ، لأجل ما ذكرنا من اختلاف الناس في قبلياتهم وعواملهم الذاتية التي هي السبب في وجود الظهور الشخصي^(١).

ومن الواضح لدى كل مسلم أن هناك الكثير من الأحكام والمعتقدات الإسلامية الضرورية والقطعية والاتفاقية لا تقبل الاجتهادات المختلفة،

(١) يلاحظ كتاب دروس في علم الأصول للسيد الشهيد الصدر الحلقة الثالثة ١: ٢٧٦، فإنه بحث في الفرق بين الظهورين، وقد وضعنا الفرق أكثر في مقال حول الدراسات المنهجية للعلوم الإسلامية، رسالة الثقلين العدد ٣٢.

ولا تأثير خلفيات الباحث وظروفه ، كوحداية الله وكون صلاة الصبح ركعتين ، وجوب الصوم في شهر رمضان وأمثالها ، نعم يقبل ذلك في بعض الأحكام والمعتقدات الجزئية والخلافية ، والنصوص المجملة والظنية الخلافية كما ذكرناه .

١٦- إن هذه النظرية إما أنها تؤدي لتعدد الحقيقة ، فيما إذا قلنا إن جميع القراءات المتعددة بل المتناقضة على حق ، ولكن هذا غير صحيح ، فكيف يتعدد الحق والواقع ، مع ما في هذه القراءات من تناقض ، إذ بعضها تنكر التوحيد مثلاً وبعضها تثبته ، وبعضها تجوز شرب الخمر مثلاً وبعضها لا تجوز ، وأمثالها ، مما اعتمدته التعددية الدينية كذلك ؟ وسنذكر الإشكالات على تعدد الحق والحقيقة .

وأما إذا قلنا تبعاً لنظرية (كانت) إذ أن هذه القبلات تمنع من إدراك الواقع ، فيلزم من ذلك أن تكون جميع القراءات على خطأ وضلال لعدم وصولها للحق والواقع ، ويشكل عليها جميع الإشكالات التي وجهت لمذاهب الجدل والشك ، كما أنها لا تتناسب والنصوص الدينية حسب التصور الإسلامي .

وكذلك لو قلنا إن المعتبر الوصول لقصد المؤلف وفهمه ، فإذا قلنا إن جميع التفسيرات معبرة عن قصد المؤلف ، فهذا باطل ، وذلك لأن المؤلف لا يريد إلا معنى واحداً وفكرة معينة ، وإن قلنا أنها حق وإن لم يردها ؛ فهذا لا يتناسب مع النصوص الدينية ، حسب التصور الإسلامي ، حيث يطالب البشر بتعاليم معينة وإن الحق والواقع لا يتغير باختلاف آراء الباحثين وتفسيراتهم ، مع ما يلاحظ من تعارض وتناقض بين القراءات المختلفة .

السعادة كيف نجدها ؟

(١)

✽ الشيخ عيسى أحمد قاسم (البرمين)

كلنا يعيش معنى ارتكازياً للسعادة ، وشعوراً لاهباً بالحاجة إليها ، وهي تضع من نفس كل إنسان موقع الأمنية الأولى والأكثر قيمة والأعز شأناً ؛ لأنها الغاية من كل ما يتمناه ويطمح إليه . وما انشداؤه إلى أهدافه التفصيلية إلا من منطلق تصديقه بأدائها إلى سعادته . ومن وجد ما كان له أن يخطئها ؛ كيف وهي تملأ عليه وجدانه وتفعم شعوره وتمور بها نفسه وجوداً قائماً حاضراً عنده في الذات ؟!

وقد خلق الله تبارك وتعالى الناس للسعادة لا للشقاء ، وللهناء لا للعذاب ، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ...﴿^(١) . فللرحمة والسعادة ، والهناء والنجاح كان خلق من



مضئ ويأتي من الناس . وهم منشدون من أعماقهم إلى هذا الهدف الفطري الذي قد يصيبون حقيقة الكبرى ، وقد لا يصيبونه ، وقد يتخذون السبيل إليه سبيلا ، وقد لا يتخذون ما هو سبيله لهم بسبيل ، وإن خادعهم الرأي الكاذب ، والشعور المنحرف بأنه كذلك .

ماهي السعادة ؟ :

السعادة لغة خلاف الشقاوة ، والسُعودة خلاف النُحوسة^(١) . وإذا أردنا تعمقاً ؛ فقد تطلق السعادة على حالة التوافق بين ما تشتهي النفس وترغبه ، وبين ما تعيشه وتجده من أوضاع مادية ومتطلبات جسدية ، والشؤون القريبة منها كمواقع الاجتماع والسياسة والثناء عند الناس .

وقد تطلق في مرتبة أرفع على الكمال الفعلي للذات الإنسانية في أبعادها المعنوية ، وشعور الذات بهذه الفعلية من الكمال وهي على مراتب بين السعادتين :

الرؤية الأولى للسعادة ذات مدئ قريب تعطي تركيزا على كماليات الحياة المادية وزينتها وألوانها ومرآئها ، وتنشد إلى المنزل الفخم ، والأثاث الجذاب ، والسيارة الأكثر شهرة ومتانة وحدثا ، وتهتم بصحة البدن وقوته ، وعلى المواقع الاجتماعي المتقدم ، والشهرة العريضة ، والمركز السياسي المتفوق ، والحفاوة والتقدير ، وحسن المنظر ، وجمال المرأئ ، واعتدال القوام ، إلى ما إلى ذلك من أولاد وأزواج وعشائر وأنصار وأتباع وأملاك وترف وبحبوحة عيش . وهذه الرؤية تستقطب من الناس أكثرهم ، وتخلق في داخلهم سعار

(١) تاج العروس ٢ : ٣٧٦ .

الشهوة للمادة إلى حد الجنون والصراع على المحدود من الكم المادي في الأرض حتى الاقتتال ، وتقويض الأمن والسعادة بهذا المفهوم نفسه للنهاب والمنهوب ، ومن يغلب أو يُغلب ! إذ الدنيا كلها لا تروي عطش مجذوب إليها ، منكّب على زينتها ، ثم وهي بيده لا يأمن فواتها ، وأن أحداً لا يغلبه عليها ، ولذلك يحرسها بكل ماله من حيلة ، وبفكره وشعوره وكّد أعصابه ، وتحسّباته ومواجهته ؛ فتستنزفه أكثر ممّا يستنزفها ويعطي من وجوده لحراستها أزيد مما تعطيه ، وربما كان صريع همّها ، وضحية الحفاظ عليها ، وكم يؤرقه في صراعه من دونها هاجس الخسارة ، ويقضّ مضجعه خوف الفقر بعد الغنى ، والذل بعد العزّ ، والضعف بعد الظهور والمنعة ، وأن الآخرين يستلبونه ودنياه يسرقون مجده وعزّه .

ولذلك يناصب ويعادي ، ويستعبد ويسترقّ ، ويدخله حرصه على ما في يده والزيادة غير المتناهية في صراعات تكده وتحط بقواه ، ويلقه منها القلق والاضطراب فيما يلفّ الآخرين بسببه .

أما الرؤية الثانية فهي لا تركّز على أشياء الخارج وإن كانت لا تلغيها ، ولا تتسمّر عند الغنى المستعار ، وإن كانت لا تهمله ، وإنما هي تعطيه من عنايتها بمقدار ما تقوم به حياة الأشخاص والمجتمعات ؛ تستلقتها الذات الإنسانية : داخلها ومحتواها ومكونها في الأبعاد النورانية منها من روح وقلب وعقل وضمير . وتجد أن السعادة الحقيقية ليست تلك التي تنبني خارج الذات ، وما يقيمه الإنسان على الأرض من وجود ، وما يحتفظ به لنفسه من كنوزها من رصيد .

السعادة في هذه الرؤية مستوى من الكمال والخير والهدى والنورانية والشفافية تتوفر عليه الذات ويحضرها في الشعور ، ورؤية

كونية عميقة واسعة صادقة ونضج عقلي وتفتّح روحي، ورشد نفسي، وطهر قلبي، ونية صالحة وصفاء ضمير في حالة من الانشداد الكلّي للكمال المطلق، والتعلق الوله المبتهج باللّه العظيم، الرب الرحيم الكريم الحي الذي لا يموت.

وهي غنى باللّه عمن سواه، وأنس به لا تشوبه وحشة، وثقة فيه لا يضعفها حادث، ورضى به لا يمازجه سخط، هذا والكثير من مثله من مشاعر الأرواح الزاكيات، والقلوب الملهمات إذا أفعمت به الذات الإنسانية وجدت من لذة الحياة، وعذوبة الوجود، وسمو المعنى مما لا تبلغه الكلمة، ولا يحوم حوله الحرف ما يواقع بها كنه السعادة، ويسقيها من كأسها المترعة جمالاً وجلالاً وغبطة وحبوراً ما به رواء دائم، وبهجة لا تنقطع.

والسعادة بهذا المعنى لها آفاق وآفاق، ولا تقف بها المديات إلا من خلال محدودية الإنسان، وما يمكن أن يصل إليه تحليقه وتبلغه انطلاقته التي لا بد أن تكون محدودة بمحدوديته وإن اتسع لها إطار، وامتدّ منها مدى، وسما بها أفق.

وبرغم أن بابها مفتوح للساثرين، إلا أن المحظوظ بالعروج إلى أقرب آفاقها قليل ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾^(١). أما البالغ إلى بعيد من تلك الآفاق فهم في الناس صفوة أقل قليل ﴿وما يؤمن أكثرهم باللّه إلا وهم مشركون﴾^(٢).

ومن شأن هذه النظرة إلى السعادة أن ترتفع بمن يعيشونها عن الدوبان في صراعات الأرض وإن خاضوها من أجل اللّه، وتنقذهم من

(١) يوسف: ١٠٢.

(٢) يوسف: ١٠٦.

سباق على الدنيا لها لا تمكيناً للحق من شأنه أن يجقف منابع الهدى في الإنسان ، ويسدّ عليه مطالع النور .

أصحاب هذه النظرة المتطهرون بنورها وهداها لا يموتون كما يموت أهل الدنيا المولعون بها ، حشرات لا يزدون على طين وتراب ، وروح هابطة متمرغة في الوحل مثقلة به لا يرفّ لها جناح ، ولا أحجار متيبسة صلبة تجد مكانها في القعر مع وقود النار .

إنما هم إذا ما رحلوا من هذه الدنيا رحلوا إلى ربّهم الكريم صالحين نقيين أبراراً ، وملائكة عليّين أطهاراً ، يعبّون من كأس حياة أكمل ، وينطلقون مع فضاءات من جلال ، وآفاق من جمال ، لا تتناهى بها حدود ، ولا تنقطع بها نهايات .

قوارق تفصيلية :

وهذا بعض تفصيل بعد إجمال في فارق بين السعادتين :

١ - تستمد النفس الشعور بالسعادة بالمعنى الأول من حجم أشياء تقع في يدها ، وبريق لهذه الأشياء وتمكين من لذات جسد ، ومطالب شهوات ، ومن صفات بدن أو معنى تتمتع بها الذات ولا تمتنع على أهداف الحس ودوافعه أن تركبها إلى ما تريد ، وتسخرها لما تحاول كجملة كثيرة من العلوم وقدرة في اللسان وجراًة في الموقف وشهرة في النسب ، وذلك من خلال ما تعطيه هذه الصفات من تفوق في الموقع بين الناس في الحياة وظهور عليهم ، وما تفتحه من فرص للاستمتاع الجسدي ، وما تتيحه من غزارة في لذات الحس وشهوات البدن .

بينما تستمد النفس الشعور بالسعادة بالمعنى الثاني من مستوى إنسانيتها ، وفعالية كمالها وسمّوها ، وشرف دورها وموقفها ، ومن

صفات جمال وجلال معنويين فيها من حيث القيمة الذاتية لهذه الصفات ، والاستذواق لها في ذاتها . وهذه صفات تحكم حركة الحس وتوجّهها ، وتأبى طبيعتها العلوية أن تكون أداة بيد الحس يسخرها لإشباع نهمه ، وتلبية أطماعه . من هذه الصفات العدل ، والرحمة والإحسان والخلوّ من الأحقاد والحرص والشح ، وأعلاها المعرفة الحقة بالنفس والدنيا والآخرة ، وفوق هذا كله معرفة الربّ ، والثقة به ، والاطمئنان إليه ، والتعلّق برحمته ، والانجذاب إلى جماله وجلاله .

٢ - إن كثيراً مما تنظر إليه النفس بأنه سرّ سعادتها بالنظرة الأولى أشياء تأتي اليوم وتفلت غداً ، وكما تنتقل إلى الشخص تنتقل منه . خذ لذلك مثلاً من الصحة والقوة وجمال المحيّا والثروة والموقع والجاه . وغيرها كثير . أما ما تعتمد النظرة الثانية من أسباب للسعادة فهي الصّق بالذات وأبعد عن العوادي ما أراد الإنسان وصدق تعلّقه بالله وتوكّله عليه .

٣ - الأولى إذا دامت ماتت بموت البدن ، وكان في ذلك نهايتها ، والثانية لافناء لها على الإطلاق ما أذن الله ، حيث أنها سعادة روح ؛ والروح باقية يتوفاها الله كاملة لتعيش في سعادة أو شقاء حسبما قدّمت لنفسها في هذه الحياة . وما يذهب بالموت تراباً في التراب ويؤول أمره إلى تبعثر شديد فاحش إنما هو عمارة الأبدان .

٤ - لا تستم الأولى للنفس إلّا حال غفلتها عن الحقائق والعواقب والتحوّلات والمصائر ، وإلّا فكيف تنعم نفس بشعور السعادة لمال أو أهل أو جمال أو صحة وقوة تلتفت إلى أنها مرغمة على خسارتها ولو من بعد حين وأنها مهددة فيها كل لحظة . وحتى حال اللذة البدنية الفعلية الغزيرة التي تعطيها الممارسة لمشتتهى من مشتتهيات الطعام والشراب

والجنس مثلاً لا يمكن أن تسعد لها نفس تبصر الحقيقة عند ذاك وتنتبه إلى ما يؤول إليه المأكل والمشرب ، وما تمثله قمة الممارسة الجنسية من ناحية حسية ، وما يمكن أن ينتظر صاحب هذه اللذة من مستقبل مأساوي في نفس أو أهل أو مال ، وما يترصده من مرض وعجز وموت وشدائد . وأين موقع السعادة في مواقع سياسية واجتماعية ربما كانت الباب للندم والعطب وأعظم الكوارث ؟!

أما الثانية فتقوم على أعلى درجات الصحو والنباهة وحضور الوعي لحقائق الخلق والحياة والمصير ، وبدايات الأشياء ونهاياتها وما يعترها من تقلبات . وفي ظل النظر الدقيق الواعي المستوعب ربما تحولت اللحظة المرة تمر بها النفس في هذه الحياة إلى لحظة مستذوقة بما ينتهي إليه تحملها من عاقبة حميدة ، وبما يعنيه هذا التحمل من ارتفاع بمستوى الذات وتأهلها للمقامات الرفيعة .

٥ - كثيراً ما يكون الطريق إلى الأولى خسيساً منحطاً يعتمد التدمير للآخرين ونهب سعادتهم ، أما الثانية والطريق إليها شريف جليل معطاء ينشر الطيب والهدى والصلاح ، ويطلب ما استطاع إثراء حياة الآخرين ووجودهم .

٦ - تتآكل الأولى وتنحدر بتقادم الأيام ، وانحطاط قوى الجسد ، بينما تشبّ الثانية وتترعرع على الأيام مادام عقل وصحوه نفس وروح .

٧ - الباب للثانية مفتوح أمام إرادة الإنسان . أما الأولى فيكثر عليها التهارش حتى يستبد بها في الكثير ذوو الناب والظفر متصلبو الضمائر وموتى القلوب .

٨ - من يفقد السعادة بالمعنى الثاني يبقى شعوره بالنقص دائماً وإن تبذخت بيده الحياة ، ونُعم ملمسها من جانبها المادي في إحساسه ، لأنه

لا يجد فيها الكفالة التامة والقدرة على درأ المحذور ، ولأنه كلما وجد أن ما يملأ يديه من دنياه شيء غيره ، وأنه عظيمة مفارقة ، عاد إلى نفسه فلم يجد منها ما يثري شعوره ويعزّزه بقيمتها ، ويمدّه بالثقة والاطمئنان ، وما يبقيه كبيراً في ذاته مفصولاً عما أقام خارجه من بناءات على أرض وفي فضاء ، ومفصولاً عن بنية جسمه وفعالياته المرتبطة ببقاء هذه البنية وحاجات استمرارها .

فقد السمو الذاتي والسعادة المرتبطة به لا يعوّض عن فراغاته الهائلة في الذات ، ولا يسدّ النقص المترتب عليه ، والجوعات الناتجة عنه في أعماق الشعور ، كبير ما في يد الإنسان من متاع الحياة وزينتها وفقتها ، وكل ذلك لا يطامن من قلقه المستقبلي الذي يفرض نفسه عليه مهما حاول أن ينسى المستقبل أو يجحده من الأساس .

بينما تعالج السعادة النابعة من سمو الذات باتصالها بمصدر العطاء الكثير من مشكلات الفقد المادي ومعاناته ، فإن قليل المادة كثير في النظر الذي لا يركّز على الشهوات ، وإن درجة التحمل للنفوس التي ارتقت في ذاتها يصغر معها الكثير من الأزمات التي تثقل نفوساً من أهل التراب . وكثير مما يعدّه أهل الأرض ضرورة ، ويمثّل فقده مشكلة حادة لا يراه من استغنى في نفسه شيئاً ليحسّ له بفقد إذا لم يكن .

٩ - الهمم التي يتطلبها طريق السعادة الثانية لا تساويها همم قد تبلغ بأصحابها مبالغ متقدمة من سعادة الأبدان . فهي تتطلب دائماً همماً أكبر وعزائم أشدّ وأمضى وأكثر مداومة ومصابرة .

١٠ - لم يعرف من أحدٍ علِمَ بأنه من أهل سعادة الذات أن قد ضحّى بسعادته تلك النابعة من روحه وكمال ذاته من أجل سعادة يجدها بعض

من خلال أشيائه ومقتنياته .

والذين يعلمون جزماً أنهم من أهل سعادة الروح هم أنبياء الله ورسله وأوصياء رسله ، ولم يسجل التاريخ عن أحدهم بتاتا استبدالاً للذي هو أدنى بالذي هو خير ، بينما يأتي الكثيرون كسحرة آل فرعون ، ومصعب ابن عمير ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة زوج الرسول ﷺ ، والحر بن يزيد الرياحي أمثلة حيّة ، وشهادات صارخة على تضائل سعادة البدن أمام فرصة لسعادة الروح والرمي بالأولى جانباً عند التزاحم .

وحيثما تتم للروح سعادتها وتنفتح الفرص لسعادة الدنيا حسب النظر المألوف ، تفقد هذه الفرص بريقها في نفوس الكمل وإن لم يكن تزاحم ؛ فلا تجدها تستهويهم ، ولا تجد لهم بها أنساً ، ولا منها عن أنسهم بالله شاغلا . وأكثر من كونهم على ترفع وتنزه منها تجدهم في نفرة من الدنو منها واستيحاش ، وعليك أن لا تفتقد الشاهد الناطق بذلك . وأمامك حياة الرسول الأعظم ﷺ ، وعلي أمير المؤمنين عليه السلام الذين كانت الدنيا تتمرغ على قدميهما الشريفين فلم يجدا إلا أن يدوساها مشغولين عنها بعباءة وفير غزير كبير هانيء من الله الحميد المجيد في الذاتين الكريمتين من صنعه البديع .

١١ - تأصل المعنى الأول للسعادة في النفوس مقوّضاً للمجتمعات، حيث أن الأرض لا تشبع نهم طامع في الدنيا باحث عن معناه من خلال أشيائها ، فلا بد من تصارع وتآمر وتقاتل بين الأفراد والجماعات والأقوام على أسباب المعاش والظهور والقوة والترف والبذخ إلا أن تقهر القوة ، وتسكت السطوة ، ويكون هناك مستكبرون مترفون ، ومستضعفون محرومون ، فيسكن الصراع فترة في مذلة وفساد ليعود

أُخرى عند نقطة من التحولات .

وتأصل المعنى الثاني للسعادة في النفوس بلا معاداة للدنيا قاعدة لبناء مجتمعات التعاون والتضامن والتكامل والإيثار . فنظافة النفس من مشاعر الحرص والشح بالدنيا وتحليها بالثقة والقناعة والرحمة ؛ مما ينتج سمو الذات ، والتعويل على الله مبنت للترفع عن سرقة جهود الناس وعطاء عرقهم للتبذخ من جهة ، وللنهوض بحاجات المحتاجين ممن يمنعهم مانع من الكسب من جهة أخرى . وكم سيكون في الناتج العام الاقتصادي من فائض لو طلب الناس حد الكفاية لا الكفاف بلا ترف ولا سرف ولا إهدار للثروات بما يهدر الصحة والكرامة والأمن ويحطم الأخلاق ، ويثير الفساد والرعب في الأرض ؟

الإسلام والسعادة :

الإسلام كلمة الله خالق الإنسان روحه وبدنه ، فهو للروح والبدن ، ولا بخس فيه لبدن كما لا بخس فيه لروح ، ولا غفلة ولا إهمال منه لحاجة لهذا أو ذاك ، ولا تضييع في منهجة الإسلام لبعد من أبعاد الإنسان ، ولا تغييب لمقتضى من مقتضيات ذاته ، على أنه لا يتوقع أن نجد متقدماً متأخراً في هذه المنهجة أو متأخراً مكانه متقدم .

والإسلام في نظامه العبادي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وكل أنظمته الأخرى الحكيمة الرصينة العادلة منظومة مستناغمة متناسقة تنشد إلى رؤية كونية دقيقة عليمة لولا دقتها واستيعابها وديمومتها لما كان للكون استمرار وانتظام .

هذه المنظومة الرائعة المتلاقية تنتهي إلى تخريج الإنسان المتكامل

الذي يتوفر على أوضاع حياتية ناجحة ، ومستوى إنساني متفوق ،
 ليعيش هناء الحياة في بعدها الأرضي بأقصى ما تسمح به طبيعة
 الحياة على الأرض ، وإن كانت تمثل دورة امتحان وجهد وجهاد
 ومكابدة أكثر مما تمثل دورة للنعيم وأجواء مفتوحة على الراحة
 والاستمتاع العريض ، ويعيش هناء الحياة ببعدها السماوي بأعلى
 درجة تطبيقها قابلية الإنسان لأن يخطو في اتجاه الكمال . على أن الهدف
 الأسمى لمنظومة التكامل - الإسلام - هو أن ينشأ بإنسان الأرض إلى
 السماء ، ويعطي قابليات روحه عروجاً إلى الله سبحانه رشداً بعد رشد ،
 ونقاء إلى نقاء ، وطهراً فوقه طهر ، وشوقاً يتبعه شوق ، ومعرفة تنضاف
 إليها معرفة ، وتخلقاً في نماء بخلق الله العظيم ما وسع هذا الإنسان على
 محدوديته وتناهيه ، وحينئذ ترى الذات الإنسانية نفسها وجوداً كريماً ،
 وعطاءً ثراً من عطاء الله ، وشعاعاً لألاء من فيض نوره الذي لا يحد ، فلا
 تقارف سوءاً ، ولا تتعاطى باطلاً ، ولا تميل إلى ظلم أو فساد ، ومن نظرها
 إلى أنها قبسة نورٍ من فيض الله العظيم تشرف وتطلب سموً أكثر ،
 وتحليقاً أبعد ، وتنوراً أكبر ، فتشغلها رحلة الكمال عن الإسفاف
 والإسراف والإيغال في لذائذ الحيوان . ومن وعيها بكونها في هداها
 ومعرفتها وأشواقها الجليلة وطموحاتها النبيلة قبسة لا تنطفئ بالله
 ومدده تغني وتقي وترضي .

نعم إذا كان أكثر من سعادة ، وقبلنا أن تكون سعادة لبدن وسعادة
 لروح ، فلا ريب أن سعادة البدن في الإسلام وسيلة ، وسعادة الروح
 هدف ، وما كان وسيلة وطريقاً يحافظ فيه دائماً على صفة طريقية دون
 أن ينقطع عنده النظر وتنتهي به المحاولة ، ولنطالع رأي الإسلام في أمر
 السعادة للإنسان في كل من الكتاب والسنة :

أ - على مستوى الكتاب :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾^(١) ﴿... ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم...﴾^(٢).
الآية الأولى تجعل عبادة الله ، ومعرفته ، والانشداد إلى عظمته ، وانطلاقة الروح على المدى اللا محدود إليه ، وفي الفضاءات اللامتناهية النورانية في اتجاه كماله المطلق هدفاً لخلق الإنسان ، ومعرفة العبد بربه ، وشعوره بأنه في كنف رحمته ، وفي قلعة حماه ، وثقته برفده ، ورؤيته لعظيم من جماله وجلاله ، سعادة ما نالها عبد من عباد الله إلا وأنسته ما عداها ، وكان له منها غنى عن كل ما تمناه الآخرون .

والآية الثانية تعالج أمر الضرورات البدنية وحاجات الحياة المادية ولذا نذرها فتفتح الباب لإشباع هذه الحاجات حتى لا يكون من جوعة البدن وعراه وآلامه ومتاعبه الثقيلة معيقاً للكثيرين عن الانطلاقة الروحية في رحلة النور والهدى والكمال . ولذلك تختار الآية الطيبات التي لا تتعاكس وشروط الرحلة المباركة ومقتضياتها ، ويحرم الخبائث التي تترك آثاراً سلبية ضارة على توجه الروح وحركتها الصاعدة ، وتلقي عن الإنسان جانباً كل ما يثقل حركته إلى الله ، ويحد من قوة أندفاعه وتحليقه الروحي في أجواء الصفاء والنقاء والشفافية والطهر في المسارات العمودية المفتوحة اللا محدودة في اتجاه معرفة أكمل وأوفى بخالقه العليّ العظيم ، وربّه الرحيم الكريم .

وانظر قوله تعالى : ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحلّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾^(٣) فإن المستظهر أن موضوع الآية

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

(٣) طه : ٨١ .

هو خصوص الطيبات من الرزق فهي الرزق المعني لها ، لأن ما كان من الخبائث وممنوعاً عنه لا ينسجم بأن تعبّر عنه الآية ﴿ ما رزقناكم ﴾ ولو بنحو الإطلاق الذي يشمل ما كان طيباً ، فلا معنى لكونه رزقاً لنا ولا يؤذن فيه ، وقرينة الامتنان لا تناسب الخبيث كذلك ، وعليه يستظهر من الطغيان المنهي عنه في الآية هو الاستغراق في الطيبات ، وفصلها عن وظيفتها الطريقية ، وتحويلها إلى هدف تقيم عليه النفس ، وتنشغل به ، وينقطع همّها عنده ، وتجد أقصى لذتها وسعادتها فيه .

وبيّنت الآية الكريمة أن هذا ينتهي إلى الهويّ والسقوط في المستوى الإنساني ، وهو الموضوع للهويّ في النار والخلود فيها . نعم بالانغماس حتى في الطيبات من المأكّل والمشرب والملبس والمسكن والمركب والمنكح إلى حد التجمد عندها والانقطاع إليها بلا معرفة بالنفس وبالرب ، وبلا فاعلية روح ولا عبادة يخسر الإنسان إنسانيته ، وتفشل حياته عن الوصول إلى غايتها السامية وهدفها الكبير . وهذه هي نهاية عبد وقع في غضب الله ، واستحقّ خذلانه بما رضي به من التلهي بلذات الأرض والإقامة عندها منصرفاً عن بناء الروح ، وتربية الذات تربية تضعها على طريق كمالها وهدفها الإلهي الأصيل .

إن الواضح من كتاب الله الكريم أنه لا يناهض فكرة الاستمتاع بالطيبات والانتفاع البدني بخيرات الأرض وخلق الأجواء المادية المناسبة لراحة النفوس وتخفّفها من ضغط مشكلات المعاش والتخلص من حالة اختناق الدوافع وكتبها ، بل الإسلام بقرآنه وسنته يقيم من النظم الحياتية في ميدان العمل والاكتساب والاقتصاد والزراعة والصناعة ما يؤدي إلى الرخاء وسعة العيش عند الفرد والمجتمع ، ويدفع بعجلة الاقتصاد إلى الأمام حتى تكون أمة الإسلام المكتفية الغنية التي

يحتاج إليها الآخرون دون أن تحتاج للآخرين ، وقد شرّع المسألة الجنسية وفتح من الدروب الحلال في مجالها ، وأوجد من التمهيدات والتسهيلات والأجواء النفسية والاجتماعية ما يجعلها مسألة محلولة في الإسلام بالكامل بلا فوضى ولا أزمات أو تشنجات أو اختناقات تؤدي إلى التحطّم أو الانفجار . وكمواجهة صريحة لخط الكبت وتعذيب الجسد أو حرمانه يأتي مثل قوله عزّوجلّ : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ^(١) فلا استقذار للطيبات من مأكّل وملبس ومشرب ومنكح ومسكن وكل ما تحتاجه حياة الناس في الأرض ، بل يقف الإسلام في مصدره التشريعي الأول في وجه من يريد أن يؤسّس للحرمان ، ويفرض رهبانية ما بها من سلطان ولو بتحريم شيء واحد من الطيبات . ومع الطيبات الزينة وبإضافتها إلى الله سبحانه يبعد بها النص الكريم عن أن تكون طريقاً لفساد أو تحلل أو استغلال سيء . وإنما هي ذات دور إنساني أسري واجتماعي ببناء لتنمية العلاقات ، وإيجاد المودات ، وإضفاء مسحة من الجمال والروعة على الأشياء بما يُثير البهجة ويرتفع بمستوى الأذواق ويريح النفوس في إطار ما يحل وينفع . والمنهج الإسلامي الشامل وهو يستهدف تكميل الإنسان في دورة الحياة والبلوغ به إلى أقصى درجات ما يتّسع له وجوده من كمال لا يسلك به لذلك طرقاً مرهقة معادية لبهجة الحياة والاستمتاع بطيباتها واستذواق الجمال فيها ، بل يصنع له من أجواء الحياة المريحة الميسرة ، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والخلقية ما يكون من مرونته وتناسبه مع متطلبات الإنسان وسد جوعاته ما يسهل عليه

الدرب لبلوغ غايته الروحية الرفيعة ، ويسلك به إلى مرتقاه الإنساني عبر أيسر الطرق وأسرعها إيصالاً وأكثرها ملاءمة لكل ما يزخر به وجوده من أبعاد . وأنت ترى كيف دفع الإسلام حين تولى تربية المجتمع على طريق أهدافه الإلهية القويمة على يد رسول الله ﷺ بالأوضاع الإنسانية والمادية البناء كلها إلى الأمام ؛ وصولاً إلى غرض التربية الروحية العالية ، ولم يسلك بالمجتمع المسلم والفرد المسلم لهذا الغرض الرسالي الأساس طريقاً يعادي الحياة ونموها وطيبات الدنيا وزينتها .

وأكبر نضج روحي وإنساني يتوقع أن يبلغه إنسان هذه الأرض هو زمن الظهور للقائم عجل الله فرجه ، وهو الزمن الذي لم تكثر خيرات الأرض وتعم يوماً بقدر ما تكثر وتعم فيه . فيوم الإسلام ليس يوم ضيق وفقر وتقتشف ورهبة ، ويوم حياة الروح والقلب والوجدان والضمير ليس يوماً لموت البدن وذبوله وانحطاط قواه .

نعم قال الله سبحانه : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾^(١) ، وقال عزّ من قائل : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾^(٢) .

فيوم الإسلام هو يوم حياة الروح والبدن ، يوم النضج الإنساني ، والتقدم المادي ، يوم الخيرات والبركات في الأنفس والأموال والأوضاع ، وليس يوم جاهلية ولا ضلال ، ولا ظلم ولا استغلال ، ولا فقر ولا شح ، ولا يوم بهائم ، همّها علفها ، تتقمم حتى تقتلها بطنتها ، وتذهب ضحية سرف مأكّل ومشرب ومنكح ، بلا خلق وقيم وإيمان . ويوم الإسلام ليس من

(١) الأعراف : ٣١ .

(٢) الأعراف : ٣٣ .

أيام العري والفساد والفواحش والتبذل والسقوط ، ولا من أيام الكفر والشرك والانحطاط العقلي والروحي والتهيه والضياع ، وغياب الفطرة وموت الضمير .

ونجد الناس يوم القيامة فيما يقرّره القرآن الكريم : فريق سعادة وفريق شقاء ، ذاك خالد في نعيمه ، وهذا خالد في العذاب ﴿... فمنهم شقي وسعيد ﴾ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد * وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴿١﴾ .

فريق الشقاء يوم القيامة إنما شقي لسقوطه الروحي في الحياة الدنيا بانفصاله أيامها عن الله وخلوده إلى هواه وشيطانه وزينة الأرض . وفريق السعادة يوم القيامة إنما سعد لسموه الروحي في هذه الحياة بتعلقه أيامها بالله ، وركونه إلى الدليل من عقله والهدى من ربه ، والاستعانة بالطيبات على تكميل نفسه والإعداد لآخرته . فكل من سعادة الآخرة وشقاؤها مصنعه الأرض في الحياة الدنيا ومن خلال إرادة الإنسان المخير بين الخلود إلى الأرض ، والصعود بكيانه الإنساني ومضمونه الروحي إلى السماء ... بين الاستقامة والانحراف ... بين الإيمان والكفر ... بين الطيبات والخبائث . والقائمة السوداء من هذه المتقابلات لا تجاري القائمة المشرقة منها في تقديم السعادة في الدنيا للإنسان . وإن قدّمت لذائد حيوانية سرقة من بعض مع فساد كبير في الأرض ، فالثمن عذاب مقيم في الآخرة بما تحدّثه من تصفية إنسانية وروحية لأصحابها وهم كثير . أما القائمة المشرقة فهي تتخذ من سعادة الدنيا طريقاً إلى سعادة الآخرة ، وتصوغ بمنهجة الإسلام إذا حكمت

سعادة متصلة ترافق الإنسان في حياته ولا تودعه يوم موت ، ولا يوم بعث ولا نشور .

إن الانكباب على الدنيا والانصراف عن الله عزّ ذكره لا يحقق سعادة دنيا ولا آخرة ، فإن السعادة تتطلب شعوراً بالأمن على الحاضر والمستقبل وثقة من الفاقد بالذات ، يتدفق الفيض من الغير الغني بذاته ، دعماً مستمراً ، وحماية دائمة ، وأكبر غنى في الدنيا لا يوفر لصاحبه ذلك ولا الجيوش ولا العشائر والمواقع . وأي غنى بيد إنسان ، وأي قوة وصحة ، وأي رصيد مادي أو معنوي مما يؤتاه ، يعيش هم الاحتفاظ به وحراسته وتوقع استلابه منه فيسهره ويضنيه ويرهق أعصابه من دون أن تفارقه حالة الخوف والترقب والتحسب لطروق الأزمان ؟ وكفى بهم المرض وعجز الشيخوخة وهمّ الموت منغصاً للذات الحياة لمن لا يجد فرصة غير فرصة الحياة ولا عوضاً عن متاعبها وما يلّم به فيها من الأزمات . وإذا كان عمر الآمال سنوات متلاشيات يعقبها عدم أو عذاب ؛ فهي آمال صفراء بئيسة قصيرة حقيرة لا تحتضن السعادة ولا تنبت انشراحاً ولا مسرات إلا أن يكون دواراً أو غيبوبة تنسي الحقيقة . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴿^(١)﴾ فهي خسارة حياتية .. خسارة وجود . عيشة ضنك ، ومنقلب سوء لمن ينسى الله ، ويكبّ على علف ومرعى كما تكبّ مربوطة وسائمة .

ب - على مستوى الحديث :

في المأثور عن أهل بيت العصمة عليهم السلام نور من نور الكتاب وهدى من

هداه ، وكلماتهم مرآة تترك أفكار الكتاب ومفاهيمه ورؤاه وطروحاته .
فلتكن لنا وقفة مع الحديث في المحاور التالية :

١ - سعادة الدنيا :

«ثلاثة هي من السعادة الزوجة المواتية ، والولد البار ، والرزق يرزق ، معيشة يغدو على صلاحها ويروح على عياله»^(١) «من سعادة المرء المسلم أن يكون متجره في بلاده ، ويكون خلطاؤه صالحين ، ويكون له ولد يستعين به»^(٢) ، «إن من سعادة المرء المسلم أن يشبهه ولده ، والمرأة الجملاء ذات دين ، والمركب الهني ، والمسكن الواسع»^(٣) ، «من سعادة المرء أن تكون صنايعه عند من يشكره ومعروفه عند من لا يكفره»^(٤) .

تحدث الكلمات عنهم عليهم السلام عن أمثلة من زوجة جميلة موافقة ذات دين ، ومركب هنيئ مريح ، ومسكن واسع ، وصلاح معيشة ، ومكسب مستقر ، ومن ولد بار ، وخطاء صالحين ، وجو اجتماعي مناسب ممّا يعطي راحة بال وهدأة نفس وانشرّاح خاطر هنا في الحياة ، وتعد ذلك من السعادة المطلوبة المرغوبة التي تدفع إليها .

وإذا راجعت الإسلام في أنظمتها كلها وجدت هذه الكلمات منهم عليهم السلام ترمز إلى مضامين تتكفل تلك النظم بتحقيق مصاديقها على أرض الواقع ، بل إن هذه الكلمات نفسها إنما جاءت لتؤدي دورها في إطار النسيج العام الإسلامي لتحقيق واقع السعادة في الأرض بما تطيقه ظروف الحياة عليها ، فهي مؤشرات عامة لخلق المناخات الفكرية والنفسية

(١) البحار ١٠٠: ٥ ح ١٨ .

(٢) نفس المصدر: ٧ ح ٢٧ .

(٣) البحار ٦٣: ١٤٩ ح ٢ .

(٤) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٣ من غرر الحكم .

والاجتماعية التي تحتضن هذا اللون من عوامل السعادة في مجتمع تسوده روح التقوى وأمل الآخرة . على أن الإسلام كما تقدّم لا يحاول أن يقيم للسعادة في الأرض كياناً مفصلاً عن قضية الإيمان والقيم الرفيعة، والتربية الإلهية لذات الإنسان ، فإنه شأن لا يلتقي ورؤيته الكونية الأصيلة وعلمه الدقيق بالإنسان ، مع كونه يرى أن مثل هذه المحاولة أمر فاشل ، فإن بقاء الجوعة الروحية في الإنسان ، وما يحدثه التوجه المادي الصرف من فوضى في حياة المجتمعات ، ومن طموحات جنونية في نفوس الأفراد والجماعات تجاه المادة بما تعجز الأرض عن تلبيته ، ويمثّل ملهاة مضلّة مغوية للإنسان ؛ كاف لأن يحرم من السعادة من طلبها عن طريق النهم المادي المفتوح وإشباعه ، كيف وهو كلّما تنامي هذا التهم داخله احترق به ؟ أو كل ما تسبّب إليه من اجتماع مال وجاه وقوة وسلطة بيده زاد من مستوى همّه وقلقه والحسرة على مفارقتها ؟!

إن ما لا شك فيه هو أن المنهج الرباني يأخذ المجتمع الإنساني إلى منجاة من الفقر والمرض والخوف والجهل والكسل والتمرّد ، وعن كل العوائق التي تستهلكه في دوامة همومها ومآسيها عن تكميل ذاته ، وصناعة مستواه الإنساني الكريم ، وتستنفذه دون أن يحقق غاية حياته من سموّ الروح وعظمة المعنى ، كما نأى به عن حياة الضنك والشحّ والمعاناة في أوضاعه المعاشية والمادية عامة حتى لا تضيق به الحياة ولا تتحول أيام دنياه إلى مأساة وطريقه إلى الله سبحانه إلى طريق شائك . الأصل أن يعيش أوضاعاً موسّعة تُلمسه لطف الله به في كل جنبات الحياة ، على أن لا يكون له من تمدّد الثروات والغنى الفاحش ، ويبطره ويلهيه عن الغاية القصوى من معرفة الله وعبادته ، ويجعله

ركّاضاً وراء سراب العزّة والعظمة والخلود الكاذب في المال ، ومظاهر الزينة السطحية ، ومستنقع الشهوات .

وقد يأتي تدقّق في النعم استدراجاً لا رحمة لقوم لا يفقهون ﴿أيحسبون أنما نمثّهم به من مال وبنين * نساوع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾^(١) كما قد يأتي النقص فتنة ودرسا من دروس الواقع المر لتتجلى من خلاله الأحجام والأوزان ، وتنكشف لذاتها ولغيرها الذوات في مجتمع الإنسان : ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾^(٢) .

وهاتان ظاهرتان تكوينيتان تحدثان بتقدير إلهي حكيم تأديبا أو تربية حسب مقتضيات أوضاع المجتمع البشري في الحكمة الإلهية المتعالية ، والتحوّلات التي تعرض عليه من انحراف عن خط الله عمداً أو غفلة انحرافا يمسّ التصورات والمشاعر والتوجهات وأنماط السلوك والتعامل . وهذا الدرس التكويني أو ذاك إنما يعمل على ردّ المجتمع البشري لما يستهدفه النظام التشريعي من تركيز الأوضاع بالصورة التي تناسب سعادة الإنسان في الحياة وتجليها في حدّها الأكمل في الآخرة .

٢ - سعادة الآخرة :

«عند العرض على الله سبحانه تتحقّق السعادة من الشقاء»^(٣) .

«سعادة الرجل في إحراز دينه والعمل لآخرفته»^(٤) .

(١) المؤمنون : ٥٥ - ٥٦ .

(٢) البقرة : ١٥٥ .

(٣) ميزان الحكمة ٤ : ٤٦٤ عن غرر الحكم .

(٤) المصدر السابق .

«أفضل السعادة استقامة الدين»^(١).

«ما أعظم سعادة من بوشر قلبه ببرد اليقين»^(٢)!

«إن حقيقة السعادة أن يختم للمرء عمله بالسعادة ، وإن حقيقة الشقاوة أن يختم للمرء عمله بالشقاء»^(٣).

مرّت نصوص تعدّ أشياء ماديّة كالدار الوسيعة والمرأة الجميلة والمركب الهنيء من السعادة ، ومرّ أن منظومة التشريعات الإسلامية ، والنظام الإسلامي الشامل لا يبني سعادة الآخرة على معزل من الدنيا ، أو من خلال تحويلها إلى شقاء وجحيم ، أو صحراء جرداء ، وإنما يطلب للإنسان سعاداته الأخروية من خلال عمارة الدنيا وأوضاع معتدلة هانئة فيها ؛ فيكون للإنسان منها عون على دربه الصاعد إلى الكمال .

وإذا طالعنا المجموعة الأخيرة من النصوص ؛ وجدناها بين ما يفضل سعادة الدين والآخرة على سعادة الدنيا «أفضل السعادة استقامة الدين» ، ومنها ما لا يلتفت إلى سعادة الدنيا ولا يعيرها نظراً بالقياس إلى سعادة الآخرة ، وكأنه لا وزن لها بإزائها للفارق الهائل بين الاثنين : «سعادة الرجل في إحراز دينه والعمل لآخرفته» ، «إن حقيقة السعادة أن يختم للمرء عمله بالسعادة ، وإن حقيقة الشقاوة أن يختم للمرء بالشقاء» .

إن هذه المجموعة تجعل قيمة السعادة ، أو حقيقتها في المحتوى الروحي الحي والمضمون المعنوي المتقدم الذي يتحقق لذات الإنسان في هذه الحياة بجهد وجهاد من توفيق الله . أما ما نسميه سعادة من لحظات بشاشة وانسراح للنفس لملاءمة الأوضاع المادية مع مشتتهاها ؛ فهي لا تعبأ به ولا ترى له شأنًا يكون به من حقيقة السعادة ، ولو شملنا

(١) المصدر السابق : ٤٦٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) البحار ٦٨ : ٣٦٤ ح ٣ .

هذه الحقيقة لتلك اللحظات العابرة غير الخالصة تماماً من المكدرات لو تم الالتفاف ، فهي مستوى أولي بسيط منها .

السعادة بهذا المنظور روعي محلّق ، ومتانة في الذات الإنسانية من حيث بناؤها المعنوي ، واستيعابها للمعرفة الحقّة وتنوّرها بها ، وتحليلها بانعكاساتها في الشعور والنية والعمل ، وتحولها مرآة تعكس من جمال وجلال لا منقوص ولا محدود للكامل المطلق المتعال محدوداً بما يتأتّى لها في نموّها وتكاملها في إطار الإمكان المحدود أن تعكسه .

وتحوّل هذه الكلمة الثرة «عند العرض على الله سبحانه تتحقّق السعادة من الشقاء» ساعة تبيّن السعادة من الشقاء على ساعة العرض على الله سبحانه ، والوزن الحقّ للأنفس من بارئها فيما انتهت إليه فعلياتها ومضامينها في الخير والشر والصالح والفساد بما كسبت أيديها ؛ فإنه لا يعبر السعادة بمعناها الداني نظراً إلّا بلحاظ عاقبتها وما تؤدّي إليه في اليوم الآخر ؛ يوم تجلّي الأرواح على واقعها ، وبروز الذوات بأوزانها وأقدارها الفعلية الصادقة . يومئذ يظهر أن سعادة الغنى والصحة والشهرة والرفاه وكثير من هذا القبيل في الدنيا سعادة حقّاً أو شقاءً فيما تؤوّل إليه الأمور ، ويكون للدوام ، وفيما هو واقع الذات لهذا الإنسان ولذاك ، ومستوى له من شأنه السعادة أو من شأنه الشقاء في الأبد ، ويظهر أن ضيق المعيشة وشحّها ، واعتراء الأمراض ، وانغلاق فرص من فرص اللذة ، وتنكّر الآخرين ، وغلبة الظروف مما شقاء في هذه الحياة خير واقع على المدى البعيد على أذاه الحاضر ، أو شر فيما هو المردود على صناعة الذات ، وتبلور النفس ، وفيما يستقبله الإنسان كذلك بعد حين ، وفيما هو باق لا يعتريه فناء ولا يعرف النهاية . أو لا يصح أن يعدّ شقاء اليوم سعادة إذا كان ما يعقبه من خير للذات ، ومن

مستقبل كريم يفوق بسعاداته وهنائه ولذا ذاته على كل مستويات الذات وأبعادها آلام هذا الشقاء ببلايين المرات بل بما لا يعدُّ ويحصى؟! على أن الطريقة التي تعتمد عليها المنهجية الإسلامية كما تقدم ليس أن تعذب في الحياة ، لتعطي عن ذلك ثمنا من سعادة الآخرة ، وإنما هي المنهجية التي توصل سعادة الآخرة بالدنيا وتهيء بسعادة الدنيا لسعادة الآخرة ، وإن كانت ملابسات الحياة وظروفها والتضاد بين الأحياء فيها والانحراف عن المنهج الحق في مجتمعاتها قد يتسبب في حرمان شخص ومتاعبه في الدنيا ، وهي دار التربية والامتحان ، فيعتاض من فضل ربّه عن حرمانه ومتاعبه نعيما مقيما ، وملكا كبيرا ، ومقاما كريما وسعادة أبدية في الآخرة إذا استقام على الدرب الذي فتحه الله لأوليائه ؛ لأن يصعدوا بقلوبهم وأرواحهم إليه رغم المصاعب والأزمات المترصدة على الدرب .

تعارض محلول :

أساساً وكما تقدم لا تعارض بين حاجات البدن والروح ... بين سعادة الدنيا والآخرة في الإسلام ، بلا لا تتم سعادة في الدنيا مع خواء روح ، ويستعان لسعادة الروح بسعادة البدن . ولكن من ناحية الواقع الخارجي توجد حالات تتعارض فيها مطالب البدن مع حاجات الروح ، وتنعمه مع كمالها .

وهذه مجموعة من كلمات وردت عن أهل البيت عليهم السلام تقدّم الرأي في هذه الحالات :

«أسعد الناس من ترك لذة فانية للذة باقية»^(١) .

«إن سعادة الناس في الدنيا من عدل عما يعرف ضرّه ، وإن أشقاهم من اتبع هواه ،

فاعتبروا واعلموا أن لكم ما قدّمتم من خير ، وما سوى ذلك وددتم لو أن بينكم وبينه أمداً بعيداً»^(١) .

«أسعد الناس بالدنيا التارك لها ، وأسعدهم بالآخرة العامل لها»^(٢) .

ثانية في هذا المقام الواحد يؤكد أن الإسلام يقيم نظاماً شامخاً للموازنة بين الدنيا والآخرة ، ويعمرها وصلة لإعمار الآخرة ، يقيم نظاماً يوقر لأبناء الدنيا الاكتفاء ، ويسدّ عنهم أبواب الفاقة ، بما يثير فيهم من روح العمل ، ويلاحق منهم روح الكسل والطمع والجشع ، ويشيع بينهم علاقات العدل والإحسان ، ويبينهم على الأخاء والتراحم والمودة ، ويجفّف مادة البغي والعدوان ، ويتنصف للمظلوم من الظالم ، ويأخذ بموازن القسط في توزيع الثروة ناتجا ومواد أولية قبل ذلك ، ويضخّ في النفوس معاني ثثري الذات ، وتشبعها غنى من داخلها فتسمو وتعفّ ، ويسرج مصباح العقل حتّى يكون النور الوهاج ، والرؤية المديدة ، والإدراك المصيب ، ويطلق قوى الروح لتسبح في عالم الملكوت ، وتسبّح مولعة بحمد الله .

نظام الإسلام تتناغم فيه مقرّرات المادة والروح ، وتتلاقى على مصلحة البدن وبنائه ، ورفعة الرّوح وسموّها ، وهي إذ تطلق الروح محلّقة كريمة تزكو بها حياة البدن وتطهر وتطيب .

فالإسلام لا يعيش مشكلة الانغلاق على الروح دون البدن ، أو على البدن دون الروح ، ولا يعيش مشكلة الانقسام والتهافت بين هذه الجنبه والأخرى من نظامه ، فلا صراع في النظام الإسلامي المتكامل داخل النفس ، ولا على الأرض بين بدن وروح . ولكن الصراع بين شطري الكيان

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٢٥٥ .

(٢) ميزان الحكمة ٤: ٤٦٥ .

الإنساني أزمة قائمة في نفس الإنسان وحياته من منطلق الانحراف عن الإسلام، والأنظمة الأرضية القاصرة والديانات المبتدعة التي تملك على الكثير من تفكيرهم، وتستحوذ على تلوين مشاعرهم وطموحاتهم وتوجهاتهم، وهذه التيارات تخلق أوضاعاً صعبة على الأرض، وتضيق الفرص أمام من يشعر بآدميته في بعديها الثابتين ومتطلباتهما لو أراد أن يعطي لكل بعد حقه، فيضطر أن يصبر على أحد فقدين: فقد يمس منه روحه، وفقد يمس منه البدن. فماذا إذا فرض على الإنسان هذا الواقع المرهق من فعل الأنظمة الأرضية والديانات المخترعة والانحراف بدرجاته المختلفة عن الإسلام؟

قد يكون ما يراحم الآخرة من الدنيا لذّة على كونها فانية غير مقومة للحياة، وقد تكون مقومة، كما أن المزاحم من الآخرة أصل السعادة فيها على تقدير، ودرجة من درجاتها العليا على تقدير آخر. والتقديم دائماً في الكلمة الأولى من الطائفة الأخيرة للآخرة على الأولى، فعلى تقدير أن يدخل المتمتع بالدنيا المحروم من الآخرة تحت السعادة ولو مجازاً، فإن سعادته لا تضارع شيئاً من سعادة الآخرة ولا تقاربه. فالخيار عند العاقل مع التزاحم لا يحتاج إلى تأمل، فإنه وإن لم يكن أطلب للمخلوق الحي في الدنيا من أن تبقى حياته له، ولكنها لو تطلبت آخرته ثمناً فإن كلمة الدين والعقل مجمعة على أن لا تكون الآخرة ثمن الأولى، بل تقدم حياة البدن ثمناً لحياة الروح، ويوم الدنيا وهو فإن حفاظاً على يوم الآخرة الذي لا يفنى.

والكلمة الثانية في هذه الطائفة من الكلمات عنهم ﷺ تتحدث عن فئة في الناس بلهاء، لا يعدلها أحد في ماهي عليه من سفه الاختيار حتى لتدرك أن الشقاء الأبدي في ما يوافق الهوى ويغذي نهم الشهوة من طرق

حرام ، فتنساق مع الهوى إلى الهاوية على علم لا تتماسك عن عقل ولا دين عن الانجراف إلى الهاوية في تخليد وتأبيد .

ومن هو أسعد الناس في تلك الكلمة ؟ من عدل عن الضارّ وقد عرف ضرره وإن يكن الحياة ... حياة الدنيا والبدن عندما يكون الثمن الوحيد لبقائها سعادة الآخرة ، والمساومة من أجلها على الدين ، وهل تعدل فرصة بقاءٍ قد لا تطول الأيام فضلاً عن الشهور والسنين حياة الخلود وفوز الأبد؟! ومن ضحّى بدنيا تضرّ بآخرته وقَدّم لغده فهو له مذخور ، وجزاؤه به موفور ، ومن أخطأ الخيار ، وقَدّم الهوى على التقوى كان ما ينتظره مرعباً مروّعا ، ولوَدَّ أن بينه وبينه أمداً بعيداً .

وأُسعد الناس - في النص الثالث - بهذه الدنيا التارك للتنافس عليها من أجلها ، والإيغال فيها إغراقاً في شهواتها ، تفرّغا من هذا الموقّق الرشيد لما هو الأصل في دورة الحياة والهدف منها من التخرج إنساناً قد اكتمل نضجه عقلاً وروحاً ونفساً ، وانطلقت إرادته على طريق الخير والهدى والنور ، والتقى الله العظيم الجليل بعقله وروحه وقلبه ، فارتفع قدراً ، واطمأن نفساً ، وطاب حياة ومنقلباً ، ولم يعرف القلق والاضطراب والخوف على المصير ، والعقد إليه سبيلاً ، ولا الشعور بالإحباط والفشل وخيبة الأمل إلى نفسه منفذاً . وكيف يأسى ، أو يذبل أملاً ويفتر في نفسه الرجاء من وجد الله وحماه ومدده وهُداه؟! ماذا وجد من فقدك؟! وماذا فقد من وجدك؟ وهل يفقد من وجد الله غنى أو عزّة أو أماناً واطمئناناً وسكينة ، أو قوة ونصرة ، أو أنساً وبهجة أو أي خير حتى يقع في إحباط أو يمسه شعور بخوف أو قلق واضطراب؟ حق لمن فقد الله لرجس قلبه وندس روحه أن تحتوشه مشاعر الضعف والقلق ، وتنهار آماله ، وينهد

منه الرجاء ، ويستولي عليه تشاؤم عميق ، ويأس مقيت ، وإن وجد غنى عارضا ، وصحة عابرة ، وعزاً ظاهرياً ، وقوة موهومة ، وسنداً مما يطلب في نفسه السند .

الواجدون لله كاملاً مطلقاً لا كامل معه ، خالفاً بديعاً قادراً لا خالق من دونه ، مالكاً لا مالك سواه ، حياً قيوماً سميعاً بصيراً عليماً خبيراً رؤوفاً رحيماً شديداً جبّاراً ، لا يأتي عليه فناء ، ولا يمسه قصور ، ولا يعترى قوته وسلطانه وهن ، ولا يشوب قدرته ضعف ، وأنه الجواد الكريم الحنان المحسن الذي لا يخلف وعده ، ولا يُمْنَع رَفْده ... الواجدون لله ممن يعيشون رؤيته كذلك عقلاً وقلباً وروحاً وملء المشاعر وجنابات النفس ومنعطفاتها وجميع أقطارها وأبعادها ؛ رؤية لا تغيب ، ولا تقيم ، ويجدون أنفسهم على طريقه ، وقلوبهم مليئة بحبه ، وأرواحهم متعلقة برجائه ، وهممهم متوجهة إليه ، وخطاهم في سبيله ؛ كيف لا يكتفون ، ولا يفنون ، ويقوون ، ويثقون ، ويأمنون ، ويأنسون ، ويهنؤون ؟! هؤلاء هم السعداء في الدنيا ، السعداء في الآخرة الذين سعادتهم معهم أبداً تنبع من نور أنفسهم التي تنوّرت بنور الله ، وأشرق من عطائه حتى صارت تشعّ على الأقاليم من المكان والزمان .

أسعد الناس من لم يجتذ به التنافس على الدنيا ، على زخارفها استغناء بوعده الله الجميل ، وانشغالاً بلذة رضوانه ، ووعياً منه للوظيفة الكريمة في هذه الحياة ، بل أسعدهم من ضحّى بها جملة وتفصيلاً ، وبكل حذافيرها ، وحتى النفس والنفس الأخير منها لو بان من الدنيا أنها تخادعه يوماً ما على دينه ، وتساومه عليه بأن إما حياة بلا دين ، أو دين بلا حياة ، وموتٌ تطلعاً لما عند الله وعشيقاً للقاءه .

في حديث الثقلين

(٢)

✽ به تميز العياشي (بليكا)

هذا هو الجزء الثاني من رسالة وجهها الكاتب الكريم إلى أحد أصدقائه ضمن مراسلات وحوارات متواصلة بينهما حول حديث الثقلين ومن الذين وجب اتباعهم من الصحابة، وقد وضعها بين يدي المجلة للنشر تعميماً للفائدة، والله من وراء القصد.
«التحرير»

أخي العزيز ...

والآن أريد أن أرجع إلى الحديث المروي عند أهل البيت وشيعتهم والذي روته أمهات الكتب ومعظم أصحاب السنن ، وهو من أشهر الأحاديث : حديث الغدير المعروف بالزمان والمكان ، حيث أثناء عودة الرسول ﷺ من حجة الوداع قبل موت الرسول ﷺ بقليل ، فإذا كانت عُرِفَتْ بحجة الوداع فكلمات الرسول ﷺ كانت وصية وداع من الرسول الأكرم لأُمته ، وأن هذه الوصية تحمل أقصى درجة من



الأهمية والخطورة بالنسبة لمصير الأمة ومستقبلها ، هذه الوصية كانت بأمر من الله لرسوله الكريم وقد جاء في أسباب النزول للنيسابوري وغيره من المفسرين أن قول الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَاتِهِ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) . أنها نزلت يوم - غدير خم - وأن هذا التبليغ كان أمراً متمماً ومكماً للرسالة الإسلامية ككل ، وإلا لما قال الله في كتابه المحكم الصادق : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَاتِهِ ﴾ ، لاحظ التهديد .

ومن الممكن أن نتساءل عن ماهي هذه الأشياء التي يأمر الله عز وجل رسوله أن يبلغها والرسول على وشك النهاية من الرسالة الربانية التي مر عليها ثلاثة وعشرون عاماً . الصلاة قائمة بأحكامها الشرعية والصوم عُرف والحج فهمت مناسكه والزكاة والخمس قائمان والشهادتان إلى غير ذلك من الأحكام كالحلال والحرام . إذن ماهو هذا الجزء الذي يكمل الكل فيجعله تاماً ؟

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .
وتأتي الخطبة لتوضيح هذه المعاني فيقول رسول الله ﷺ في غدير خم :

«ألا إني أوشك أن أفارقكم وإني مسؤول وأنتم مسؤولون فهل بلغتكم فما أنتم قائلون؟ فقال من كل ناحية من القوم مُجيب يقولون : نشهد أنك عبد الله ورسوله قد بلغت وأديت الأمانة وجاهدت في سبيله حتى أتاك اليقين وصدعت بأمره وعبدته حق عبادته حتى أتاك اليقين ، جزاك الله خيراً ما جرى نبياً عن أمته ، فقال : أنستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق تؤمنون بالكتاب كله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ،

قال : فإني أشهد أني صدقتكم وصدقتموني ألا وإني فرطكم (أي سابقكم) وأنكم تبعي توشكون أن تردوا علي الحوض فأسألكم حتى تلقوني عن ثقلَي كيف خلفتموني فيهما ، فأعيل علينا ما ندرى ما الثقلان حتى قام رجل من المهاجرين قال : بأبي أنت وأمي ما الثقلان ؟ فقال رسول الله ﷺ : الأكبر منهما كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم ، فتمسكوا به لا تضلوا ، والأصغر منهما عترتي ، من استقبل قبلي وأجاب دعوتي فلا تقتلوه ولا تقهروهم ، ولا تقصروا عنهم فإني سألت لهم اللطيف الخبير فأعطاني : ناصرهما لي ناصر وخاذلهما لي خاذل ووليتهما لي ولي وعدوهما لي عدو ألا وإنها لم تهلك أمة قبلكم حتى تتدين بأهوائها، تتظاهر على نبوتها وتقتل من قام بالقسط . ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فرفعها ثم قال : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، قالها ثلاثا . وللتوسع انظر سنن الترمذي وسنن أبي داود وسنن ابن ماجه والمستدرک علی الصحیحین ومسند أحمد .

وروى الترمذي تحت عنوان ، منقب أهل البيت الحديث رقم ٣٧٨٦ سنده ، إلى جابر بن عبد الله الأنصاري : رأيت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعتة يقول : أيها الناس ! إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي ، أهل بيتي ، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما .

إن فالرسالة في غاية الأهمية ، إنها المسؤولية أمام الله عن الثقلين «كيف تخلفوني فيهما» أو الثقلين أو الثقل الأكبر هو كتاب الله ، إذ القضية قضية منهج وليست عاطفة أو شورى كما أولوها . إنها ولاية ، وهذه الولاية قد شرعت من أمر الله تعالى ورسوله ، فأقام الحجة على جميع الخلق الموجود في هذا المجمع الغفير ، تحت هذه الشمس الحارة بعد أن صلوا الصلاتين «الظهرين» ، أمرهم أن يبلغ الحاضر منهم الغائب . إنه

نبي يوشك أن يفارق الأمة ، فيوصيهم لا بالأولاد والأموال كما يفعل عامة الناس ، ولكنه يوصيهم بالحفاظ على المنهج ، وحدد لهم وسيلة الحفاظ عليه ، باتباع الثقلين : «الكتاب والعتر» ، فالذي ينصر الكتاب والعتر ناصر الرسول ، ومن خذل الكتاب والعتر خذل الرسول . إنها وصية تحدد المنهج وتحدد القيادة لهذا المنهج ، وهي قيادة أهل البيت الذين طهرهم الله في كتابه العزيز ، لأنهم هم الأقدر على فهم النص وتطبيقه .

﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾^(١) ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾^(٢) إلى آخره من الآيات التي نزلت في حقهم ﷺ . ولذلك بعث الرسول ﷺ علياً عليه السلام ليلحق أبا بكر ويأخذ منه سورة براءة ليؤديها هو وليس أبا بكر . فانظر إلى ابن كثير في تفسيره للقرآن الكريم .
عن الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بعث براءة مع أبي بكر ، فلما بلغ ذا الحليفة قال لعلي عليه السلام أن الحق به وخذ منه الآيات فإن جبرائيل أمرني ألا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني ، ولك ما روى الترمذي في التفسير .

قال عبدالله بن حنبل عن علي عليه السلام لما نزلت العشر الآيات من سورة البراءة على النبي ﷺ دعا أبا بكر فبعثه بها ليقراها على أهل مكة ، ثم دعاني فقال : ادرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ منه براءة فاذهب إلى أهل مكة فاقرأها عليهم ، فلحقته بالجحفة ، فأخذت منه الكتاب ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! نزل في شيء ؟ فقال : لا ولكن جبرائيل جاءني فقال لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل من أهلك . فاعتبروا يا أولي الأبواب .

(١) الأنبياء : ٧ .

(٢) التوبة : ١١٩ .

وباختصار كان الرسول ﷺ يحرص على إعداد الأمة لقبول أهل بيته أئمة من بعده يرجعون إليهم في معرفة حدود الله تعالى وأحكامه ولمعرفة الحلال والحرام ، فكان الرسول ﷺ يخص علياً بكثير من رعايته وعنايته ، رباه في بيته وتولى ﷺ تربيته بنفسه ، فنشأ علي رضي الله عنه على يد الرسول ﷺ منذ نعومة أظفاره ، وكان أول من آمن به وأسلم ، أنظر سيرة ابن هشام ، وخصّه من رعايته وعنايته واهتمامه ما لم يخص به أحداً من أصحابه ، وأفضل من يصف علاقة الرسول ﷺ به واهتمامه بتربيته وإعداده إماماً للمسلمين هو نفسه علي رضي الله عنه إذ يقول في خطبته المعروفة بالقاصعة : «... وقد عرفتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا ولد ويضمنني إلى صدره ويكنفني فراشه ويمسني جسده ويشمّني عرقه وكان يمضغ الشيء فليقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاعتداء به ، وكان يجاور في كل سنة بحراء ، فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجتمع في بيت واحد يومئذ في الإسلام إلا الرسول ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي وأشمّ ريح النبوة» . نهج البلاغة .

والرسول يقول : كلما صبّ عليّ جبرائيل من علم إلا صببته في صدر علي .
وأخيراً وليس آخراً ، يأتي الرسول ﷺ ليبين الحجة على الأمة بأجمعها لما قال أنس بن مالك : يا أنس ، اسكب لي وضوءاً ثم قال فصلّي ركعتين ثم قال :

«يا أنس ! أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجلين وخاتم الوصيين ، قال أنس : اللهم اجعله من الأنصار وكنتمه ، إذ جاء علي رضي الله عنه فقال ﷺ : من هذا يا أنس ! فقلت : علي ، فقام مستبشراً فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه ويمسح عرق عليّ بوجهه فقال علي :

يا رسول الله! لقد رأيتك تصنع شيئا ما صنعته من قبل، قال النبي ﷺ: وما يمنعني أنت تؤدي عني وتسمعهم صوتي وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي» .

فاعتبروا يا أولي الأبصار .

فكيف يمر المسلمون على هذا الحديث المتواتر في الكتب والسنن ؟ وماذا سنقول لأبنائنا في المستقبل القريب ؟ أما آن الأوان لنرجع إلى الله تائبين . وهل حادثة كحادثة الغدير قابلة لأي أدنى شك ؟ إنها الحجة القائمة التي تثبت أن هذا الأمر في علي عليه السلام إلى يوم الدين . وهل كان الرسول ﷺ بحاجة إلى أن يجمع المسلمين في هذا الموضع كالغدير تحت حر الشمس والحر الشديد ، فأمر بالدوحات فقممن ؟ ونادى الصلاة جامعة ، فاجتمعت الناس فقال إن الله تعالى أنزل إليّ :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ ، وقد أمرني ربي عن جبرائيل أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصي وخليفتي والإمام من بعدي ، فسألت جبرائيل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلّة المتّقين وكثرة المؤذنين لي اللّائمين على كثرة ملازمتي لعليّ وشدة إقبالي عليه ...» (١) .

هل كان الرسول في حاجة إلى هذا المشهد لولا أهميته ؟

أما حادثة النعمان الفهري فهي أيضا شهادة أتى بها التاريخ . وقرأ معي ما جاءت به السيرة الحلبيّة : لما قال الرسول ﷺ تلك المقولة في عليّ في غدير خم :

«من كنت مولاه فهذا علي مولاه .. شاع ذلك الخبر وانتشر في البلاد، وعرف الناس أن عليا عليه السلام خليفة الرسول وهو في أصحابه (أي الحارث بن النعمان الفهري) وكان من السامعين فأتى رسول الله ﷺ وهو مع

(١) رواية الحافظ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

أصحابه فقال :

يا محمد ! أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقبلناها، وأمرتنا أن نصلي خمساً في اليوم فقبلناه منك ، وأمرتنا أن نصوم شهراً فقبلناه منك ، وأمرتنا أن نزكي أموالنا فقبلناه منك وأمرتنا أن نحج البيت فقبلناه منك ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك فضلتنا علينا وقلت : من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ... الحديث . هذا شيء منك أم من الله ؟ فقال النبي ﷺ : والذي لا إله إلا هو إنه من الله . فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول :

اللهم إن كان ما قاله محمد حقاً ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم . فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله سبحانه وتعالى بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فسقط ميتاً . وأنزل الله سبحانه وتعالى قرآناً ناطقاً صادقاً فيمن كان لا يثق بقول محمد ﷺ في أمر الولاية والخلافة ، فليتنظر ما حصل لهذا الرجل ، وهذه شهادة لنا بأن علياً عليه السلام هو أمير المؤمنين ، فستبقى هذه الواقعة حجة علينا إلى يوم القيامة أمام الله ورسوله . فأنزل الله في الكتاب العزيز : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ (١) .

وعندما نتحدث مع الاخوة من أهل السنة يجيبون بأن كل هذه الأحاديث جاءت لتجسم الحب والولاء لأبناء الرسول ﷺ . أقول : إن حب آل البيت مجسم في قلب كل مؤمن لأنها كرامة من الله تعالى . يقول زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام : «أعطينا ستاً وفضلنا بسبع ، أعطينا العلم والحلم ... والمحبة في قلوب المؤمنين ...» .

(١) انظر السيرة الحلبية .

إذن لا حجة للناس بالقول في أن حديث الغدير إنما هو لتثبيت الولاء وتجسيم الحب لآل البيت . لكن افتراضهم هذا التأويل حجة عليهم فيما فعلوا بأهل البيت مباشرة بعد فقدانهم أباهم الرسول الأعظم ﷺ : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ ^(١) وقد أخرج ابن المنذر ٢٣٢ - ٣١٩ فقيهاً ومجتهداً كان شيخ الحرم بمكة ، وابن أبي حاتم ٢٤٠ - ٣٢٧ وابن مردويه حافظ مؤرخ مفسر ٣٢٣ - ٤١٠ في تفاسيرهم والطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ قالوا : يا رسول الله ! من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال : علي ، وفاطمة ، والحسن والحسين ، الحديث رواه أيضاً الهيثمي في مجمع الزوائد .

ولنترك السيدة عائشة أم المؤمنين لتجب عن هذا السؤال ، قالت : « خرج النبي غداً ، وعليه مرط مرخل من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قرأ : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . صحيح مسلم ج ٧ باب فضائل أهل البيت . فهي قد سمتهم واحداً واحداً ، وشهدت أن الرسول ﷺ أدخلهم تحت الكساء ، ثم تلا الآية التي خصهم الله بها ...

وحديث الخيمة المعروف الذي رواه الطبري .

قال أبو بكر : رأيت الرسول ﷺ خيم خيمة ، وهو متكئ على قوس عربي ، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ فقال رسول الله ﷺ :

« يا معشر المسلمين ! أنا سلم لمن سالم أهل هذه الخيمة ، وحرب لمن حاربهم ،

وولي لمن والاهم ، وعدو لمن عاداهم ، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقي الجد ، رديء المولد» . فقال رجل لزيد : يا زيد ! أنت سمعت أبا بكر يقول هذا ؟ قال أي ورب الكعبة . الطبري .

فماذا فعلوا بهم مباشرة بعد موت النبي ﷺ ؟ . لقد أغضبوا فاطمة الزهراء (عليها السلام) وضربوها ثم أسقطوا جنينها لسته أشهر وأحرقوا بيتها ... انظر ماذا فعل (...) بعد وفاة رسول الله ﷺ أمر (...) بأن يذهب مع نفر من الناس إلى بيت فاطمة الزهراء ليخرجوا الذين أبوا أن يبايعوا أبا بكر وكلهم من الصحابة العظام ، لأنهم لا زالوا يتذكرون ماذا قال الرسول في حديث الغدير . ومنهم أبو ذر والمقداد وسلمان وبلال وطلحة والزبير وسعد بن عباد الخ فكُلُّهم لم يرضوا بهذه البيعة . فقال لهم (...) : إن أبوا فقاتلوهم ، فأقبل (...) بشيء من النار على أن يضرهم الدار ، فلقيته فاطمة وقالت : إلى أين يا (...) ، أجنث لتحرق دارنا ؟ قال نعم أو تدخلون فيما دخلت فيه الأمة .

ما هذا الحكم يا (...) ؟ أنزل وحي أم ظهر نبي آخر ؟ لاحظ معي النهج الذي اتخذه (...) بهذه السرعة الغريبة : إحراق بيت فاطمة ومن فيه ، وأمر فاطمة بالدخول إلى حكمه . وهو يعلم أن غضب فاطمة يُغضب الله .

وأما النفر الذين جاء بهم المؤرخون واعتدوا على بيت فاطمة :

(...) ، خالد بن الوليد ، عبد الرحمن بن عوف ، ثابت بن قيس بن شماس ، بشير بن سعد ، زيد بن لبيد ، محمد بن مسلم ، معاوية ابن العاص ، زيد بن ثابت ، سلمة بن سلامة بن وعش ، الأسيد بن حضير ، سلمة بن أسلم ، معاذ بن جبل ، وقنفذ الملعون . قال اليعقوبي : فأتوا في جماعة حتى هجموا على الدار ، إلى قوله وكسر سيفه (أي سيف عليّ ودخلوا الدار) .

ذكر الطبري الخبر أنه -أي (...)- حصر فاطمة في الباب حتى أسقطت محسناً -الابن الثالث لفاطمة، وقد سماه الرسول في حياته كما سمي أخويه الحسن ثم الحسين .

وقال الطبري : أتى (...) منزل عليّ وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين الذين لن يرضوا بالبيعة لأبي بكر ، فخرج عليه الزبير مسلطاً سيفه، فعثر فسقط من يده فوثبوا عليه فأخذوه^(١) . ورأت فاطمة ما صنع بهما -أي عليّ عليه السلام والزبير- فقامت على باب الحجرة وقالت : يا (...) ! ما أسرع ما أغرتم على بيت أهل رسول الله ، والله لا أكلّمك حتى ألقى الله ، فهجرت (...) ، وفي الرواية قالت :
والله لأدعون عليك في كل صلاة أصليها^(٢) .

وذهبت فاطمة الزهراء ضحية هجوم عنيف لا يليق بأيّ رجل جاهل فضلاً عن فقيه صحابي يدعي أنه عادل ، ألقت جنينها فبقيت طريحة الفراش إلى أن ماتت عليه بعد ستة أشهر من وفاة أبيها عليه السلام وهي حزينة باكية ، مسلوب حقّها ، ومهانة شخصيتها ، مظلومة مكذبة لما اغتصبوا إرثها .

ولمّا توفيت دفنها زوجها عليّ عليه السلام ليلاً ولم يؤذن بها (...) أي لم يحضر جنازتها^(٣) .

ولهذا قال (...) في مرضه الذي توفي فيه : أما إني لا آسي على شيء من الدنيا إلّا على ثلاث فعلتھن ، وددت أني تركتھن إلى قوله : أما الثلاث اللاتي فعلتھن ، فوددت أني لم أكشف على بيت فاطمة عن شيء وإن

(١) تاريخ الطبري ج ٤٤٦٢ .

(٢) الإمامة والسياسة ، ابن قتبية .

(٣) البخاري ج ٥ و ج ٤ .

كانوا أعلنوا عليّ الحرب^(١).

وقال أيضاً اليعقوبي: وليتني لم أفتش بيت فاطمة بنت الرسول ﷺ وأدخله الرجال ولو أعلن علي الحرب.

وقد تطوّر الأمر أكثر من ذلك، حينما هددوا علياً ﷺ بالقتل وأخرجوه بأشدّ العنف أمام أعين الناس في شوارع المدينة، مكرهاً من بيته وذهبوا به لأبي بكر وقالوا له: بايع، فقال: إن لم أفعل فمّة.

قال (...): إذا والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك، فقال: إذن تقتلون عبد الله وأخاً للرسول.

هكذا تاريخنا وبهذه الطريقة انتهى الأمر وعليّ مظلوم ولم ينسَ أبداً وصية رسول الله ﷺ والي أشار إليها في مواقف عديدة: والله لو لا عهد من الرسول..

لقد بعدت بنا الأحداث وكدنا أن ننسى موضوع رسالتنا هذه. كنت قد قلت في حديث العترة: إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض... أي كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فهذا المعنى الذي يقتضي القيادة وإن غيبت. فإنها لا تغيب بل ستبقى حاضرة في نفسها، إذ العترة مع الكتاب ورفيقه في طريق الحق، وحاشا لكليهما من الزّيع والضلال.

رواية الترمذي عن خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع وهي رواية انفرد بها، تحمل المعنى نفسه بل النص والوصية: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي». الوارد في كتبنا الصحاح.

والذي صرّح به أخيراً رئيس الجامع الأزهر الطنطاوي برسالة إلى المؤتمر السادس لرابطة أهل البيت يصحح فيها الحديث الذي يتعلق

بالثقلين «كتاب الله وعترتي أهل بيتي». مما فسح المجال أكثر لفهم الاختلاف بين نظرية النبي ﷺ في معنى الثقلين ونظرية قريش المطروحة في السقيفة : حسبنا كتاب الله والقرآن معنا ، حين اتهموه ﷺ بالهجران .

والقرآن يقول : ﴿ ما ضلّ صاحبكم وما غوى ﴾ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى ...^(١) وبالرغم من هذه الآيات لم يخضع (...). فعارض الرسول فصرنا في الضلال بمقتضى الحديث الصحيح بسبب (...). وأما الحرص على تكرار الرسول هذه الوصية - حديث الثقلين - في موضعين متقاربين في المسافة وفي الزمن ، وفي وسط من هذه الجموع من المسلمين التي اجتمعت في حجة الوداع - مائة وعشرون ألف صحابي - والتي حضرت في غدير خم ما هو إلا تفضيل وتعظيم وتأكيّد لوصية يوم عرفة ، لما أخذ ﷺ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام ثم قال : «من كنت مولاه فهذا علي مولاه». وأما التهئة التي أتى بها جميع الصحابة والتي دام وقتها إلى أن صلّوا العشائين ما هي إلا عبرة للمسلمين وحجة عليهم ، وما حادثة النعمان الفهري إلا برهان لمن شك في ذلك .

ولنقرأ معاً ما ذكره ابن قتيبة في تاريخ الخلفاء :

«جاء (...) - (...) فقال : انطلق بنا إلى فاطمة ، فإننا قد أغضبناها ، فانطلقنا جميعاً فاستأذننا فاطمة وهي مريضة بسبب ما حصل منهما يوم البيعة ومن جرّاء الفعلة التي ارتكبها (...) بدون حياء في حضرة سيدة نساء الأمة وسيدة أهل الجنة^(٢) . وبضعة أبيها وأم سيدي شباب أهل الجنة . فلم تأذن لهما ، فأتيا علي بن أبي طالب فكلّماه ، فأدخلهما عليها ، فلما قعدا عندها ؛ حوّلت وجهها إلى الحائط فسلّما عليها فلم ترد عليهما

(١) النجم : ٢ - ٥ .

(٢) البخاري ج ٥ مناقب قرابة النبي .

السلام ، فقالت : أرايتكما إن حدّثتكما حديثاً من رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به؟ قالوا : نعم قالت : نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول :

«رضى فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحبّ فاطمة ابنتي أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة أسخطني» ، قالوا : نعم ، سمعنا رسول الله يقولها ، فقالت : فإني اشهد الله وملائكته ، أنكما أسخطتماني ، وما أرضيتماني ، وإن لقيت النبي ﷺ لأشكوكما إليه .

فقال (...) : أنا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ثم انتحب (...) يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق وهي تقول : والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها ثم خرج باكياً ، فاجتمع إليه الناس فقال لهم : يبببب كل واحد منكم معانقاً حليته مسروراً بأهله ، وتركتموني وما أنا فيه ، لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي»^(١).

وروى مسلم :

أن معاوية بن أبي سفيان قال لسعد بن أبي وقاص : ما منعك أن تسبّ أبا تراب ؟ وكان مما فعله معاوية ومن بعده من ملوك بني أمية أن طلبوا من الناس أو ألزموهم أن يسبوا علياً ويلعنوه على المنابر ، وظلت هذه السنّة حتى أبطلها عمر بن عبد العزيز . فقال : أما تذكرت ثلاثاً قالهن له الرسول ؟ لأن تكون لي واحدة منهم أحب إليّ من حُمر النعم . سمعت رسول الله ﷺ يقول له لما خلفه في بعض مغازيه - غزوة تبوك - يا رسول الله ! خلفتني في الصبيان والنساء ؟ فقال له رسول الله :

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي» .

وسمعه يقول يوم خيبر : «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فقتاولنا لها فقال : ادعوا علياً ، فأتي به أرمداً ، فبصق في عينيه ،

(١) راجع السياسة والإمامة .

ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه .»

ولما نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ... ﴾ الآية . دعا رسول الله علياً وفاطمة والحسن والحسين وقال : اللهم هؤلاء أهلي .

ومن فضائل علي أن النبي قال له : «أنت مني وأنا منك ، وقال له : من كنت مولاه فعلي مولاه . وقال أحمد بن حنبل : ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي عليه السلام .

وقال هو والنسائي والنيسابوري وغيرهم :

لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد مما جاء فيه .

وأخرج المسلم عن علي عليه السلام : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد إليّ : أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق . وقد جمع النسائي في مناقبه كتاب الخصائص . أرجوا أن تتجه إليه .

إذن أمهات الكتب طرحت هذه الشواهد والحجج التي ستبقى ما طالت الدنيا كشهادة عليهم إلى أن تلقى الله ، فكيف التزم علماؤنا وفقهاؤنا ومفكروننا بالصمت والسكوت أمام هذه الحقائق الحزينة ، ويكذبون علينا أن أمر الخلافة كان أمراً شورياً . فهل يجب علينا قراءة التاريخ مرة ثانية؟ نعم بكل تأكيد وهذا أصبح واجباً على كل مؤمن ومؤمنة .

فانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى ، وشهد المجتمع الإسلامي أحداثاً لا تساير ما ذهب إليه القائلون بالوصية ، فاحتار هؤلاء ، وتساءلوا : كيف يمكن لأوامر إلهية وتوجيهات نبوية أن تعطل في حين أخبر اللطيف الخبير عباده أنه أكمل لهم دينهم وأتم نعمته؟ وكيف يجوز للمسلمين أن يخالفوا أحاديث الإمامة ، والرسول ﷺ ما زال مسجى بين ظهرانيهم ،

وكلماته يوم الغدير ما تزال عالقة في أسماعهم ، وصداها في أذهانهم ؟ وقد أفادت الأخبار أن الرسول ﷺ أخبر أن علياً يعيش على الملة ويموت على السنة ، وأنه راية الهدى وإمام الأولياء ونور الطائعين وكلمة المتقين ، وأن الله سيخصه ببلاء لم يخص به أحداً من الصحابة ، ولما توسل الرسول ﷺ إلى ربه قائلاً : يا رب ! أخي وصاحبي ، أجابه تعالى : إن هذا شيء قد سبق أنه مبتلى ومبتلى به^(١).

فعلي عليه السلام أختاره الله تعالى للوصية والولاية ، وأختاره أيضاً ليلبوه ويلبوه به عبادته ليعلم أيهم أحسن عملاً ، وحتى يهيئ الرسول ﷺ وصيه ؛ أخبره في مواطن عديدة بما سيناله من مظالم ومشاق تجعله شبيهاً بالأنبياء والمرسلين . فأقوال الرسول في هذا الباب شبيهة بالقصص القرآني الذي أنزله الله على نبيه ليطلع به على ما تحمله المرسلون قبله لما كذبهم الكافرون والمتجبرون ، وساموهم سوء العذاب ، فتلك القصص كانت تزيد الرسول ثباتاً ومثابرة وقوة وتصميماً ، وكذلك أخبار الرسول ، كانت تقوي عزيمة وصيته ، وتدفعه إلى التمسك بالإمامة والدفاع عنها . ولقد تجلّى عزم علي عليه السلام في كثير من المواقف . تجلّى في السلم ، كما بان في الحرب . لقد كان علي عليه السلام يوماً جالساً مع أصحابه في المسجد النبوي ، فأقبل عليهم (...) وخالد بن الوليد ومعاذ بن جبل في عدد من أصحاب عمر ، وأرادوا حملهم على مبايعة أبي بكر . فتمسك كل أصحاب علي بهاديهم وإمامهم ، وأخبر سلمان الفارسي الحاضرين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : بينا أخي وابن عمي جالس في مسجدي مع نفر من أصحابه إذ تكسبه جماعة يريدون قتله وقتل من معه^(٢).

(١) الحاكم ، المستدرک ٣ : ١٤٠ - ١٤٢ . الهيثمي ، مجمع الزوائد ٩ : ١٣٧ .

(٢) الاحتجاج الطبرسي ١ : ١٠٤ .

لقد أغضب هذا الحديث (...) ومن معه ، ولكنه لم يجد ما يبرر موقفه هذا أمام عدد كثير من الصحابة ، وتجلّى ذلك يوم الاحتجاج الذي حضره أكابر الصحابة في مسجد الرسول كسلمان وعلي وغيرهم أمام (...) و (...) . وكاد الحق يومها أن ينتصر على الباطل ، لما استمع (...) إلى حجج أصحاب علي ، فقال : وليتكم ولست بخيركم أقيلوني .

ولكن (...) أنزل صاحبه من على المنبر ، وانطلق به إلى منزله ومكث معه مع من انضم إليهما ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع ، جهزوا جيشا كان أبرز قادته (...) ، وساروا نحو المسجد ، وأرادوا أن يأخذوا البيعة بقوة السيف . لقد ازداد شيعة علي عليه السلام يومها يقينا بأنهم وصاحبهم على الحق . فهم يشاهدون واقعا أخبرهم به نبيهم فلم يخافون ؟ لأنهم لا يخافون في الله لومة لائم ، وانطلاقا من هذا الموقف ، وقف خالد بن سعيد بن العاص يقول لـ (...) :

اتق الله يا (...) ! فقد علمت أن الرسول ﷺ ونحن مُحْتَشَوْه ، يوم بني قريظة حيث فتح الله له باب النصر ، وقد قتل علي بن أبي طالب يومئذ عدة من صناديد رجالهم : يا معشر المهاجرين والأنصار ! إني موصيكم بوصية فاحفظوها ، ألا إن علي بن أبي طالب أميركم بعدي ، وخليفتي فيكم ، بذلك أوصاني ربي . وقبل أن ينهي خالد بن سعيد كلامه ، ذكّر (...) بأن معاداة علي وخذلانه ، ونكران بيعته ، أمور تؤدي إلى اضطراب الدين وتسلب الأشرار على المسلمين . ولم يكن خالد بن سعيد الوحيد الذي وقف موقفا صريحا وعلنيا ، فسلمان الفارسي أخذ الكلمة بعد خالد وقال كلمته المشهورة : كرديد ونكرديد . ثم أضاف : يا (...) ! ما عذرک في تقدمك على من هو أعلم منك ، وأقرب إلى رسول الله ، وأعلم بتأويل كتاب الله ، ومن قدمه

النبي ﷺ في حياته ، وأوصاكم به بعد وفاته^(١) ؟

واستمر تداول أصحاب علي عليه السلام على الخطابة مذكرين المسلمين بالمواضع التي نصب فيها الرسول ﷺ ابن عمه إماما ، وخليفة ، وقيما على الدين ، ولما جاء دور أبي ذر الغفاري ، خاطب المسلمين عامة وقريشاً خاصة فقال :

يا معشر قریش ! أصبتم قباحة ، وتركتم قرابة . والله ليرتدن جماعة من العرب ، وليشكن في هذا الدين .

ثم ذكر أبو ذر الحاضرين بما خسروه لما بايعوا (...) ، قال لهم : إن الرسول ﷺ قال : الأمر بعدي لعلي ، ثم لإبني الحسن والحسين ، ثم للطاهرين من ذريتي .

واستمر أبو ذر يقارن بين الأمم السابقة التي لم تراع لأوصيائها ذمة فنزل بها العذاب ، وموقف المسلمين من علي بن أبي طالب . ومن خلال مقارنته تلك حذر أبو ذر من العذاب الشديد ، والخصاصة ، وتوزيع الثروة توزيعا فيه من الظلم قدر يمكن الرذيلة من الانتشار في المجتمع^(٢) .

ولم يتوقف دفاع الصحابة عن إمامة علي بن أبي طالب على ذكر أقوال الرسول ﷺ ، وتصوير المجتمع الذي يكون قائده ومُسَيِّره علي بن أبي طالب عليه السلام ، بل وصل الأمر إلى السعي لتنبية (...) ومحاولة تحريك شعوره الديني ، فقد خاطبه المقداد بن الأسود قائلاً : يا (...) ! ارجع عن ظلمك ، وتب إلى ربك ، والزم بيتك ، وابك خطيئتك ، وسلم الأمر لصاحبه الذي هو أولى به منك . ويواصل المقداد تحذيره لـ (...) ليهيء المناخ

(١) الاحتجاج ١ : ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) الإحتجاج ١ : ٩٩ - ١٠٩ .

المناسب والإطار النفساني لمطلبه المتمثل في قوله : وبادر بالاستقالة قبل فوات الأوان ، وسلّم الأمر لعلي بن أبي طالب حتى يخف وزرك .

لقط كان كثير من الصحابة يسمعون النصائح واللوم والتحذير ، وهي موجهة لـ (...) ، وكان أغلبهم يتمنى أن تؤثر على (...) وتحمله على التخلي عن الإمامة ، حتى ينصب عليها علي بن أبي طالب ، فتعود بذلك الوصية إلى أصحابها ، ولكن آمالهم كانت تذهب أدراج الرياح ، فهذا بريدة يشاهد أن النصائح لم تنفع ، فيسترجع إلى ربه ، ويتأسف على هذا الباطل ، ثم يسأل (...) : يا (...) ! أنسيت أم تناسيت ، خُذت أم خُذت نفسك ، أم سولت لك الأباطيل ؟ ألم تذكر ما أمرنا به رسول الله ﷺ من تسمية علي بن أبي طالب بإمرة المؤمنين والنبي بين أظهرنا وقوله في عدة أوقات : هذا علي أمير المؤمنين وقاتل القاسطين .

ولما بين بريدة وذكر قريشا والمسلمين أن أهل بيت الرسول أولى وأحق بإرثه ، وهم إلى جانب ذلك أقوم بأمور الدين ، وحفظ الملة ؛ ظن عمار بن ياسر أن كلامه قد أخذ من قلوب المسلمين مأخذه ، طالبهم بأن يأمرُوا (...) بالتنحي عن مركز ما كان له أن يحتله ، حتى يرد الحق إلى أهله ، فلا يضطرب حبل المسلمين ، ولا يضعف أمرهم ولا يظهر شتاتهم ، ولا تعظم الفتنة فيهم ، فتكون الفرقة مآلهم ، فيطمع فيهم عدوهم ويغضب عليهم ربهم وينالهم ما نال الأمم السابقة عندما عصوا أنبياءهم في أمر أوصيائهم .

لقد أراد (...) أكثر من مرة أن يتنازل عن الخلافة وأن يعيدها إلى أصحابها ، ولكن كان يتراجع عن عزمه هذا نتيجة ضغوط خارجة عن إرادته . فـ (...) قد سعى بكل الوسائل إلى إبعاد علي عليه السلام عن مركز الخلافة

فكان يقيم مع (...) الأيام الطوال حتى يثنيه عن عزمه كلما قرّر التخلي عن منصبه لعلي، ولم يكتف (...) بالتأثير على (...)؛ بل شجّع خالد بن الوليد ومن معه على محاصرة منزل علي عليه السلام حتى يأخذوا البيعة لأبي بكر من المجتمعين فيه. كما صرح لكثير من الصحابة أنه لن يترك ابن أبي طالب يصل إلى الخلافة. فقد قال (...) مرة لابن العباس: هل بقي في نفس علي شيء من أمر الخلافة؟ أيزعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله نصّ عليه؟ فلما أجيب بأنه ما زال يعتقد بأن الرسول صلى الله عليه وآله نصّ عليه، وأن العباس أكد ذلك. قال (...): كان رسول الله في أمره ذروا - مدح زائد - من قول لا يثبت حجة ولا يقطع عذرا، ولقد كان يربع - يمتحن - في أمره وقتا ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعته^(١).

وبهذا الخبر وبأمثاله ناضل أهل بيت الرسول وشيعة علي عليه السلام حتى يؤكدوا أن جحود قسم من الصحابة الوصية كان متعمدا هادفا ومخططا له منذ حياة الرسول صلى الله عليه وآله.

ولقد كان هذا الصنف من الصحابة يقيمون الأفراح كلما انتصروا على الصادقين الذين عاهدوا الله ورسوله ووصيه على تنفيذ أمر الوصية، كما كانوا يتقبلون التهاني حتى من أعداء الدين كلما حقّقوا هدفا من أهدافهم.

ثم إن الإمام عليا عليه السلام لم يسكت عن هذا الأمر، فقد كان يوجّه كثيرا من الأسئلة إلى الصحابة، كلما اجتمع بهم أو ضمّه وإياهم مجلس، فكان يناشدهم أن يشهدوا بما سمعوا يوم الغدير والمباهلة والتطهير، وفي تبوك وخيبر، وغيرها من المناسبات، وكان أغلب الصحابة يستحيون

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢: ٩٧، المراجعات: ٢٧٨.

لطلبه ، وينبهون إلى فضله ويروون ما سمعوا من الرسول ﷺ حول إمامته . ومن كان يجحد ذلك منهم ، فإن العذاب يحل به . فقد روي أن عليا اجتمع مرة بأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وأنس بن مالك وغيرهم من الصحابة وطلب من الحاضرين الذين سمعوا حديث الغدير أن يقوموا ، فوقفوا كلهم إلا أنس بن مالك الذي اعتذر بالكبر والسهو . فدعا علي عليه السلام ربه قائلاً : اللهم إن كان كاذباً فاضربه ببلاء حسن ، فاستجاب الرب لدعائه وظهرت بين عيني أنس نكتة بيضاء لا توارىها العمامة^(١) . ولم يكن أنس الوحيد الذي أصيب بعقاب سماوي نتيجة جحوده حديث الغدير . فزيد ابن الأرقم قد ذهب بصره لأنه كتم أخبار الوصية^(٢) .

وقبل النهاية من هذه الرسالة أود أن اعطي بعض الشواهد في حضرة أئمتنا الأبرار عليه السلام الأئمة الإثني عشر . عليّ والحسن والحسين والتسعة من أبناء الحسين فتمة تسعة آخرون مطهرون سماهم الله لرسوله ليلة الإسراء والمعراج ..

وإليك أبا سليمان راعي الرسول يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لية أسري بي إلى السماء ، قال لي الجليل جلّ جلاله : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ فقلت والمؤمنون . قال صدقت يا محمد ! إني أطلعت على أهل الأرض اطلاعة فاخترتك منهم ، فشقت لك اسماً من أسمائي ، فلا أذكر في موضع إلا ذكرت معي ، فأنا المحمود وأنت محمد .

ثم اطلعت الثانية ، فاخترت علياً ، فسميته باسمي . يا محمد ، خلقتك و خلقت علياً وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين من نوري ، وعرضت ولايتكم على أهل السماوات والأرض ، فمن قبلها كان عندي من المؤمنين ، ومن جحدها كان عندي من

(١) أبو نعيم ، حلية الأولياء : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) الاحتجاج : ١ : ٩٧ .

الكافرين .

يا محمد ! إن عبدا من عبيدي عبدني حتى ينقطع ، أو يصير كالشن البالي ، ثم جاءني جاحدا لولايتكم ، ما غفرت له .

يا محمد ! أتحب أن تراهم ؟؟ .

قلت : نعم يا رب !!

قال : فانظر إلى يمين العرش ، فنظرت ، فإذا علي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، وعلي بن الحسين ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وموسى بن جعفر ، وعلي بن موسى ، ومحمد بن علي ، وعلي بن محمد ، والحسن بن علي ، ومحمد المهدي بن الحسن ، كأنه كوكب دري بينهم .

وقال : يا محمد ! هؤلاء خُجتي على عبادي وهم أوصياؤك ... الحديث (١) .

وها أنا قد وصلت إلى نهاية هذه الرحلة ، ومن هذا المجلس الذي أعطانا الفرصة لقراءة بعض صفحات التاريخ لإلقاء الضوء على الحديثين المرويين عن الرسول وما فيهما من شُبّهات . فالبحت استغرق عدة شهور أمنيّتي ورجائي في الله أن يوفقني في عملي هذا إلى ما يحبه ويرضاه ويلهمنا رشدنا ، ويرفع مقته وغضبه عنا ، ويفرّج كربتنا بحضور الحجة المنتظر ، ويعجل لنا ظهوره . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أزكى الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطاهرين .

المذنب الذي لا يرجو إلا رحمة الله وشفاعة رسوله وأهل بيته الطاهرين العياشي ، بروكسيل ٢٤ ربيع الأول ١٤٢١

(١) راجع الشيخ سليمان القندوزي (حنفي المذهب) : ينباع المودة ج ٢ .

الشريف المعتمد عبد العظيم الحسيني عليه السلام

(١)

✽ عز الدين سليم (العراق)

مدخل :

لا يكاد المتتبع لأحاديث أهل بيت النبي ﷺ ورواياتهم أن يقرأ كتاباً من الكتب الجامعة لتلك الأحاديث الشريفة إلا ويجد إسم المحدث الشريف أبي القاسم عبد العظيم العلوي الحسيني عليه السلام متألّقاً بين رواة أحاديث أهل البيت عليه السلام ، وفي مختلف أبواب الحديث ومضامينه . فإنك تجد الشريف أبا القاسم عبد العظيم عليه السلام مرة يحمل إليك الأحاديث الصحيحة في التوحيد ومرة في الأخلاق والفضائل ، ومرة في الفرائض والسنن ، ومرة في تفسير القرآن الكريم وكشف أسرارهِ ، ومرة في الآداب والمعرفة . الأمر الذي يكشف لك عن محدث عملاق يغور في بحر الحقائق ،

ويجود على أجيال المؤمنين بمصاييح الهداية التي يرثها عن آبائه الهداة المهيدين عليه السلام .

ولم يكن الشريف أبو القاسم محدثاً ، وراويّاً ، موثقاً فحسب وإنما كان من ذوي المواقع المتقدمة عند الأئمة من آل رسول الله ﷺ ، ومن حملة علومهم وأسرارهم في مرحلة سياسية من أسوأ المراحل في تاريخ المسلمين وأئمة الحق : حيث الإقامة الجبرية التي فرضت في الغالب على الأئمة خصوصاً الإمام محمد بن علي الجواد ، والإمام علي ابن محمد الهادي ، والإمام الحسن بن علي ، عليهم آلاف التحية والسلام ، والأولان هم اللذان عاصرهما وروى عنهما مباشرة .

وبين يدي القارئ الكريم محاولة متواضعة لدراسة سيرة هذا العالم العلوي الكبير اعتماداً على ما - حفظته لنا كتب الرجال والحديث - وهو قليل طبعاً .

حيث سنتناول ما تيسر لنا الوصول إليه من سيرته العلمية المباركة .

الهوية الشخصية وشيء من السيرة :

لم يحفظ التاريخ وكتب السيرة وكتب الرجال إلا الشيء اليسير عن حياة الشريف الثقة المعتمد عند الأئمة من آل البيت عليه السلام أبي القاسم عبد العظيم الحسيني رضوان الله تعالى عليه وأرضاه ، ولكن هذا الشيء القليل يجهر بعظمة هذا العالم العلوي البصير ومكانته عند الهداة من أئمة أهل البيت عليه السلام كما سيتضح ذلك في ثنايا هذا البحث المتواضع .

فمن هو الشريف أبو القاسم عبد العظيم الحسيني ؟

تجمع كتب الرجال على أن عبد العظيم غصن من أغصان الدوحة

النبوية ، وفرع من هذه الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ...

فهو : عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(١) عليهم آلاف التحية والسلام . ويكنى بأبي القاسم .
يروى الشيخ عباس القمي^(٢) في سفينة البحار : أن زوجته كانت خديجة بنت القسم الزاهد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن أمير المؤمنين^(٣) ، وقد ذكر غيره أن زوجته فاطمة بنت عقبة بن قيس الجميري^(٤) وكان له ولد اسمه (محمد) كان معروفاً بالزهد وكثرة العبادة ، وكان جليل القدر عالماً^(٥) .

هذا وتشير بعض المصادر الرجالية والتاريخية أن السيد محمد هذا ، هو صاحب القبر المشهور في قصبة (بلد) القرية من مدينة بغداد على نهر دجلة ، وليس كما يظن أنه قبر الشريف السيد محمد بن الإمام أبي الحسن علي الهادي^(٦) .

فإن هذه المصادر تشير إلى أن السيد محمد بن الشريف عبد العظيم الحسيني انتقل من الري إلى سامراء ، وتوفي في أراضي بلد والدجيل^(٧) ، وقد نقل ذلك الشيخ عباس القمي^(٨) في منتهى الآمال عن الشيخ فتح الله الأصفهاني المعروف بشيخ الشريعة^(٩) .

وهذا الرأي انفرد به الشيخ عباس القمي دون غيره ، إذ المعروف لدى

(١) رجال النجاشي ط ٥ ، ١٤١٦ هـ ص ٢٤٧ ، وتنقيح المقال : الشيخ عبد الله المامقاني ، وغيرهما ، ١ منتقلة الطالبية : ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) منتقلة الطالبية : ١٥٦ - ١٥٧ ، الشريف النسابة أبو اسماعيل إبراهيم بن ناصر بن طباطبا من أعلام القرن الخامس الهجري ط النجف ١٩٦٨ م .

(٣) سفينة البحار ٢ : ١٢٠ - ١٢١ ط حجرية قديمة .

(٤) انظر كتاب مشاهد العترة الطاهرة وأعيان الصحابة والتابعين : للسيد عبدالرزاق كمونة الحسيني : ٥٧ - ٥٨ مطبعة الآداب النجف الأشرف ١٩٦٨ م .

النسابة وأصحاب السيرة أن صاحب القبر المشهور في (بلد) هو قبر السيد محمد بن الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام لا غيره ، كما أن عبد العظيم أعقب ابنتين : رقية وخديجة ^(١) .

وقد كان الشريف عبد العظيم الحسني عليه السلام معاصراً للإمامين الهمامين أبي جعفر محمد بن علي بن موسى (الجواد) ، وولده علي الهادي عليه السلام ، كما عاصر جماعة من خيرة أصحاب الإمام موسى بن جعفر وولده علي بن موسى الرضا عليه السلام .

وفوق هذا وذاك كان الشريف عبد العظيم عليه السلام موضع ثقة الأئمة الذين عاصروهم ، ومحط آمالهم وحامل أسرارهم وعلومهم .

روى المحدث أبو تراب الروياني - وكان معاصراً لعبد العظيم - قال : سمعت أبا حماد الرازي يقول : دخلت على علي بن محمد - الهادي عليه السلام - بسرّ من رأى ، فسألته عن أشياء من الحلال والحرام ، فأجابني فيها ، فلمّا ودعته ، قال لي : يا أبا حماد إذا أشكل عليك شيء من أمر دينك بناحيته ، فسل عنه عبد العظيم بن عبد الله الحسني ، وقرأه عني السلام ^(٢) .

وهذا الحديث وأمثاله مما يروى في المكانة العلمية لعبد العظيم الحسني عليه السلام لا يدل على جلاله الرجل وموثوقيته ومكانته عند الأئمة عليهم السلام ، ومستوى علمه ، واحاطته بعلوم أهل البيت عليهم السلام فحسب ، وإنما يدل - فيما يدل عليه أيضاً - أن بلاد الري وأقليم فارس عموماً وخراسان الكبرى يومذاك يتصدى عبد العظيم - بتعيين من الأئمة عليهم السلام وتكليف منهم - لإدارة شؤون أتباع أهل البيت عليهم السلام فيها بطريقة سرّية منظمة ، خصوصاً في الأمور الثقافية والتوجيه ، وإرساء قواعد الحق ، وتنظيم أمور أتباع

(١) منتقلة الطالبية : ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) خاتمة مستدرک الوسائل : الميرزا حسن النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ) ٤ : ٤٠٦ .

أهل البيت عليهم السلام ، وصيانتهم من الذوبان .

وكان يتخذ من مدينة ري (جنوب طهران الحالية) مقراً لعمله ، وكان يسكن في منزل تحت الأرض تحت دار لأحد الشيعة في مدينة ري على مقربة من قبر الإمام حمزة بن موسى بن جعفر عليهم السلام توكياً لعيون أجهزة السلطة المحلية لحكومة الدولة العباسية ، التي كانت تبحث عنه ، وتلاحقه ^(١).

ومن أجل ذلك كان أبو القاسم عبد العظيم قد أخفى اسمه ولقبه ، طوال وجوده في مدينة ري ولم يطلع إلا نفر من خواص الشيعة على اسمه ، حتى إذا اقترب أجله كتب رقعة باسمه الشريف ونسبه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ووضعها في قميصه حيث عثروا عليها بعد موته وفيها ما يلي : «أنا أبو القاسم : عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب» ^(٢).

مكانته العلمية وموقعه الديني :

لقد كان اتخاذ الأئمة من آل البيت عليهم السلام لأبي القاسم عبد العظيم الحسيني عليه السلام أحد قنوات المعرفة الربانية وإرشادهم الناس في الجناح الشرقي من البلاد الإسلامية إلى اعتماده مرجعاً فكرياً ومنهلاً للمعرفة وعلوم أهل البيت عليهم السلام حجة واضحة على المكانة العلمية التي يتمتع بها هذا العالم العلوي المبارك ، بقدر ما هو دليل على سمو أخلاقه ، وسلامة دينه وخطه ، ودرجة موثوقيته العالية جداً الأمر الذي أهله لاحتلال هذا الموقع العظيم في اعتماد أحاديثه وأقواله التي رواها عن مصادر المعرفة

(١) انظر رجال النجاشي : ٢٤٨ .

(٢) النجاشي : ٢٤٨ وغيره .

في أمة محمد رسول الله ﷺ .

وهذه بعض النصوص التي تؤكد مكانته العلمية وعلو شأنه في الاستقامة ، وسلامة الخط على منهاج رسول الله ﷺ وأهل البيت الطاهرين ﷺ .

فقد نقلنا عن الإمام أبي الحسن علي الهادي ﷺ قوله لأبي حماد : «إذا أشكل عليك شيء من أمر دينك بناحيته ، فسل عنه عبد العظيم بن عبد الله الحسني ...» (١) .

وهذا الحديث الوارد عن المعصوم ﷺ دليل على المكانة العلمية والدرجة الموثوقة ، وعلو الشأن التي يمتاز بها الشريف عبد العظيم الحسني ﷺ .

ومما نستلهمه عن مكانة هذا العالم العلوي المقدسة ما ورد عن الإمام أبي الحسن علي الهادي ﷺ حول زيارة قبر أبي القاسم عبد العظيم الحسني ﷺ في مدينة ري .

روى الشيخ الصدوق في ثواب الأعمال بسند مرسل : أن رجلاً من أهل الري دخل على الإمام أبي الحسن الهادي ﷺ ، فقال الإمام ﷺ أين كنت قال : زرت الحسين ﷺ .

قال : الإمام : أما إنك لو زرت قبر عبد العظيم عندكم لكنت كمن زار قبر الحسين صلوات الله عليه (٢) .

وهذا النص الشريف كما يدل على المكانة الرفيعة التي يحتلها الشريف عبد العظيم الحسني هدياً ، وسمتاً وعلماً ، فإنه يدل كذلك على أن الشريف أبا القاسم ﷺ كان قد توفي في زمن الإمام أبي الحسن علي

(١) خاتمة مستدرک الوسائل ٤ : ٤٠٦ .

(٢) نقل الحديث الشيخ النوري في خاتمة المستدرک ٤ : ٤٠٥ الفائدة الخامسة ، ورواه المامقاني في تنقيح المقال : ١٥٧ عن الشيخ الصدوق ، ورواه الخونساري في روضات الجنات ٢ : ٢١١ .

الهادي عليه السلام .

وقد شكك المرحوم السيد أبو القاسم الخوئي في صحة الرواية قائلاً
بمجهولية الراوي عن المعصوم عليه السلام ففسد الرواية ورد هكذا .

روى الشيخ الصدوق عن علي بن أحمد عن حمزة بن القاسم العلوي
عن محمد بن يحيى العطار عن دخل علي أبي الحسن علي بن محمد
الهادي عليه السلام من أهل ري ، فمن هذا الذي دخل علي الإمام عليه السلام وروى عنه ؟
كما أن السيد الخوئي قد اعتمد على الرأي القائل أن عبد العظيم كان قد
توفي في عهد الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام ، وهو رأي للشيخ
أبي جعفر الطوسي ورد في بعض نسخ رجاله دون أخرى حيث اعتبر
الشريف أبا القاسم عبد العظيم عليه السلام من أصحاب الإمام أبي محمد
العسكري^(١) صلوات الله عليه فاعتمده السيد الخوئي عليه السلام رغم أن الشيخ
الطوسي عليه السلام قد ذكره على رأس أصحاب الإمام الهادي عليه السلام^(٢) أيضاً .

على أن السيد محمد صادق آل بحر العلوم في تعليقه على ذكر
الشريف عبد العظيم عليه السلام ضمن أصحاب الإمام العسكري عليه السلام في رجال
الطوسي اعتمد على رواية ثواب الأعمال للشيخ الصدوق عليه السلام التي تشير
إلى أن الشريف أبا القاسم لم يكن حياً في زمان أبي محمد الإمام
العسكري عليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرنا تلك الرواية فيما مضى .

وفي عقيدتي أن هذا التوجيه الصادر من الإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام
بشأن زيارة قبر الشريف أبي القاسم - لو افترضنا صحته - كان توجيهاً
حكيماً ، خصوصاً وأن الشريف كان قد توفي في عهد المتوكل العباسي
الذي وضع أشد القيود على زيارة الإمام الحسين عليه السلام كما سنرى ، ومحا

(١) رجال الطوسي : ٤٣٣ ، انظر الهامش ، ومعجم رجال الخوئي ١٠ : ٤٨ .

(٢) نفس المصدر السابق : ٤١٧ .

قبره الشريف ووضع المفارز العسكرية لإلقاء القبض على كل من يزوره ومعاقبته بأشد ألوان العقوبات ، فأراد الإمام (عليه السلام) أن يحفظ أتباعه بهذا التوجيه ، وإلا فزيارة الحسين (عليه السلام) لا تعدلها زيارة الشريف أبي القاسم (عليه السلام) لاختلافهما في المقامين والمكانة وإن كانت زيارة هذا العالم العلوي المعظم لها شرف عظيم .

ويعضد تلك الرواية السابقة ما ورد أيضاً عن الإمام أبي الحسن علي الهادي (عليه السلام) حول زيارة قبر أبي القاسم عبد العظيم (عليه السلام) وما فيها من الثواب: «من زار قبره وجبت له على الله الجنة»^(١) . وهي ترمي إلى نفس الهدف الذي أشرنا إليه .

هذا وقد توهم الشهيد الثاني (عليه السلام) حين نسب هذا الحديث إلى الإمام علي ابن موسى الرضا صلوات الله عليه ، ويعتقد الشيخ عبد الله المامقاني (عليه السلام) أن سبب توهم الشهيد الثاني يعود إلى أن الراوي ذكر : أن القائل هو أبو الحسن (عليه السلام)^(٢) فاعتقد الشهيد (عليه السلام) أن أبا الحسن هو الإمام الرضا (عليه السلام) ، علماً بأن الإمام علي الهادي يشترك مع جده الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) بكنية أبي الحسن .

هذا ومن الجدير ذكره من أن جلّ علماء الرجال يقطعون أن الشريف أبا القاسم الحسن (عليه السلام) كان من أصحاب الإمام محمد بن علي الجواد وولده الإمام علي بن محمد الهادي - صلوات الله عليهما - دون غيرهما^(٣) . على أن بعض الآثار تفيد أن الشريف الحسن قد شهد الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) وسمع منه ، كما تفيد رواية الشيخ المفيد في كتابه

(١) تنقيح المقال : ١٥٧ ، وروضات الجنات ٤ : ٢١٠ .

(٢) تنقيح المقال : ١٥٧ .

(٣) انظر خاتمة المستدرک القائدة الخامسة ، شرح مشيخة من لا يحضره الفقيه : ٤٠٤ وتنقيح المقال : ١٥٧ وروضات الجنات ٤ : ٢٠٧ .

الاختصاص - وهذه هي الرواية «وروي عن عبد العظيم ، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام : قال : يا عبد العظيم أبلغ عني أوليائي السلام وقل لهم أن لا يجعلوا للشيطان على أنفسهم سبيلاً ، ومرهم بالصدق في الحديث وأداء الأمانة ، ومرهم بالسكوت وترك الجدل فيما لا يعينهم وإقبال بعضهم على بعض والمزاورة فإن ذلك قربة إلي ، ولا يشغلوا أنفسهم بتمزيق بعضهم بعضاً فإنني آليت على نفسي أنه من فعل ذلك وأسخط ولياً من أوليائي ، دعوت الله ليعذبه في الدنيا أشد العذاب وكان في الآخرة من الخاسرين وعرفهم أن الله قد غفر لمحسنهم وتجاوز عن مسيئتهم إلا من أشرك به أو أذى ولياً من أوليائي ، أو أضمر له سوءاً فإن الله لا يغفر له حتى يرجع عنه فإن رجع وإلا نزع روح الإيمان عن قلبه وخرج عن ولايتي ، ولم يكن له نصيب في ولايتنا ، وأعوذ بالله من ذلك» (١).

وقد أوضحنا أن سلسلة الرواة المنتهية إلى الإمام الرضا عليه السلام لا تفيد القطع أن الشريف قد عاصر الإمام الرضا عليه السلام لأن كنية الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام كانت أبا الحسن عليه السلام فلعل الراوي توهم من أن أبا الحسن المنتهية إليه الرواية ، كان الإمام الرضا عليه السلام كما استفدنا من رؤية الشيخ عبد الله المامقاني فيما سبق .

وقد روي عن الإمام أبي الحسن علي بن محمد الهادي عليه السلام حول مكانة عبد العظيم الحسني عليه السلام ما يلي : «أنت ولينا حقاً» (٢).

وبناء على هذه الشهادة الناطقة بالحق ندرك السر الذي جعل الأئمة من آل محمد عليهم السلام الذين عاصروهم أبو القاسم عبد العظيم عليه السلام يتخذون منه ترجماناً للهدى الذي يحملونه ، ووكيلاً رسمياً لهم وقناة من قنواتهم لنشر الحق في أمة محمد عليه السلام بل كان معتمدهم في شرق الأقاليم

(١) الاختصاص : ٢٤٧ ، ورواه البحار ١٦ : ٦٣ .

(٢) رويزات الجنات ٤ : ٢٠٩ .

الإسلامية .

ومن أجل ذلك نجد أن الإمام الهادي عليه السلام يدعو أتباعه في الإقليم الشرقي من بلاد المسلمين ألا يتجشموا عناء السفر للقاء الإمام عليه السلام من أجل التعرف على مفاهيم الإسلام وقيمه ونظراته في الأمور ، طالما عندهم الشريف المعتمد أبو القاسم عبد العظيم الحسني عليه السلام - كما مرّ في توجيه الإمام أبي الحسن عليه السلام إلى أبي حماد - .

جلالته وشخصيته الدينية :

أما جلالة عبد العظيم عليه السلام ، وسموّ أخلاقه المصاغة في ضوء تعاليم الهدى ، فتعكسها الكلمات الآتية : يقول النجاشي في رجاله ما يلي : « كان عبد العظيم ورد الري هارباً من السلطان ، وسكن سرّباً من دار رجل من الشيعة ، في سكة الموالي ، وكان يعبد الله في ذلك السرب ، ويصوم نهاره ، ويقوم ليله ... » (١) .

ويقول صاحب بن عباد عليه السلام في رسالة له في صفة الشريف أبي القاسم عليه السلام ما يلي : « ذو ورع ، ودين ، عابد معروف بالأمانة ، وصدق اللهجة ، عالم بأمور الدين ، قائل بالتوحيد والعدل ، كثير الحديث والرواية ... » (٢) .

إن كلمات الأئمة من آل النبي صلى الله عليه وآله الواسفة لمكانة أبي القاسم عليه السلام عندهم كاعتباره وليهم حقاً (٣) ، وإرجاعهم المؤمنين في الإقليم الشرقي إليه ، وربطهم به من أجل معرفة الهدى والحق (٤) ، والمنهاج السوي إنما

(١) رجال النجاشي : ٢٤٨ بإسناده ، والسرب : بيت تحت الأرض وحفير تحت الأرض .

(٢) خاتمة مستدرک الوسائل ٤ : ٤٠٤ ، وروضات الجنات ٤ : ٢٠٨ .

(٣) كمخاطبة الإمام علي الهادي عليه السلام له ، راجع روضات الجنات ٤ : ٤٠٩ مصدر سابق .

(٤) توجيه الإمام الهادي عليه السلام لحماة بشأن الرجوع للشريف الحسني راجع المستدرک ٤ : ٤٠٦ .

هي شهادات لا ترد على المكانة المرموقة التي يحتلها هذا العبد الصالح في حركة الهدى ومسيرة الأبرار التي يقودها آل محمد ﷺ .

الوضع الثقافي الذي عاشه الشريف الحسني ﷺ :

بسبب إهمال التاريخ لسنة ولادة الشريف عبد العظيم الحسني ﷺ وسنة وفاته فإن بمقدورنا أن نتصور أن الفترة التي عاشها الشريف أبو القاسم ﷺ كانت بين أواخر حياة الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا ﷺ (توفي عام ٢٠٣ هجرية) وأواخر حياة حفيده أبي الحسن علي ابن محمد بن علي الهادي (العسكري) عليهم جميعاً آلاف التحية والسلام (توفي عام ٢٥٤ هجرية) ، بناء على أن كتب الرجال والآثار تؤكد أن الشريف أبا القاسم الحسني ﷺ كان من معاصري الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن موسى الجواد ﷺ وولده علي بن محمد الهادي ﷺ ، ومن مبرزي تلاميذهما وحوارييهما .

وهذه الفترة من أهم الفترات على المستوى الحضاري والفكري بالنسبة لمسيرة الإسلام والمسلمين العامة وأعظمها وأكثرها دقة بالنسبة لمدرسة أهل البيت ﷺ إذ تشكل هذه المرحلة وبعدها بقليل أهم فترة على مستوى وضوح الأهداف والمبادئ ومنهاج المسيرة حيث شخصت كافة معالم مدرسة آل محمد ﷺ ، رغم قسوة الظروف والأيام ، ثم جرت عملية الغيبة لإمام الهدى من آل البيت ﷺ الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن بن علي ﷺ التي بدأت عام ٢٦٠ من الهجرة بعد وفاة أبيه أبي محمد العسكري ﷺ وما جرى حولها من شجون وشؤون .

وعلى مستوى الثقافة الرسمية «مدرسة الخلفاء والحكام» تبلورت شخصية هذه المدرسة فكرياً أيضاً ، وعاش في هذه المرحلة أهم

محدثيها وفقهائها الذين صاغوا معالم تلك المدرسة وبلوروا خطها الفكري من خلال مؤلفاتهم ، وتلامذتهم ودونت في هذه الفترة أهم المجامع الحديثية التي تشكّل الأساس الفكري والثقافي لخط الخلفاء والحالة الرسمية التي بدأت منذ يوم السقيفة ، واعتلاء الصحابي القرشي أبي بكر لمنصة الحكم بعد النبي ﷺ .

ففي هذه الفترة عاش إمام الحديث عند أهل السنة أبو عبد الله محمد ابن اسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هجرية) وظهر كتابه (الجامع الصحيح) ، كما عاش مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هجرية) وألف صحيحه ، ومسلم قد لازم البخاري وأخذ عنه عند لقائه إياه في نيسابور .

وفي هذه المرحلة عاش المحدث الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥ هجرية) كما عاش الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩ هجرية) ، وكان قد أخذ من البخاري وله به علاقة خاصة .

وفي هذه الحقبة التاريخية الحساسة عاش الحافظ أبو عبد الله محمد ابن يزيد بن ماجة القزويني (٢٠٦ - ٢٧٣ هجرية) ، كما عاش في هذه الفترة الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٢٢٥ - ٣٠٣ هجرية) ، وكان قد أخذ عن أبي داود .

وهؤلاء من أبرز أئمة الحديث والرواية عند أهل السنة عليهم مدار الأحكام والفرائض والسنن عندهم .

أقول : في هذه الأجواء الفكرية المميّزة عاش الشريف أبو القاسم عبد العظيم الحسني عليه السلام ، واحتل أهم المواقع في ترويض مبادئ مدرسة آل

النبي ﷺ ، والدعوة لمنهج أهل البيت ﷺ وكان من أركان هذه المدرسة ، وهذا المنهج الرباني الأصيل .

وقبل البدء بمهمته عملياً ، أجرى لنفسه اختباراً أمام الإمام ﷺ حيث عرض دينه ومذهبه الحق على الإمام أبي الحسن علي بن محمد الهادي ﷺ ، وهذا ما يسمى في أحاديثنا بحديث «عرض الدين»^(١) .

إن من المؤسف حقاً أن يجهل التاريخ سيرة هذا العالم العلوي العملاق ، ويخفي الكثير من معالم حياته ، وحركته ، وجهاده ، فلم يبق منها إلا النزر اليسير جداً .

فلم يعكس لنا التاريخ مثلاً كيفية تلقيه للمعرفة ، وكم من السنين رافق الإمام أبا جعفر محمد بن علي الجواد ﷺ أو ولده الهادي ﷺ ، وكيف تعلّم عندهما ، وهل رافق الإمامين ﷺ في المدينة المنورة أو في بغداد وسامراء مثلاً ؟ .

وهل كان له كتاب في الحديث والرواية أم أن أحاديثه التي رواها عنه المحدثون في شتّى فنون المعرفة كان يلقيها شفاهاً من يتق بهم من العلماء والرواة ؟ .

هذه وغيرها من الأسئلة الحائرة التي لم تجد لها جواباً إلا في التاريخ ، ولا في كتب الرجال والحديث .

إن كثيراً من جوانب هذه الشخصية العلمية المعتمدة عند أهل البيت ﷺ لم تسلط عليها الأضواء بسبب ظلم التاريخ الذي كانت صفحاته تدونها أقلام ذات صلة بالسلطين وحكام الجور ، علاوة على حالة الكتمان والمطاردة التي عاشها الشريف ﷺ .

(١) التوحيد : الشيخ الصدوق : ٨١ - ٨٢ باب التوحيد ونفي التشبيه حديث ٣٧ .

إننا حين نتصفح كتب الأحاديث والتفسير والمواعظ والسنن والأحكام ، والفرائض نجد اسم الشريف أبي القاسم الحسنی عليه السلام متألّفاً في جميع هذه الحقول ، حيث يروي عشرات الأحاديث في المجالات الثقافية المختلفة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مباشرة أو بالوساطة .

فالوثائق القليلة المتوفرة لدينا ؛ تؤكد أن الشريف أبا القاسم عليه السلام كان يروي مباشرة عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام وولده الإمام أبي الحسن علي بن محمد بن علي الهادي عليه السلام وكان يروي بتوسط جماعة من أصحاب الإمامين موسى بن جعفر الكاظم ، وولده علي بن موسى الرضا عنهما عليهما الصلاة والسلام^(١) وممن روى عنهم ابن أبي عمير وإبراهيم بن أبي محمود والحسن بن الحسين العرني والحسن بن محبوب ، وسهل بن سعد وعلي بن أسباط ومالك بن عامر ومحمد بن فضيل ، وموسى بن محمد العجلي وغيرهم من أصحاب الأئمة^(٢) ، وكان ممن يروي عنه أبوه الشريف عبد الله الحسنی^(٣) ، وقد روى عنه من رجال الشيعة خلق كثير من أمثال : أحمد بن أبي عبد الله البرقي ، وأبي تراب عبيد الله بن موسى الحارثي الروياني ، وسهل الآدمي^(٤) ، وأحمد ابن مهران وسهل بن جمهور وأحمد بن محمد وغيرهم^(٥) .

أمّا ما ذكر من مؤلفات الشريف الحسنی عليه السلام فهي كتابه : خطب أمير المؤمنين عليه السلام^(٦) ، وكتاب (يوم وليلة)^(٧) .

(١) خاتمة المستدرك ٤ : ٤٠٤ .

(٢) معجم رجال الحديث : للإمام الخوئي ١٠ : ٥٠ .

(٣) سفينة البحار : للشّيخ عباس القمي : ١٢٠ ط قديمة .

(٤) شرح مشيخة من لا يحضره الفقيه ٤ : ٦٦ ، وخاتمة المستدرك ٤ : ٤٠٥ .

(٥) رجال الخوئي ١٠ : ٥٠ .

(٦) رجال النجاشي : ٢٧٤ .

(٧) روضات الجنات ٤ : ٢٠٨ .

قصيدة : مطهرون

✽ أبو نؤاس

هو الحسن بن هاني. ولد في الأهواز عام ١٤٥ هجرية وتعلّم في البصرة. أخذ عن خلف الأحمر وأبي عبيدة وأبي يزيد الأنصاري، وتلقّن الحديث عند الكثير من العلماء. دخل البادية وخالط أعرابها، فاستقام لسانه وقوي بيانه. انتقل إلى بغداد في عصر الرشيد العباسي، فقزبه وأكرمه. عاقر الخمرة وأسرف في اللهو إلا أنه تاب في آخر أيامه. شعره جيد يغلب عليه الوصف، وهو لا يعتني باختيار الألفاظ وغلب جودة المعاني عليها. نظم الخمريات وهي مقطوعات كثيرة في وصف الخمرة وأحوالها. يعذ من كبار شعراء الفترة العباسية. توفي في بغداد عام ١٩٨ هـ. قالها في مدح أهل البيت (عليه السلام).

مطهرون^(١) نقيّات ثيابهم تجري الصلاة عليهم^(٢) أينما ذكروا
من لم يكن علوياً حين تنسبه فما له في قديم الدهر مفتخر^(٣)
والله لما برا خلقاً فأتقنه^(٤) صفاكم واصطفاكم^(٥) أيّها البشر
فأنتم الملاء الأعلى وعندكم علم الكتاب^(٦) وما تأتي السور

(١) مطهرون: منزّهون عن الذنب.

(٢) أراد أنهم يصلّون عليهم ويدعّون لهم كلّما ذكروا.

(٣) العلوي: الذي ينتسب لعلّي بن أبي طالب (عليه السلام). المفتخر: الشيء الذي يُفتخر به.

(٤) برا: براً، أي خلق وصوّر. أتقنه: أحسن صنعه.

(٥) صفاكم: نقّاكم. اصطفاكم: اختاركم.

(٦) الملاء الأعلى: المقرّبون من الله. علم الكتاب: علم القرآن.

قصيدة : السبب الزكي

✽ السيد محمد جمال الهاشمي

تظلمت هذه القصيدة بمناسبة ذكرى مولد الإمام الحسن بن علي عليه السلام في شهر رمضان
عام ١٣٧٢ هـ. ق.

فما قدر تحميد يقدّمه الشعرُ
على ساحة في ظلّها يُنشر الأجرُ
مقدّسةً يهتزّ من عرضها الدهرُ
وللروح عطرٌ منه ينبعث السكرُ
على ضوئها الأعصار لم يتدرس عصرُ
إذا ما انتهى يوماً إلى أفقه الفجرُ
إليه الهدى فخراً، وينتسب الطهرُ
نعم من شواطئ الخلد يتدفع البحرُ
تدور على أفلاكها الأنجم الزهرُ
تدور على الآباد أغصانها الخضرُ

إليك سلام الله يرفعه الذكرُ
ولكنه جهد المقلّ عرضته
أعادت لي الذكرى حياتك صفحةً
سطورٌ على الإيمان فاح عبيرها
تُسجّل دُستور الحياة، ولو مشّت
فمن أيّ أفق كان مطلع فجره
لبيت به الإسلام يحمي، ويتمي
ومن أيّ فيض كان منبع بحره
وهل تلد الزهراء إلّا كواكباً
وما الحسن الزاكي سوى فرع دوحه

أقول لشهر الله، وهو مُباهلٌ
فلولاه لا أيامك البيض قُدّست
ولا نزل القرآن فيك، ولا سمت
هو السرُّ سرُّ الله لألأ نوره
ومن كان من فيض النبوة نبعه
ترعرع في ظل النبوة صاعداً
ودان له حكم القضاء، فلم يدر

بميلاده: تهنى بذلك يا شهرُ
مقاماً، ولا أحیی لياليك القدرُ
إليه بنجواها الملائكة الغرُّ
على العقل، فانهارت مراصده العشرُ
تشلّ قوى الغواص أمواجه الغرُ
إلى قِمة يعيش بمنظرها الصقرُ
على فلك، إلا إذا صدر الأمرُ

* * *

صحا الدهرُ حيناً وهو يعطي زمامه
ولكنه، والدهر حول قلب

له، فمشى بالركب يحدو به النصرُ
لوى عطفه عنه، وزلّ به السكرُ

* * *

هي الحرب ناموس الحياة إذا طغث
ولكنما أن هدّد النسوع ضغظها
دهث هم الأبطال حين تطاولت
وطافت على كوفان أطيا ففتة
وباتت دمشق يحكم الدش دستها
وتقتص إيمان الوري بحبائل
فباع - عبيد الله - للخزي عمره
ولم يجد السبط الزكي لحقه

طبيعتها حقداً وثار بها الشرُّ
من اللطف أن يمشی إلى مدها الجزرُ
مواقفها وانهارت البيض والسمرُ
تساوى لدى أشواقها الحلو والمرُ
ويعرضه حُلماً يمازجه الدعرُ
يلفّ على أشراكها الدين والكفرُ
وعاش نديماه الخزيّة والغدرُ
ملاذا سوى صلح يضجّ به الصبرُ



روايات سلمان الفارسي

✽ قاسم السوداني

من هو الصحابي سلمان الفارسي :

قال رسول الله ﷺ : إن سلمان ما كان مجوسياً ولكنه كان مظهراً للشرك
مبطناً للإيمان (١).



وكان ﷺ ممن ضرب في الأرض لطلب الحجة فلم يزل ينتقل من عالم
إلى عالم ويبحث من الأسرار ويستدل بالأخبار منتظراً سيد الأولين
والآخرين محمداً ﷺ.

اسمه روزبه بن خشفودان وكان يكنى بأبي عبد الله أو بأبي اسحاق
أو أبي الحسن.

ولسلمان خصائص كثيرة ومناقب لا يمكن عدّها وحصرها بهذا
الموضوع المختصر ... حيث عرف من بيت سكناه ، حيث لم يكن له بيت
يسكن فيه ، وإنما كان يستظل بالجدر والشجر ، حتى أقنعه ﷺ البعض

بأن يبني له بيتاً ، إن قام أصاب رأسه السقف وإن مدّ رجله أصابهما الجدار . إضافةً إلى حرفته حيث كان يسفّ الخوص ويبيعه ويأكل منه بالرغم من أنه كان أميراً على المدائن ، حيث كان زاهداً وعازفاً عن الدنيا وما فيها ، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلتحف البعض الآخر عند منامه ، كان يحبّ الفقراء ويؤثرهم على أهل الثروة والعدد .

وقد وصفه البعض حيث قال : كان خيراً فاضلاً ، عالماً زاهداً متقشفاً . وعن رسول الله ﷺ قال : لا تغلظن في سلمان فإن الله تبارك وتعالى أمرني أن أطلع على علم البلاء والمنايا والأنساب وفصل الخطاب .

وقد أخبر عن مصارع الشهداء في كربلاء وعن أمر الخوارج . وقد كانت لسلمان رضي الله عنه منزلة رفيعة ومقام عالٍ عند رسول الله ﷺ حيث قال ﷺ : سلمان منا أهل البيت ، وقال ﷺ : لو كان الدين في الثريا لناله سلمان^(١) .

وكذلك قال الصادق عليه السلام لمنصور بن بزرج : لا تقل سلمان الفارسي ولكن قل سلمان المحمدي .

وأما الحديث عن إسلام سلمان رضي الله عنه فقد ذكره كثير من الرواة والمحدثين كرواية اكمال الدين ، ورواية ابن أبي الحديد ، ورواية ابن الأثير ، ورواية الحاكم النيشابوري وغيرها ونضع بين يديك عزيزي القارئ رواية ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة^(٢) :

قال سلمان رضي الله عنه : كنت ابن دهقان قرية «جئ» من أصبهان وبلغ من حب أبي لي أن حبسني في البيت كما تحبس الجارية فاجتهدت في المجوسية ، فأرسلني أبي يوماً إلى ضيعة له فمررتُ بكنيسة النصارى فدخلت عليهم فأعجبني صلاتهم ، فقلتُ : دين هؤلاء خير من ديني . فسألتهم أين أهل

(١) الاستيعاب ، هامش الإصابة ٢ : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) شرح النهج ١٨ : ٣٧ - ٣٩ .

هذا الدين ؟ قالوا : بالشام . فهربت من والدي حتى قدمت الشام فدخلت على الأسقف ، وأخذت أخدمه وأتعلم منه حتى حضرته الوفاة ، فقلت : إلى من توصي بي ؟ قال : قد هلك الناس ، وتركوا دينهم إلا رجلاً بالموصل فالحق به . فلما قضى نحبه لحقت بذلك الرجل ، فلم يلبث قليلاً حتى حضرته الوفاة ، فقلت إلى من توصي بي ؟ فقال : ما أعلم رجلاً بقي على الطريقة المستقيمة إلا رجلاً بنصيبين «مدينة بين الشام والموصل» . قال ثم احتضر صاحب نصيبين فبعثني إلى رجل بعمورية من أرض الروم ، فأتيته وأقمت عنده واكتسبت غنيمات وبقيرات ، فلما نزل به الموت قلت له : بمن توصي بي ؟ فقال : قد ترك الناس دينهم وما بقي أحدٌ منهم على الحق ، وقد أطلّ زمان نبي مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً أرض بيت حرثين لها نخل ، قلت وما علامته ؟ قال يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة .

قال ﷺ فلما قضى نحبه وحضره الموت خرجت ومرّ بي ركبٌ من كلب فخرجت معهم فلما بلغوا بيّ وادي القرى ظلموني وباعوني إلى يهودي ، فكنت أعمل له في زرعه ونخله فبينما أنا عنده إذ قدم ابن عم له فابتاعني منه وحملني إلى المدينة ، فوالله ما إن رأيته فعرفتها ، وبعث الله محمداً ﷺ ولا أعلم بشيء من أمره . فبينما أنا أعمل في رأس نخلة إذ أقبل ابن عم لسيدي فقال : قاتل الله بني قيله (لقب أهل المدينة) قد اجتمعوا على رجل بقاء قدِمَ عليهم من مكة يزعمون أنه نبي ، قال ﷺ : فأخذني القُرّ (البرد) ونزلت عن النخلة وجعلت استقصي في السؤال فما كلمني سيدي بكلمة بل قال لي : أقبل على شأنك ودع ما لا يعينك .

فلما أمسيت أخذت شيئاً من التمر وأتيت به النبي ﷺ فقلت له : بلغني أنك رجلٌ صالح وأن لك أصحاباً غرباء ذوي حاجة وهذا شيء عندي للصدقة فأريتكم أحق به من غيركم . فقال ﷺ لأصحابه : كلوا وأمسك

فلم يأكل منه .

فقلت في نفسي : هذه واحدة فانصرف . فلما كان الغد أخذت ما بقي عندي وأتيت به فقلت له : إنني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية ، فقال ﷺ : كلوا وأكل معهم . فقلت : إنه لهو ، فأكبت عليه أقبله وأبكي ، فقال ﷺ : مالك تفعل هكذا ؟ فقصصت عليه القصة ، فقال لي : يا سلمان ! كاتب صاحبك فكاتبته على ثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية . فقال رسول الله ﷺ : لأنصار : أعينوا أخاكم فأعانوني بالنخل حتى جمعت ثلاثمائة ودية فوضعها رسول الله ﷺ بيده فصحت كلها ، وأتاه مالٌ من بعض المغازي فأعطاني منه وقال : أدّ كتابك فأديت وعُتقت .

وكان لسلمان ﷺ دورٌ جهادي بعد أن أعتقه الإسلام من رقه ، فإنه لم ينفك عن مصاحبة رسول الله ﷺ ومواكبته له في كافة غزواته وحروبه إلا بديراً واحداً ، لأنه كان لا يزال في حينها في الرق ، فكانت له مواقف خالدة في حروب المسلمين ضد المشركين ، ومن أهمها غزوة الخندق والتي اشتملت على مشاهد مثيرة ، ففيها التقت الكثافة العددية لجيوش المشركين بالقلة العددية لجيش المسلمين ، فأشار سلمان ﷺ بحفر خندق قائلاً : (كنا بفارس إذا حوصرنا حفرنا خندقاً يحول بيننا وبين عدونا) فاستحسن الرسول ﷺ هذا الرأي ، وقاموا بحفر الخندق والذي كان له دور كبير في إفشال خطط الأعداء لضرب الرسالة المحمدية في مهدها . وفي حصار الطائف أشار سلمان ﷺ باستعمال المنجنيق والتي ضرب بها حصون المشركين . هذا وقد تولّى سلمان ﷺ ولاية المدائن في عهد عمر بن الخطاب إلا أن في المرجح أن تولّيه لها كانت بعد فتحها دون أن يسبقه أحدٌ إليها^(١) .

ومما يجدر الإشارة إليه وذكره أنه حيث ورد المدائن قعد تحت ظلال

الحائط (البستان) وفي المسجد ولم يقبل أن يدخل قصر الإمارة ، وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدل على السمو النفسي الذي كان يتمتع به سلمان عليه السلام ، وقد بقي سلمان عليه السلام في المدائن إلى أن توفي فيها سنة (٣٤ هـ ق) على الأصح ^(١).

وهذه نبذة مختصرة جداً عن شخصية سلمان عليه السلام.

من رواياته عليه السلام عن الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام :

١- قال سلمان عليه السلام :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خلقت أنا وعلي بن أبي طالب من نور الله عن يمين العرش نستبح الله ونقدسه من قبل أن يخلق الله عز وجل آدم بأربعة عشر ألف سنة . فلما خلق الله آدم نقلنا إلى أصلاب الرجال وأرحام النساء الطاهرات ، ثم نقلنا إلى صلب عبد المطلب وقسمنا نصفين . فجعل نصف في صلب أبي عبد الله وجعل نصف في صلب عمي أبي طالب ، فخلقت من ذلك النصف وخلق علي من النصف الآخر ، واشتق الله تعالى لنا من أسمائه أسماءاً فالله عز وجل محمود وأنا محمد ، والله الأعلى ، وأخي علي ، والله الفاطر وابنتي فاطمة ، والله محسن وابنائي الحسن والحسين ، وكان اسمي في الرسالة والنبوة وكان اسمه في الخلافة والشجاعة ، وأنا رسول الله وعلي ولي الله» ^(٢).

٢- عن سلمان عليه السلام :

قال رسول الله ﷺ : «إذا كان يوم القيامة ضربت لي قبة حمراء عن يمين العرش ، وضربت لإبراهيم قبة من ياقوته خضراء عن يسار العرش ، وضربت بيننا لعلي بن أبي طالب قبة من لؤلؤة بيضاء فما ظنكم بحبيب بين خليلين» ^(٣) ؟.

٣- عن سلمان عليه السلام قال :

(١) رجال بحر العلوم ٣ : ١٦ .

(٢) فرائد السمطين : ٤١ ، ح ٥ .

(٣) فرائد السمطين : ١٠٤ ، ح ٧٤ .

قال رسول الله ﷺ : «أنا شفيع لكل أخوين تحابا في الله من مبعثي إلى يوم القيامة»^(١).

٤- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «التحيات لله الصلوات الطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(٢).

٥- عن سلمان رضي الله عنه في احتجاجه على عمر عندما ولي المدائن قال :

إن رسول الله ﷺ يتألف الناس ويتقرب منهم ويتقربون منه في نبوته وسلطانه حتى كان بعضهم في الدنو منهم ، وقد كان يأكل الجشب ويلبس الخشن وكان الناس عنده قرشيهم وعربيهم وأبيضهم وأسودهم سواء في الدين^(٣).

٦- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصير نفسي معهم»^(٤).

٧- انكب سلمان رضي الله عنه على قدم رسول الله ﷺ يقبلها ، فزجره النبي ﷺ عن ذلك ثم قال : يا سلمان ! لا تصنع بي ما تصنعه الأعاجم بملوكها ، أنا عبد من عبيد الله آكل مما يأكل العبد ، وأقعد كما يقعد العبد»^(٥).

٨- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «تفرق أمتي ثلاث فرق ، فرقة على الحق لا ينقص الباطل منه شيئاً ، يحبونني ويحبون أهل بيتي ، مثلهم كمثل الذهب الجيد كلما أدخلته النار لم

(١) جامع الأحاديث ٢ : ح ٤٧٧٢ .

(٢) جامع الأحاديث ٤ : ح ١٠٧٠٢ .

(٣) بحار الأنوار : ٢٢ .

(٤) جامع الأحاديث ٤ : ح ١١٤٨٤ .

(٥) بحار الأنوار : ٢٧ .

يزده إلا جودة ، وفرقة على الباطل لا ينقص الحق منه شيئاً يبغضونني ويبغضون أهل بيتي مثلهم كمثل الحديد كلما أدخلته النار فأوقدت عليه لم يزده إلا شراً ، وفرقة مدهدة على ملة السامري لا يقولون لا مساس ، لكنهم يقولون لا قتال إمامهم عبد الله ابن قيس الأشعري»^(١).

٩ - عن سلمان عليه السلام قال : نظر رسول الله ﷺ إلى فاطمة وبعلمها وإلى أبنائها فقال :

«يا سلمان ! اشهد الله أنني سلم لمن سالمهم وحرب لمن حاربهم»^(٢).

١٠ - عن سلمان عليه السلام قال :

قال رسول الله ﷺ : «يا سلمان من أحب فاطمة ابنتي فهو في الجنة معي ، ومن أبغضها فهو في النار»^(٣).

١١ - عن سلمان عليه السلام قال :

قال رسول الله ﷺ : «يا سلمان ! حب فاطمة ينفع في مائة موطن أيسر تلك المواطن الموت والقبر والميزان والمحشر والصراط والمحاسبة ، فمن رضيته عنه أبنتي فاطمة رضيته عنه ومن رضيته عنه رضي الله عنه ، ومن غضبت عليه فاطمة غضبت عليه ومن غضبت عليه غضب الله عليه - يا سلمان ! ويل لمن يظلمها ويظلم ذريتها وشيعتها»^(٤).

١٢ - عن سلمان عليه السلام قال : كنت جالساً بين يدي رسول الله ﷺ في مرضه الذي قبض فيه فدخلت عليه فاطمة عليها السلام فلما رأت ما بأبيها ﷺ من الضعف ؛ بكت حتى جرت دموعها على خديها فقال رسول الله ﷺ : مايبيك يا فاطمة ؟ قالت : يا رسول الله ! أخشى الضيعة على نفسي وولدي بعدك. فأغرورقت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال : يا فاطمة ! أما علمت أنا أهل

(١) بحار الأنوار ٢٨ .

(٢) بحار الأنوار ٢٨ .

(٣) بحار الأنوار ٢٧ .

(٤) بحار الأنوار ٢٧ .

بيت أختار الله لنا الآخرة على الدنيا وأنه حكم حكم الفناء على جميع خلقه . وأن الله تبارك وتعالى اطلع إلى الأرض فاخترني منهم وجعلني نبياً ، واطلع إلى الأرض اطلاعه ثانية فأختر منها زوجك ؟ فأوحى الله إلي أن أزوجه إياه وأن أتخذه ولياً ووزيراً وأن أجعله خليفتي في أمتي ، فأبوك خير أنبياء الله ورسله ، وبعلك خير الأوصياء ، وأنت أول من يلحق بي من أهلي ، ثم اطلع إلى الأرض الثالثة فاخترك وولدك ، وأنت سيدة نساء أهل الجنة وابناك حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة وابناء بعلك أوصيائي إلى يوم القيامة كلهم هادون مهديون . أما تعلمين يا بنية ! أن من كرامة الله عزوجل إياك أن زوجك خير أمتي ، وخير أهل بيتي ، أقدمهم سلماً وأعظمهم حُلماً وأكثرهم علماً ، فاستبشرت فاطمة عليها السلام وفرحت بما قال لها رسول الله ﷺ» (١) .

١٣ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن رجلٌ حتى يحب أهل بيتي وحتى يدع المرء وهو محق ، فقال عمر بن الخطاب : وما علامة حب أهل بيتك ؟ قال : هذا وضرب على علي بن أبي طالب» (٢) .

١٤ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « خير هذه الأمة بعدي أولها إسلاماً علي بن أبي طالب» (٣) .

١٥ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « علي بن أبي طالب خير من أ خلف بعدي» (٤) .

١٦ - سأل سلمان رضي الله عنه النبي ﷺ فقال : من وصيك يا رسول الله ؟

فقال ﷺ : « يا سلمان ! من كان وصي موسى ؟ فقال : يوشع بن نون ، قال : قال ﷺ : ووصي ووارثي يقضي ديني وينجز مواعيدي علي بن أبي طالب» (٥) .

(١) بحار الأنوار ٢٨ .

(٢) بحار الأنوار : ٢٧ .

(٣) كشف الغمة ، كتاب المسترشد .

(٤) نفس الرحمان في فضائل سلمان .

(٥) مسند أحمد بن حنبل ، الفصل الثاني عشر .

١٧- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «خلقت أنا وعلي من نور واحد قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام ، فلما خلق آدم ركب ذلك النور في صلبه ، فلم نزل في شيء واحد حتى افترقنا في صلب عبد المطلب ففِي النبوة وفي علي الخلافة»^(١).

١٨- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «أول الناس وروداً على الحوض أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب»^(٢).

١٩- عن سلمان رضي الله عنه قال : لا أزال أحب علياً فإنني رأيت رسول الله ﷺ

يضرب فخذيه ويقول : «محبك لي محب ، ومحبي لله محب ، ومبغضك لي مبغض ومبغضي لله مبغض»^(٣).

٢٠- عن سلمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي أكثر من

عشر مرات:

«يا علي ! إنك والأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة والنار ، لا يدخل الجنة إلا من عرفكم وعرفتموه ، ولا يدخل النار إلا من أنكركم وأنكرتموه»^(٤).

٢١- عن سلمان رضي الله عنه قال : كنت يوماً جالساً عند رسول الله ﷺ إذ أقبل

علي بن أبي طالب فقال : ألا أبشرك يا علي ، قال : بلى يا رسول الله ، قال : هذا جبرئيل يخبرني عن الله أنه قد أعطى محبيك وشيعتك سبع خصال ، الرفق عند الموت والأنس عند الوحشة والنور عند الظلمة والأمن عند الفزع والقسط عند الميزان والجواز عند الصراط ودخول الجنة قبل سائر الناس من الأمم بثمانين عاماً»^(٥).

٢٢- عن سلمان رضي الله عنه قال :

(١) كتاب الفردوس لابن شيرويه الديلمي ، باب الخاء .

(٢) نفس الرحمان في فضائل سلمان .

(٣) بحار الأنوار ٢٧ .

(٤) نفس الرحمان في فضائل سلمان .

(٥) بشارة المصطفى .

قال رسول الله ﷺ : «أوحى الله تعالى إلي ليلة المعراج يا محمد ! رفعت لك ذكرك بعلي صهرك»^(١).

٢٣ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «علي بن أبي طالب ينجز عداتي ويقضي ديني»^(٢).

٢٤ - قال رجل لسلمان رضي الله عنه : ما أشد حبك لعلي ! قال : سمعت رسول

الله ﷺ يقول : «من أحب علياً فقد أحبني ، ومن أبغض علياً فقد أبغضني»^(٣).

٢٥ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يا معاشر المهاجرين والأنصار ! ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : هذا علي أخي ووزير ووارثي وخلفتي إمامكم فأحبوه لحبي وأكرموا لكرامتي فإن جرئيل أمرني أن أقول لكم ما قلت»^(٤).

٢٦ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي : «يا أبا الحسن ! مثلك في أمتي مثل قل هو الله أحد ، فمن قرأها مرة فقد قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأها مرتين فقد قرأ ثلثي القرآن ، ومن قرأها ثلاثاً فقد ختم القرآن ، فمن أحبك بلسانه فقد كمل له ثلث الإيمان ، ومن أحبك بلسانه وقلبه فقد كمل له ثلثا الإيمان ، ومن أحبك بلسانه وقلبه ونصره بيده فقد استكمل الإيمان كله ، والذي يعثني بالحق يا علي لو أحبك أهل الأرض كمحبة أهل السماء لما عذب الله أحداً بالنار»^(٥).

٢٧ - سئل سلمان رضي الله عنه عن علي بن أبي طالب قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : «عليكم بعلي بن أبي طالب فإنه مولاكم فأحبوه ،

(١) فضائل المنجية : الفصل الأول ، مسند أحمد بن حنبل .

(٢) الخوارزمي ، الفصل السادس .

(٣) نفس الرحمان في فضائل سلمان ، الباب ١١ .

(٤) نفس الرحمان في فضائل سلمان ، باب ١١ .

(٥) بحار الأنوار ٢٢ .

وكبيركم فاتبعوه ، وعالمكم فأكرموه ، وقائدكم إلى الجنة فعزّروه ، وإذا دعاكم فأجيبوه ، وإذا أمركم فأطيعوه ، أحبوه لحبي ، وأكرموا لكرامتي ، ما قلت لكم في علي إلا ما أمرني به ربي» (١) .

٢٨ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «ليس في الجنة بعد الإيمان بالله ورسوله شيء أفضل من حب علي بن أبي طالب» (٢) .

٢٩ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «علي بعدي أفضل أمّي وحمة وجعفر أفضل أهل بيتي بعد علي وبعدي (فاطمة) وبعد ابني وسبطي حسن وحسين وبعد الأوصياء من ولد ابني هذا - وأشار إلى الحسين - ومنهم المهدي ، إنّ أهل بيت اختار الله عز وجل لنا الآخرة على الدنيا» (٣) .

٣٠ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

قلنا يوماً يا رسول الله ! من الخليفة بعدك حتى نعلمه ؟ قال ﷺ :
ياسلمان ! أدخل عليّ أبا ذر والمقداد وأبا أيوب الأنصاري وأم سلمة من وراء الباب ثم قال لنا :

«اشهدوا وافهموا أن علي بن أبي طالب وصيّ ووارثي وقاضي ديني وعداتي وهو الفارق بين الحق والباطل وهو يعسوب الدين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين والحامل غداً لواء رب العالمين ، هو وولده من بعده ثم من ولد الحسين ابني أئمة تسعة هداة مهديون إلى يوم القيامة ، أشكوا إلى الله هجر أمّتي لأخي وتظاهروا عليه وظلمهم له وأخذهم حقه» (٤) .

٣١ - عن سلمان رضي الله عنه قال :

(١) بحار الأنوار ٢٧ .

(٢) نفس الرحمان في فضائل سلمان ، باب ١١ .

(٣) بحار الأنوار ٢٨ .

(٤) كشف اليقين ، الباب ١٥ .

قال رسول الله ﷺ لفاطمة : «إنا أهل بيت أعطانا الله عز وجل سبع خصال لم يعطها لأحد من الأولين كان قبلكم ولا يعطيها أحداً من الآخرين غيرنا : نبينا سيد المرسلين وهو أبوك ، ووصينا سيد الأوصياء وهو بعلك ، وشهيدنا سيد الشهداء وهو حمزة بن عبد المطلب وهو عم أبيك ، فقالت : يا رسول الله ! وهو سيد الشهداء الذين قتلوا معك ؟ قال : لا بل سيد شهداء الأولين والآخرين ما خلا الأنبياء والأوصياء . وجعفر بن أبي طالب ذا الجناحين الطيار في الجنة مع الملائكة وأبناءك الحسن والحسين سبطي أمتي وسيدي شباب أهل الجنة ، ومنا والذي نفسي بيده مهدي هذه الأمة الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»^(١).

٣٢- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «الحسن والحسين ابناي ، فمن أحبهما أحبني ومن أحبني أحبه الله ، ومن أحبه الله أدخله الجنة ، ومن أبغضهما أبغضني ومن أبغضني أبغضه الله ومن أبغضه الله أدخله النار»^(٢).

٣٣- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «الحسن والحسين من أحبهما أحبته ، ومن أحبته أحبه الله ، ومن أحبه الله أدخله جنات نعيم ، ومن أبغضهما أبغضته ، ومن أبغضته أبغضه الله ، ومن أبغضه الله أدخله جهنم وله عذاب مقيم»^(٣).

٣٤- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «الأئمة من بعدي إثنا عشر ، عدد شهور الحول ، ومنا مهدي هذه الأمة له هيبة موسى وبهاء عيسى وحكم داود وصبر أيوب»^(٤).

٣٥- عن سلمان رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «الأئمة بعدي إثنا عشر ، ثم قال : كلهم من قريش ثم يخرج

(١) بحار الأنوار ٢٨.

(٢) جامع الأحاديث ٤ : ح ١١٤٧٨.

(٣) مجمع الزوائد ٩.

(٤) نفس الرحمان في فضائل سلمان ، باب ١١.

قائماً فيشفي صدور قوم مؤمنين ، ألا إنهم عترتي من لحمي ودمي ، ما بال قوم يؤذونني فيهم ؟ لا أنالهم الله شفاعتي» (١) .

٣٦- عن سلمان رضي الله عنه قال :

دخلت على النبي وإذا بالحسين على فخذه ويقبل جبينه ويلثم فاه وهو يقول : «أنت سيد ابن سيد ، أنت إمام ابن إمام أبو الأئمة ، أنت حجة أبو حجج تسعة من صلبك تاسعهم قائمهم» (٢) .

٣٧- عن سلمان رضي الله عنه قال :

دخلت على رسول الله وعنده الحسن والحسين يتغديان والنبي صلى الله عليه وآله يضع اللقمة تارة في فم الحسن وتارة في فم الحسين ، فلما فرغ من الطعام أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن على عاتقه والحسين على فخذه ، ثم قال لي : «يا سلمان ! أحبهما ؟ قلت : يا رسول الله كيف لا أحبهما ومكانهما منك مكانهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا سلمان ! من أحبهما فقد أحبني ومن أحبني أحب الله ، ثم وضع يده على كتف الحسين ، وقال : إنه إمام ابن إمام تسعة من صلبه أئمة أبرار أئمة معصومون والتاسع قائمهم» (٣) .

٣٨- عن سلمان رضي الله عنه قال :

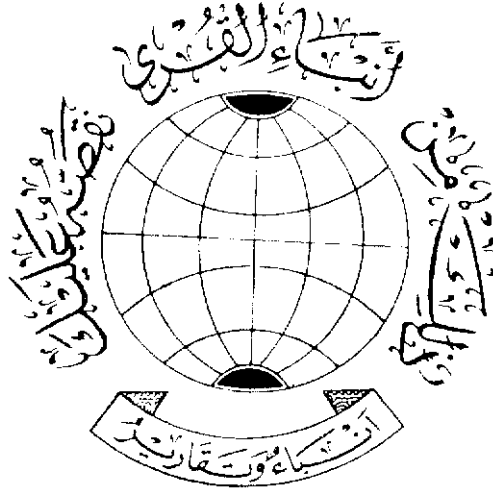
سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «إن الله عزوجل يقول : يا عبادي ! أوليس من له إليكم حوائج كبار لا تجودون إلا أن يتحمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعهم ؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق علي وأفضلهم محمد وأخوه علي ومن بعده من الأئمة الذين هم الوسائل إلي ألا فليدعني من همته حاجة يريد نفعها أو دهرته واهية يريد كشف ضررها بمحمد وآله الأفاضلين الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن ما يقضيها ممن تستشفعون إليه بأعز الخلق عليه» (٤) .

(١) نفس الرحمان في فضائل سلمان .

(٢) نفس الرحمان في فضائل سلمان ، باب ١١ .

(٣) نفس الرحمان في فضائل سلمان ، باب ١١ .

(٤) بحار الأنوار ٢٢ .



نافذة نطلّ منها على أحوال المسلمين وأتباع أهل البيت (عليه السلام) في أنحاء العالم من خلال ما يصلنا من أخبار وتقارير .

الجمهورية الإسلامية في ايران

أفكار بعد الانتخابات

الرئاسية



بعد أن أسدل الستار على المشهد الانتخابي لرئاسة الجمهورية الإسلامية في ايران بانتخاب السيد محمد خاتمي لرئاسة ثانية أمدّها أربع سنوات ؛ انتهت معها ضجيج الدعايات

الانتخابية ، وانتهى أيضاً الإعلام بكافة أشكاله من تسليط الضوء على البعد المرحلي في هذه الانتخابات ، وغابت العناوين المثيرة التي كانت تصدر نشرات الأنباء ولا تستحوذ على مساحات واسعة من اهتمامات الإعلام العالمي .

نقول وبعد كل نهاية هناك

بداية أو استئناف لأمر قد لا يثير قريحة الآخر في إطلاق العنان لصوته أو لقلمه في أن يواصل إلى نهاية المطاف لأن ذلك يقع خارج دائرة المخطّط المحدّد سلفاً للمسألة ، وهي هنا الانتخابات الرئاسية في إيران التي بدأنا بها .

وإذا كان الحدث بذاته ينطوي على أهمية كبرى إعلامياً ، فإن إدامته ليست أقل أهمية لما يتوفر عليه من استحقاقات محلية وإقليمية ودولية يمكن أن تجعله في الأولوية باستمرار على مدى أربع سنوات وهي مدة الرئاسة أو أكثر باعتبار أن الرئيس سيترك بصماته على أكثر من صعيد داخلي وخارجي ، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة أو العلاقات الخارجية أو غير ذلك .

كما أن العودة إلى الحدث نفسه واستنباط تفاصيله والخوض في حيثياته يمكن أن يستحوذ على أولوية أخرى

تستحق المزيد من المتابعة والاهتمام ، ولتكن بدايتنا من هنا : فهو أولاً : أعاد إلى الأذهان بأن الثورة الإسلامية وبعد أكثر من عشرين عاماً على انتصارها مازالت قادرة على مخاطبة أبنائها بل وأحفادها الذين ترعرعوا ونشأوا بعد انتصارها ، وقادرة على تحريكهم باتجاه تحقيق أهدافها ، وإذا كان جيل الانتصار قد سجّل حضوره بفعل مشاركته في صناعة النصر وتقديمه التضحيات من أجله ؛ فإنه كان ينتظر من الجيل الذي يليه أن لا ينطلق من نفس الشعور وبالتالي فإن الإحساس بانتمائه (الثوري طبعاً) ربما يقل عن سابقه الذي شارك في أحداثها ، لكن الذي حدث أذهل دوائر السياسة الغربية بل حتى مراكز الدراسات والتنظير الاجتماعية ، فلقد بلغت نسبة المشاركة الجماهيرية أكثر من ٧٠٪ ممن يحق لهم التصويت ،

وهذا الرقم مرتفع نسبياً قياساً إلى معظم الانتخابات التي تجري في بلدان العالم لا سيما الغربية منها ، حيث يبلغ متوسط المشاركة (٥٠ - ٦٠)٪ فقط .

وثانياً : إن تجيير هذا الحضور لصالح التقسيمات الحزبية أو السياسية في البلاد أمر قد لا ينطوي على كل الحقيقة ، لكن الحقيقة كلها تكمن في أن هذا الحضور يتم تحت مظلة النظام الإسلامي ودستوره الذي ينص على ولاية الفقيه للأمة ، وبالتالي فهو حضور له معناه الواسع في الانتماء لهذا النظام بكل مكوناته ، وليس حضوراً معارضاً كما يحلو لبعض الإعلام أن يعتبره هكذا ، وهذا المعنى أشار إليه قائد الثورة الإسلامية آية الله العظمى السيد علي الخامنئي حينما أدلى بصوته في ساعات الصباح الأولى وقال بالحرف الواحد : «إن الشعب سيشارك في هذه

الانتخابات مثلما شارك في السابق لتعزيز مكانة بلاده ، وإن كان صوت يُدلى به في هذه الانتخابات هو للجمهورية الإسلامية وهو صوت في غاية الأهمية» .

فإذا كانت تدور في ذهن أي مقترح أياً كان اتجاهه بأن مشاركته لصالح أي مرشح هو معارضة للنظام ، فتكفيه العبارة أعلاه (وهي قيلت في أول ساعة من الانتخابات بل جرى تكرارها قبل الانتخابات أيضاً) للإحجام عن المشاركة لأن صوته سيحتسب في تأييد الجمهورية الإسلامية والنظام الإسلامي ككل.

وثالثاً : لأكثر من عشرين مرة ، ولعلها المرة الثانية والعشرين التي تجري انتخابات في إيران على مدى اثنين وعشرين عاماً من انتصار الثورة الإسلامية وهي تجربة لم تكن مألوقة في إيران ،

كما أنها ليست مألوفة في العالم المحيط بها إلا بقدر ضئيل ومشوّه لا يرقى إلى مستوى انتخاب رئيس الدولة ، والغريب إننا سمعنا وقرأنا بعض الكتابات التي تعيب على إيران هذه الانتخابات وتعتبرها أنها بعيدة عن الديمقراطية والحرية وما شابه من الاتهامات التي تُساق دون دليل ، وبلا إنصاف ، فيما كان الأجدر بهذه الأقاليم والعقول أن توظف قدراتها في التعبير من أجل انتهاز هذه الفرصة الثمينة المواتية في العالم الثالث لخوض مثل هذه التجربة في احترام الأمة وأصواتها ، ودعوة الآخرين إلى التأسّي بها والاستفادة منها ، مثلما فعلت أقاليم أخرى وسلكت المنهج الصحيح في التعاطي مع هذه التجربة الثرة ، فيما اختارت فئة ثلاثة سبيل التعقيم القائم على أسس سليمة وهو ما لا ضير فيه لأنه مفيد إلى المستقبل في عملية

تلافي الأخطاء وتطوير التجربة وتكاملها سواءً في إيران نفسها أو في خارجها وصولاً إلى حالة مثالية في التعامل مع رأي الأمة واحترامه .

الغربة الأخرى هنا أن البعض التفت للتو لما يجري في إيران من انتخابات حرّة ونزيهة قد لا ترقى إليها حتى أكثر بلدان العالم ديمقراطية ، رغم أن عمر هذه التجربة قد مضى عليه - كما قلنا - أكثر من عقدين من الزمن ، وفي هذا التأخير الطويل نسبياً ضياع لعمر القارئ والمتابع ، لأن الوجبة الفكرية التي كان يُفترض أن تقدم قبل عشرين عاماً وضعت الآن أمام الشريحة القارئة ، صحيح أن الظروف ربما كانت لا تساعد على كشف هذه الحقائق في عالم تحكمه ديكتاتورية الأفراد أو الأسر أو ما شابه لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً .

ورابعاً : منذ انتصار الثورة

الإسلامية فيها أخذت تقدم ايران نموذجاً متطوراً للحكم عبّر عنه رئيس الجمهورية السيد محمد خاتمي أكثر من مرة بأنه يعبر عن حاكمية الدين بأراء الشعب ، أو حكومة الشعب الدينية حسب ما يحلو لبعض وسائل الإعلام أن تسميه ، ومهما كانت التسمية فإن الجوهر يبقى نفسه ، والذي يجري خلال السنوات الأخيرة ليس بجديد ، بل إن البلاد دفعت ثمناً كبيراً في انتخابات الدورة الرئاسية الأولى بعد فترة وجيزة من انتصار الثورة حينما تولى أبو الحسن بني صدر رئاسة الدولة وعاث فيها فساداً ، بينما كانت الثورة تواجه أشرس أنواع العدوان والمؤامرات وتخوض حرباً مفروضة ، وفي هذا دليل على أن حرية الرأي كانت على رأس اهتمامات الجمهورية الإسلامية منذ قيامها ، وقدمت مُذاك انموذجاً إسلامياً لطريقة

الحكم لم يرق للكثير أن يُطرح على مستوى التداول الشعبي في بلاد المسلمين ، وأن رأي الأمة لم يهمل يوماً طوال الدورات السابقة للانتخابات الرئاسية أياً كان الشخص المنتخب لهذا المنصب ، وفي هذا قال قائد الثورة الإسلامية بعد أن أدلى بصوته في الانتخابات الأخيرة : «مع انتهاء العملية الانتخابية سيكون الرئيس المنتخب رئيساً للجميع وعلى الجميع أن يحترموه» موصياً سماحته اللجنة المشرفة على الانتخابات بحماية أصوات الناخبين من التلاعب .

* * *

□ فلسطين

مبادرة ميتشل .. مؤامرة لإبهاض الانتفاضة والالتفاف على مكاسبها
حققت انتفاضة الأقصى انتصارات مهمة تكتيكياً

واستراتيجياً في طي المواجهة
الدموية غير المتكافئة منذ ثمانية
أشهر، وأضافت نقاطاً رئيسية
يمكن للسلطة السياسية
الفلسطينية والدول العربية
استثمارها كأمر واقع وذلك مع
بدء مرحلة جديدة من
المفاوضات وفي إطار ما يسمى
بمبادرة ميتشل ، فأصبح بإمكان
سلطة عرفات أن تعتبر خيار
الانتفاضة بديلاً عن الاختناقات
التي ستواجهها على طاولة
المفاوضات ولكسب التراجع من
الطرف الآخر لا سيما في قضية
تفكيك المستوطنات، وهي
القضية التي كاد عرفات وجماعته
أن يفرطوا بها لولا اندلاع
الانتفاضة.

واتجاه آخر يمكن أن تخدمه
الانتفاضة وهو التأصل في
مفهوم حرب التحرير الذي
غادرته أغلب القيادات الفلسطينية
منذ عقدين من الزمن، وأصبح من

حق القيادات الشعبية أن تطرح
مبدأ الانتفاضة كخيار يضبط
حركة عرفات وكذلك يكون
السقف الذي ينبغي أن تتحرك في
حدوده المبادرات الاقليمية
والدولية .

وعلى الصعيد العربي لم يعد
بإمكان العرب الاحتكام إلى التردد
والتخاذل بعد أن قدم الشعب
الفلسطيني نموذجاً في حالة
المواجهة غير المتكافئة، واستطاع
من خلالها أن يفرض حقائق لم
يستطع العرب بأجمعهم أن
يوجدوها في مواجهة الكيان
الصهيوني ، إذ على الدبلوماسية
العربية أن تترك منهج الاستسلام
والتخاذل ورفض المطالبة
بالسلام، بينما العدو المحتل يعلن
الحرب وهي الحالة المعكوسة
قبل عشرين عاماً . والموقف
العربي مطلوب بهذا الشأن ولا بد
أن يتمحور حول استراتيجية
هدفها الأساسي الحفاظ على

مكاسب الانتفاضة ومواصلة امداد الشعب الفلسطيني في الداخل بمقومات القدرة على مواصلة الانتفاضة والتحرك في الميدان داخل المناطق المحتلة، وهو ما يقلق العدو منذ عقود، لأنه يشكل مصدر تهديد مباشر وأكثر تأثيراً من العمليات الفدائية التي كانت من وراء الحدود .

ومن أبرز النقاط الإيجابية في حركة الانتفاضة ذلك التهديد الحقيقي على الأرض لأبرز مظاهر الاحتلال والعدوان المتمثل بالمستوطنات داخل مناطق الضفة والقطاع ، وقد استطاع هذا التهديد أن يثير جدلاً واسعاً في صفوف العدو إلى جانب تأثيراته على عنصر الاستيطان وهو العنصر الأساسي في الحركة الصهيونية في التأسيس للكيان الصهيوني والعقائدي الإسرائيلي منذ أكثر من مئة عام .

ومطلب تفكيك المستوطنات

كان من بين الضغوط التي تدفع أرييل شارون إلى التهديد بالعدوان على سوريا ولبنان، وهو العدوان الذي في حالة وقوعه ينبغي التعامل معه على أساس هزيمة، باعتبار أن شارون غير قادر على المواجهة الشعبية التي بلغت فيها مستويات التضحية حدود المعجزات حينما تواجه الأجساد البشرية الطائرات وحيث التداخل في الجبهات وتوفر فرص شن حرب تحرير على الأرض وعلى المستوطنات . وفي الجانب السياسي فإن العدوان المتوقع يشير إلى السقوط المبكر لحكومة شارون، أما الجدل الذي يدور داخل أروقة القرار في تل أبيب حتى أن اتهامات بدأت توجه إليه بتعريض الكيان الصهيوني إلى الفناء، وربما يكون هذا الاتهام حقيقة إذا أحسنت الدول العربية استغلال العدوان العسكري المتوقع .

والحقيقة الثانية التي أوجدها الانتفاضة هي أن ياسر عرفات الذي فشل ولسنوات عديدة في تطبيق ما اتفق عليه في اوسلو بأن تفكك سلطات الاحتلال ٥٠٪ من المستوطنات في حدود عام ٢٠٠٠، نجح الثوار الفلسطينيون في تحويل أكثر من ٥٠٪ من المستوطنات إلى هياكل فارغة، وجردوها من قيمتها الاستيطانية وأصبحت تكتات عسكرية للعدو. والصورة الآن تبدو قاتمة أمام شرون الذي كان شعاره الانتخابي هو التوسع في إنشاء المستوطنات حيث أوضح أحد الكتاب في صحيفة هآرتس يقول: «إن الجمهور لو اطلع على حقيقة ما يجري في تلك المستوطنات لخرج من اللامبالاة التي يفرق بها» مشيراً إلى أن القسم الأكبر من المستوطنات تحوّل إلى هياكل خاوية بعد أن أصبحت مناطق عسكرية محفوفة

بالمخاطر وساحات للقتال. وتؤكد التقارير بأن مستوطنة (غوش قطيف) بنت فيها السلطات أكثر من مئة وحدة سكنية غير أن خمس عشرة عائلة وافقت على السكن هناك ومعظم هذه العائلات تفكر بالهرب وتشعر بالندم.

وفي غور الأردن أغلقت السلطات روضة للأطفال في مستوطنة (نعمة) وذلك لعدم توفر عائلات هناك، وكذلك الحال في مستوطنات شمال غزة آخذة في فقدان سكانها، إذ وصل إجمالي عدد الوحدات السكنية الفارغة في مستوطنات الضفة والقطاع إلى عشرين ألف مسكن، وذلك في غضون ثمانية أشهر من عمر الانتفاضة التي لم ينتصر لها تقرير دولي أو جهة محايدة للحق الفلسطيني أو الاعتراف بمكسب تحقق في ساحة المواجهة مع العدو المحتل، ولا يمكن اعتبار

تقرير ميتشل بأنه إنجاز إلى الحق الفلسطيني وباستثناء فقرة وقف بناء المستوطنات، فإن بقية التقرير سيف مسلط على الانتفاضة، وحصان طروادة الذي يختبئ وراءه شارون ليهرب من عدوان خارجي مجبر عليه، ولينهي الانتقادات الداخلية والخارجية عليه وليفر من انتفاضة الاستشهاد، أما عرفات المختبئ الثاني وراء تقرير ميتشل فهو يطمع إلى إعادة فرص العمل له ولجماعته، وأن جماعته من النوع الذي يعشق السفر بين أوصلو والقاهرة وبريطانيا.

إن ما ورد في تقرير ميتشل من تأكيد على وقف توسيع المستوطنات له مدلولات وأثر كبير على الكيان الصهيوني، والتي تعتبرها امتدادات لنمو المجتمع الإسرائيلي وهي كذلك مدارس ثقافية صهيونية ومدارس قتال ومركز من

مرتكزات هذا الكيان.

وبعد أن قبل الجميع بهذا التقرير لابد من التساؤل عما ستؤول إليه نقاط الفوز التي أنجزتها الانتفاضة ومن الذي سيرث ميراثها وماهو الموقف إذا ما تحول التقرير إلى خدعة هدفها وغايتها وقف الانتفاضة والالتفات على مكاسبها التي تحققت بستمائة شهيد ونحو سبعة آلاف إصابة؟

الراجح أن الولايات المتحدة ستحرص في المرحلة التالية على تفعيل دورها عن طريق مندوبها وليام بيرنز والذي يمثل عودة واشنطن إلى ممارسة نفوذ مباشر في عملية التسوية. وإلى جانب وليام ستباشر دول مؤثرة في أوربا زائداً الأمم المتحدة وبعض الأطراف العربية بتحرك مكثف لوقف الانتفاضة، وسيكون تقرير ميتشل المذبح الذي سيعلق عليه أولئك الذين لا

يؤمنون بخيار المواجهة والحركة الشعبية . وموضوع المستوطنات الذي هو نقطة الاعتراف في التقرير سوف يجري تمييعه بطريقة خبيثة مع عدم توفر ضمانات لتطبيقه في جميع بنوده ... ونود أن نلفت النظر إلى أن شمعون بيريز وزير خارجية الكيان الصهيوني اعتبر موضوع وقف بناء المستوطنات حجر عثرة أمام تطبيق التقرير ، وهو ما يثير الشكوك بلحاظ الموافقة الجماعية لكافة الأطراف المعنية على التقرير . وهناك ملاحظة يجب الالتفات إليها من قبل الحكام العرب والساسنة الفلسطينيين وهي أن لا يبخسوا قيمة ما قدمه المنتفضون طيلة ثمانية أشهر وهو ما يخدمهم ويعزّز من مواقعهم على طاولة المفاوضات وهي المكاسب التي تمنحهم أوراقاً يلعب بها ، والانتفاضة نفسها لا بد أن تكون

خياراً للضغط على الخصم والأطراف المساندة له ، وخلاف ذلك فإن من حقنا كمسلمين أن نتهم الأطراف الداخلة في لعبة ميتشل بالتآمر على مكاسب الانتفاضة، وعليه فإن على الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع أن يقول كلمته حيث أصبح متمرساً بقلب الطاولة على رؤوس المستأمرين والمتخاذلين. والانتفاضة أصبحت شجاً مرعباً يلاحق الجميع بتضحياتها وصمودها وإصرارها على تحرير الأرض من دنس المحتلين والمستوطنين.

* * *

□ البوسنة والهرسك

إصرار الصرب على موقفهم الصليبي

بإقصاء المسلمين

الصرب لم يعترفوا بما قاموا به وارتكبوه بحق المسلمين خلال

سنوات الحرب في البوسنة والهرسك ، بل لا يزالون على موقفهم الصليبي الإقصائي ضد المسلمين ... فما أن حاول المسلمون وضع حجر الأساس لمسجدين أثريين بعد تهديمهما أثناء العدوان على المسلمين سنة ١٩٩٣م حتى قام الصرب بالاعتداء مجدداً على المسلمين ورموهم بالحجارة وانهاالوا عليهم بالهراوات ، وأحرقوا سياراتهم والحافلات التي أقلتهم من مناطق مختلفة ، بل قاموا بسرقة الأثاث التي جاء بها المسلمون يوم الاحتفال ، ونزع المجرمون الصرب علم المشيخة الإسلامية في بنياالوكا ووضعوا العلم الصربي مكانه ، وقد تلقى مفتي بنياالوكا تأكيدات من السلطات الصربية تفيد بأن الأوضاع مرتبة ، وقد كان كذلك ولكن في اتجاه الغدر .

وفي تريبينيا ساق المسلمون

عدداً من الخراف ليذبحوها تعبيراً عن فرحهم بقرب بناء المساجد التي دمرها الصرب ، لكن الدماء التي سالت لم تكن دماء الخراف التي سرقها الصرب فيما بعد ذلك وإنما دماء المسلمين على أيدي أناس لاحظ لهم من الحضارة والتمدن، فبالعصي والهراوات قتلوا ضحاياهم ومنعواهم عن التعبير عن مشاعرهم الدينية وإقامة المساجد ، ونصبوا فرق التفتيش والمحاكم من جديد ولتصادر حقوق حقوق البشر ، بل البشر أنفسهم ، وكأن الزمن لم يدر دورته أو البشر لم يتخطوا عتبة القرون الوسطى ، وبالمقارنة مع تريبينيا فإن ما حدث في بنياالوكا يعد شديد الفظاعة ، ويذكر بما حصل في السنوات الماضية من تدمير جميع الحافلات والسيارات والأثاث التي كانت تحملها، ناهيك عن اعتقال وقتل المسلمين

بالإضافة إلى الاعتداءات على الشخصيات المدعوة لحضور الاحتفال، وهذا ما حدث لبعض سفراء الدول الإسلامية الذين كانوا مدعويين لوضع حجر الأساس لجامع الفرهادية، تمّ حرقها جميعاً أمام أعين القوات الدولية والمجتمع الدولي من خلال القنوات العامة والخاصة. والذي حدث في ترابينيا وبنيلوكا لم يكن - كما أكدت مختلف المصادر غير الصربية، الإسلامية والدولية عفويًا، وإنما كان مخططاً له ومن أعلى المستويات الصربية المحلية والحزبية وخاصةً الحزب الديمقراطي الصربي الذي كان يقوده «رادوفان كراجيتش»، والذي لا يزال يدير الأوضاع داخل القطاع الصربي في البوسنة، إن كل الذي حدث له تأثير سلبي على مجمل الأوضاع والبرامج المعدة للبوسنة والهرسك على

المستويات التي سنذكرها والتي تعود بالفائدة على المجتمع البوسني المظلوم، ومن هذه المستويات:

١ - مشروع عودة اللاجئين: فقد بدأ العائدون يعبرون عن مخاوفهم من تجدد القتال أو إعلان الصرب الحرب مجدداً على العائدين إلى ديارهم المهذمة بعد الاعتداءات التي تعرضوا لها سابقاً والتي لا تزال تسكن في قلوب وذاكرة الكثير منهم، وهذا ما يريده الصرب ويخططون له.

٢ - توحيد البوسنة: فهناك مشروع لتوحيد البوسنة والهرسك من خلال تقوية مؤسسات الدولة المركزية (كالشرطة والجيش والمحاكم والقوانين) فهي القضايا التي تبحث الآن على مستوى عال. وهناك بوادر توحيد للشرطة من خلال تعيين أفراد من الطوائف المختلفة في شرطة القطاعين

الصربي والفيدرالي تمهيداً لإعلان وزارة داخلية مركزية ، حيث لا توجد هذه الوزارة حتى الآن . كما أنّ هناك بوادر لتكوين جيش قوامه ١٥ ألف جندي : ٧ آلاف مسلم ، ٥ آلاف صربي ، ٣ آلاف كرواتي ، وهذه الخطوات لا يؤيدها الصرب الذين يرون أن الحفاظ على الوضع القائم هو الطريق الأمثل لتحقيق مقاصدهم ، حيث إنهم يشعرون بعودة اللاجئين (المهجرين) ستسرع من وتيرة مساعي الوحدة وقيام وزارة داخلية مركزية وجيش موحد لكل البوسنة والهرسك ، وأن إعادة بناء المساجد التي تشجع المسلمين على العودة مما يمثل ضربة قاصمة لمشروعهم الانفصالي ، ولهذا حصل ما حصل في بنيا لوكا .

٣ - مجرمو الحرب : قضية مجرمي الحرب الصرب من شأنها أن تتأثر هي الأخرى في

حالة إتمام الترتيبات التي ذكرت سابقاً ، ففي حالة تكوين جيش موحد وشرطة مركزية أين سيختفي المجرمون ؟

٤ - نشر الفوضى : من خلال نشر الفوضى فإن المجتمع الدولي سوف يجد نفسه مضطراً لتأجيل الكثير من المشاريع التي لا يرغب فيها القادة الصرب حتى وإن كانت ستؤدي إلى تحسين أوضاعهم المعاشية ، حيث مصالحهم السلطوية تملي عليهم سلوك درب الإجرام والمافية لتحقيق أغراضهم المختلفة فبدون الفوضى لا يستطيع القادة الصرب الاستمرار في التحكم في الأوضاع داخل القطاع الصربي .

٥ - الوضع الاقتصادي : حيث ستؤثر أوضاع عدم الاستقرار على الاستثمارات الأجنبية ، وهو ما تعلق عليه الحكومة آمالاً عريضة . وأن الأحداث الأخيرة التي حدثت في موستار ،

وتريبينيا ، وبنيالوكا تؤكد على إظهار البوسنة في وضع الدولة المضطربة التي لا تستقر فيها الأوضاع بشكل جيد، حيث يوجد ٤٠٠٠٠ ألف عاطل عن العمل ، و ١٢٠٠ شركة أعلنت إفلاسها ، وهذا ما يهدد ٢٠٠ ألف عامل لديها بالبطالة ، وهناك المسرحون من الخدمة العسكرية حديثاً والبالغ عددهم ١٥ ألف جندي ، بالإضافة إلى مشكلات السكن حيث يحتاج سكان البوسنة إلى ٢٠٠ ألف وحدة سكنية لا توجد أي اعتمادات مالية لها ، وقد عبّر علي عزّت عن تفائله المعهود بأن الأوضاع الحالية سوف لن تستمر، بل سوف تستقر الأمور وتسير على ما يرام ، إلا أنه أكد أن ذلك لن يكون قريباً ، وقال في رده على المطالبين بالتأثر «من الجنون أن نرد على الإجراء الصربي بإجراء مثله» ، وصرّح رئيس العلماء في البوسنة والهرسك

قائلاً : «الفاشية الصربية لا تزال حية» وطلب من المجتمع الدولي الحماية ، كما طالب بأن تدرج قضية بنيالوكا في اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي وقال : هذه رائحة مأساة جديدة، نحن عدنا إلى أحداث ١٩٩٢م بعد عدة سنوات ، الأمم المتحدة لن تفعل شيئاً .

وخلاصة أن ما حدث أخيراً هو هزيمة لما يسمى بالمجتمع الدولي تضاف إلى هزائمه السابقة في تحقيق الأمن والاستقرار ، وهزيمة أخرى للدعوى النصرانية التي تخفي وحشيتها تحت عباءة المحبة والسلام والتسامح، في حين أن أبشع الحروب التي عرفها التاريخ كانت من صنعها . وهزيمة للعدالة التي يستثنى منها المسلمون ولا يحصلون إلا على الكلام الذي لا يجد له في الواقع شيئاً .

المجتمع الدولي والإسلام ..

إقرار متأخر

وأخيراً صدر اعتراف دولي بأن كراهية الإسلام شيء غير محمود ولا بد من التنديد به .

جاء ذلك في «منتدي ستوكهولم الدولي» الذي أقر إعلاناً حول «مكافحة عدم التسامح» حيث ندد بالحق على الإسلام وساوى ذلك بممارسة العنف العنصري ومعاداة السامية ومعاداة الأجانب ومعاداة البشر .

وقال بيان المؤتمر الذي مثلت فيه خمسون دولة : «... إن العنصرية والتمييز العنصري ومعاداة السامية ومعاداة الإسلام ومعاداة الأجانب والتفرقة والعنف والقتل استناداً إلى اعتبارات على أساس الجنس وكل أشكال عدم التسامح تنتهك القيم الإنسانية الأساسية وتهدد

المجتمع الديمقراطي» .

هذا الاهتمام المفاجئ بالإسلام واكتشاف أنه دين إنساني وأن اضممار الكراهية له إنما يمس أكثر من خمس سكان العالم، هو قبل كل شيء التفاتة مهمة كان يجب أن يُعتمد إلى الانتباه إليها دولياً منذ أمد بعيد ، بل منذ أن بدأت مؤسسات المجتمع الدولي بالظهور إذا كانت تريد أن تتبوأ المكانة المناسبة في المجتمع البشري لأنه غير خافٍ على أحد، النسبة التي يمثلها المسلمون في العالم كله ، ولهذا كان جديراً بهذه المؤسسات أن تخاطب كل المجتمع البشري في أوان تأسيسها لكي يطلق عليها المجتمع الدولي حقاً ، وإلا فإنها تبقى وقفاً على طائفة دون أخرى وعلى مجتمع دون آخر خاصة وأن الذي يحتضنها هو مجتمع الغرب ، وبالتالي فإنها ستكون له وتصطف إلى جانبه ولا ترى ماذا

تُعاني مجتمعات البشر الأخرى إلا في حدود معينة ومن زوايا معينة لا ترفع عن هذه المجتمعات الظلم والحيث الذي يلحق بها .

ثم إن الاقرار المتأخر بضرورة استنكار المشاعر المعادية للإسلام لا يعوض مطلقاً عن التجاهل الذي لحق بهذا العدد الهائل من سكان الكرة الأرضية على مدى العقود الماضية خاصة وأنه جاء اعترافاً ضعيفاً حيث ساوى بين معاداة الإسلام ومعاداة السامية ومعاداة الأجانب وربطها كلها بتهديد المجتمع الديمقراطي .

أي أنها تبقى قراءة أحادية لأشكال الكراهية لبعض الأديان والبشر لا تخرج عن النظرة الغربية للمجتمع والنظام ، ولا تتخذ أي إجراء من شأنه أن يكف عن هذه «الكراهية» التي تتمثل بأشكال شتى وتتخذ أساليب مختلفة لتعبر عن نفسها .

وأمامنا أكثر من نموذج لهذا التعبير ، لعل أبرزه هو الآفك «سلمان رشدي» الذي أساء إلى ملايين المسلمين ، وانطلقت هذه الإساءة من أحضان الغرب نفسه ، وبعدها احتضنه الغرب ليمنع عنه الأذى الذي يستحقه دون أن يعير أي اهتمام لمشاعر هذه الملايين .

الغرب يتذرع بحرية التعبير التي يجب أن يتمتع بها الإنسان ، ولكن أية حرية هذه التي تهين أمة بأكملها ؟ ولم يرد في هذا النموذج تطبيق الحرية بتمامها ، في حين تضيق مساحتها حينما يكون الكاتب غير سلمان رشدي ، والمُساء إليه «غير المسلمين» ؟ فمثلاً حينما يكتب المفكر الفرنسي «رجاء غارودي» في «الأساطير المؤسسة للدولة اليهودية» تقام الدنيا وتملأ ضجيجاً وتشكل المحاكم ويمنع الكتاب من التداول في

الأسواق الغربية نفسها ويقاطع
الرجل دون أن تكون لحرية
التعبير أي معنى في نفس
القاموس الغربي .

هذه الثنائية في التعامل جعلنا
نشك في نزاهة الأحكام الصادرة
عن المجتمع الدولي الذي يشكل
الغرب حالياً عموده الفقري ، وإذا
صدرت بعض القرارات
والإعلانات الضعيفة فهي لذرّ
الرماد في العيون بعد أن بات
الأمر مكشوفاً ولا يسمح بالمزيد
من التجاهل لدين يفرض نفسه
بقوة أمام العالم باتباعه ومعتنقيه
الذين ينتشرون في أرجاء الأرض
أو من خلال علمائه ومرجعياته
الكبرى ودولته التي قامت في
إيران منذ أكثر من عشرين عاماً
وهم لن يُساوموا على مبادئهم
ولو على حساب مكاسبهم الآنية ،
كما في حالة فتوى إهدار دم
رشدي السارية المفعول حتى
تنفيذها .

□ من حصاد حضارة الاستكبار :

الأمية .. الفقر .. اللااستقرار في دول
جنوب العالم إفرازاً لمنظومة دول شماله
ثمانية مليارات دولار تعادل
الإنفاق العسكري العالمي خلال
أربعة أيام ، وخمس ما ينفقه
الاوربيون على الـ «آيس كريم» في
السنة . وسدس ما ينفقه
الأميركيون على التبغ سنوياً !
الاحصائية أعلاه أوردها
داعية حقوق الطفل «كايلاش
ساتيارثي» والمناسبة هي عقد
مؤتمر دولي حول التعليم
الأساسي في نيودلهي لمناقشة
تراجع مستويات التعليم رغم
الدعوة التي أطلقتها الأمم المتحدة
من أجل أن يكون «التعليم
للجميع» بحلول عام ٢٠١٥
للميلاد .

والمبلغ المذكور في السطر
الأول هو السقف الذي حاول
المؤتمرون القادمون من «٣٣»
دولة أن تصل إليه ميزانيات

التعليم الأساسي عبر حث الحكومات والمؤسسات لزيادة الإنفاق على التعليم وإيصاله إلى هذا المستوى مقابل عشر هذا المبلغ في الوقت الحاضر .

ويلقي سايتارثي تبعات الفقر على السياسة والسياسيين وهو على حق حينما يستاءل ويقول : هل نحن فقراء حقاً من الناحية المالية ؟ .. ويضيف : ليس هذا إلاّ افلاساً للإرادة السياسية العالمية والتضامن الإنساني . واستنتج أن الفقر ليس هو الذي يسبب الأمية ، ولكن الأمية هي التي تسبب الفقر . وإذا صحّ هذا الاستنتاج فلا الأمم المتحدة ولا غيرها من المنظمات الدولية أو الإنسانية تستطيع أن تقضي على الفقر أو تخفض مستوياته خاصة إذا علمنا أن هناك «١١٣» مليون طفل في العالم لا يمكنهم الحصول على التعليم الأساسي وإن هناك «٨٨٠» مليون أُمّي بالغ -

حسب مؤتمر منظّمة الأمم المتحدة في دكار بالسنگال العام الماضي - أي أن هناك نحو مليار إنسان يعانون من مشكلة الأمية بالقوة أو بالفعل تصوروا، كم سيكون العالم بائساً لو واجه هذا العدد الهائل من البشر الفقر . أو أنه في طريقه إلى الفقر لأن الجهل والأمية تعشعشان فيه .

وفعلاً فقد فشلت المنظمة الدولية في تقليل الفقر في المناطق الريفية في العالم . فقد أعلن الصندوق الدولي للتنمية الزراعية التابع للأمم المتحدة في تقريره السنوي للعام الجاري أنه أخفق في تحقيق أهدافه بتقليل مستويات الفقر .

وأكد التقرير أن التعهدات التي قطعت خلال مؤتمر كوبنهاغن سنة «١٩٩٥م» ، بتقليل الفقر في العالم بمعدل ٥٠٪ بحلول العام «٢٠١٥م» لن تتجسد، حيث لن يمكن مساعدة سوى عشرة

ملايين إنسان على التخلص من الفقر سنوياً بدلاً من ثلاثين مليوناً كما كان يُؤمل .

وقال التقرير أن بطء تراجع الفقر كان حاداً بشكل خاص في أفريقيا جنوب الصحراء حيث أن وتيرة تراجع الفقر أقل بست مرات من الأهداف المحددة .

وأضاف : أن الريف تعرّض بصورة واسعة للإهمال رغم تجمع الفقراء فيه .

وعزا الخبير الاقتصادي في الصندوق «بيترو توريلي» سبب انخفاض المساعدات التي يفترض تقديمها للفقراء الفهم الخاطئ للفقر الذي أدّى زيادة الأموال المخصصة إلى المناطق المدنية، في حين أن ٧٥٪ من الفقراء يعيشون ويعملون في الأرياف وهذه النسبة لن تنخفض إلا إلى ٦٠٪ بحلول «٢٠٢٠م» .

وحدد التقرير عدة أبعاد يتم إهمالها غالباً رغم أهميتها

القصوى في محاربة الفقر وهي الوصول إلى المساعدات والتكنولوجيا وإنشاء أسواق ومؤسسات لخدمة فقراء الريف . وفي حلقة أخرى يمكن أن ترتبط بثنائي الأمية والفقر، يخشى مسؤولون اقتصاديون دوليون من أن يؤدي الفقر المتزايد إلى إيجاد حالة من عدم الاستقرار .

وقال رئيس بنك التنمية الآسيوي «تاداوشينو» أمام مؤتمر دولي لمحاربة الفقر في آسيا والمحيط الهادئ أن الاستيفاء الناجم عن عدم المساواة يهدّد التماسك السياسي والاجتماعي، وقد يلقي شكوكاً على نزاهة الإصلاحات الاقتصادية والليبرالية والعولمة . وأضاف : أن الفقر غير مقبول

في عالم متجدد مثل عالمنا، من ناحية أشار رئيس البنك الدولي «جميس وولفنسون» إلى أن عدم

التركيز على مشكلة الفقر سيتسبب باضطرابات خاصة، وأن سكان العالم في ازدياد ويتوقع أن يبلغ عددهم ثمانية مليارات نسمة خلال ربع قرن .

وأوضح «شوجي نيشيموتو» من قسم الاستراتيجية والسياسة في بنك التنمية الآسيوي أن الدول التي سيكون توزيع الفوائد فيها غير عادل، فلن يكون بإمكانها المحافظة على الاستقرار .

إن عقم الجهود التي تبذل من أجل تقليص الفقر حتى وإن كانت مخصصة يعود بالدرجة الأولى إلى أسباب خارجة عن إطار المشكلة الداخلية المتمثلة في تناوب الأدوار بين الأمية والفقر وعدم الاستقرار . وتكمن الأزمة المستفحلة والمرشحة للتصاعد خلال السنوات المقبلة في المنظومة العالمية وما يفرز بين الحين والآخر لدى دوائر مرتبطة بها في مختلف الاختصاصات

كالاقتصاد السوق والعولمة والنظام العالمي الجديد وإلى آخره من المفردات التي تسوّق للجيل البشري الحاضر . ومن هذا المنطلق حذر الخبير الآسيوي «ليشيموتو» من أن ظاهرة العولمة قد تلفت أنظار الرأي العام إلى فقدان المساواة ، وهذا حاصل فعلاً ، وإلا لماذا هذا الترف والبذخ والتخمة في جانب الفقر والأمية والجهل يُمثل المشهد الأكثر انتشاراً على الكرة الأرضية ؟ وحقاً «ما جاع فقير إلا بما متع به غني» كما قال الإمام علي عليه السلام .

* * *

□ أميركا

سباق التسلع .. ومشروع الدفاع

الصاروخي، لمصلحة من ؟

حسنت حكومة بوش أمرها لصالح تنفيذ مشروع الدفاع الصاروخي والذي تركز فكرته

على أن تكون الولايات المتحدة الأميركية قادرة على الفوز بأيّ صراع أو حرب ما ، في أيّ مكان من العالم دون مجازفة أو مخاطر .. حيث كان الإعلان عن إقامة نظام دفاعي صاروخي أميركي متوقعاً منذ وقت طويل ، ففي عهد الرئيس الأميركي السابق «ريغان» وضع مشروع متكامل للدفاع الصاروخي باسم مبادرة (الدفاع الاستراتيجي) وشاع تعريفه بإسم حرب النجوم وهو مشابه للمشروع الحالي، وكان هدفه حماية الولايات المتحدة من هجمات صاروخية سوفيتية في ظل الحرب الباردة .

تغير الوضع وتجاوز العالم الحرب الباردة ووقعت تغيرات عديدة، لكن الذي لم يتغير هو اتجاه الاستراتيجية الأميركية العسكرية . كان الرئيس كلنتون قد صرف النظر عن نظام دفاعي

استراتيجي شامل وواسع النطاق، واختصره على نظام إقليمي تكتيكي مضاد للصواريخ . حيث قدمت لجنة رامسفيلد والذي كان يرأسها وزير الدفاع الحالي تقريراً بالمبررات الضرورية لتطبيق المشروع ، وتوصل إلى نتيجة تقول : إن الولايات المتحدة يمكن أن تتعرض إلى تهديدات من جانب كوريا الشمالية وإيران وعلى ضوء وأساس التحليلات المختلفة للتحديات الجديدة أصدر الكونغرس الأميركي عام ١٩٩٨م بأغلبية كبيرة من الأصوات القانون الخاص بدرع الصواريخ والذي ينص على أن تنشئ الولايات المتحدة نظاماً دفاعياً فعالاً مضاداً للصواريخ عندما تتوفر الإمكانيات المادية والفنية .

ووقع كلنتون هذا القانون عام ١٩٩٦م وأعلن عن اتخاذ قرار

نهائي بشأنه (نظام الدفاع الصاروخي) في منتصف عام ٢٠٠٠م لكنه لم يفعل ذلك . وترك القرار والعمل به لخلفه ، حيث يعد فشل جميع التجارب لفحص فاعلية نظام الدفاع الصاروخي من أهم أسباب عدم تنفيذ المشروع في موعده المقرر ، إلا أن الجدل الكبير الذي أحاط بالمشروع سواءً على المستوى الداخلي أو الخارجي ، أدى إلى تردد كلتوتن في اتخاذ القرار . ولا تقتصر حجج معارضي النظام الدفاعي الصاروخي الجديد على نتائج التجارب السلبية التي تشكك في قدراته وفاعليته ، وإنما تشمل أيضاً على المشكلات الفنية وتكاليفه الباهظة ، والشك في ضرورته الفعلية وأثره السلبي على العلاقات الخارجية ، وعلى الرغم من كل المشكلات المحيطة بالمشروع فمن المثير للدهشة

تلك الجراءة والثقة التي ظهر بها وزير الدفاع الأميركي وهو يعلن في منتدى الأمن الدولي والذي عقد في ميونيخ عن قرار تنفيذ مشروع النظام الدفاعي أمام المختصين الدوليين والسياسيين العاملين في مجال الأمن ، ذلك الجمهور الذي لم يرحب بالمعزوفة العسكرية الأميركية ، بل صدرت ردود فعل غاضبة وناقدة ورافضة ، وقد هيأت الولايات المتحدة ردها على ما جاء من تعليقات وتمكنت من دفع الاحتجاجات بسهولة مرة وبوقاحة مرة أخرى .. حيث اعتمدت الإدارة الأميركية في تصريحاتها على نتائج أبحاث رامسفيلد وعلى تقارير أخرى بما فيها تقرير المخابرات المركزية والذي صدر قبل عامين يدرس فيه الأخطار المحتملة على الولايات المتحدة؛ حيث علّلت

أميركا بذلك لتظهر حاجتها الماسة لحماية نفسها من الخطر من قبيل إطلاق صاروخ دونما قصد من جانب روسيا أو الصين أو لردع التهديدات المحتملة بأسلحة الدمار الشامل ممن تطلق عليهم بـ«الدول المارقة» كإيران وكوريا الشمالية .

ولهذا المشروع أبعاد عالمية حيث يقول مستشار حكومة بوش ووزير الخارجية الأسبق هنري كيسنجر : «ليس لأي دولة أن تطلب متناً البقاء معرضين للإصابة المطلقة» وبالطبع لا أحد يقبل ذلك ، وإنما يتساءل الجميع ما إن كانت التهديدات الأميركية المزعومة هي حقاً بذلك الحجم والخطر الكبيرين، ومما يجعل أكبر قوة عسكرية معرضة للإصابة المطلقة في العالم إن بقيت بدون نظام دفاعي .

وإذا كان لهذا المشروع ضرورة كبيرة إلى درجة تبرز لقبول نتائج سلبية محتملة على نظام الأمن الدولي والذي امتاز منذ نهاية الحرب الباردة في أبعاده الأمنية والعسكرية وتوجيهه نحو خطر الأسلحة المتطورة وعدم انتشارها وخاصة مراقبة الأسلحة النووية. وفي هذا المجال اتفاقات دولية عديدة بين أميركا والاتحاد السوفيتي سابقاً والتي من أهمها (معاهدة الحد من الأسلحة المضادة للصواريخ العابرة للقارات «A B M» والتي أبرمت بين واشنطن وموسكو في العام ١٩٧٢م والتي من شأنها حظر نشر نظام دفاعي صاروخي شامل وتسمح فقط لكل الطرفين بإقامة موقعين محددين داخل حدودهما للحماية من الصواريخ، وبالتالي تمنع هذه المعاهدة

استخدام مركبات فضائية لنظام دفاعي مضاد للصواريخ وهنا تتمحور المشكلة الأساسية لنظام الدفاع الصاروخي الأمريكي ، فالمشروع المضاد للهجمات لا ينسجم إطلاقاً مع الهيكل الأساسي للمعاهدة «A B M» والتي محتواها ، ينصب حجاباً أمنياً ضد الصواريخ بما يغطي الأرض الأمريكية بأكملها، كما أنه يعمل خارج نطاق الغلاف الجوي للكرة الأرضية ويعتمد على الأقمار الصناعية ، وهذا ما يرغب أميركا على إيجاد حل لهذه المعاهدة قبل تنفيذ المشروع إما بإلغائها بموافقة موسكو أو من جانب واحد أو بتعديل بنودها بموافقة الطرفين مما يجعلها تفتقد قيمتها من حيث فكرتها الأساسية ، فالغرض من المعاهدة هو منع تحصين الدول الكبرى من الأسلحة البعيدة المدى بما يحد

من تجربتها على الإقدام بتوجيه الضربة الأولى ، ولهذا تتمسك روسيا بأن الولايات المتحدة انتهكت معاهدة «A B M» وتشير إلى أن هذه المعاهدة تمثل حجر زاوية للاستقرار الاستراتيجي، حيث حذر سكرتير مجلس الأمن الروسي من أن البناء قد ينهار من جراء انتهاك المعاهدة ، وقد قامت روسيا كرد فعل حول القرار الأمريكي من (نظام الدفاع الصاروخي) باتخاذ الخطوات التالية :

* زيادة نفقاتها العسكرية وتحديث قدراتها على الردع النووي .

* عمل الجيش وموظفوا مجلس الأمن الروسي على ما يسمى (بجواب عكسي) معادل الخطط الدفاعية الأمريكية .

* يهدد الرئيس بوتين بأن بلاده سوف تخترق جميع

المعاهدات القائمة لمراقبة التسليح، بما في ذلك معاهدات «MSTART» في حالة أن واشنطن تستغني عن معاهدة «B M A» ومن طرف واحد، وتتبع بكين خطى موسكو بالإعلان عن توسيع ترسانات أسلحتها، ويبدو أن الإدارة الأميركية تحاول أن تهوّن من شأن خطورة الدفع بنشاط تسليحي وعسكري جديد على مستوى عالمي؛ لأنها تعتمد على معاناة غيرها مثل روسيا وما تعانيه من مشكلات اقتصادية ومالية، والأولى لواشنطن أن تعيد النظر في أبعاد توجهها الانفرادي الجديد في سياستها الدفاعية والأمنية، فهناك انتهاك لاتفاقية دولية، وتعليل الانتهاك، بأن الوضع لا يناسب مصالح الولايات المتحدة، أو بحجة أنها معاهدة قديمة، هذا التعليل قد

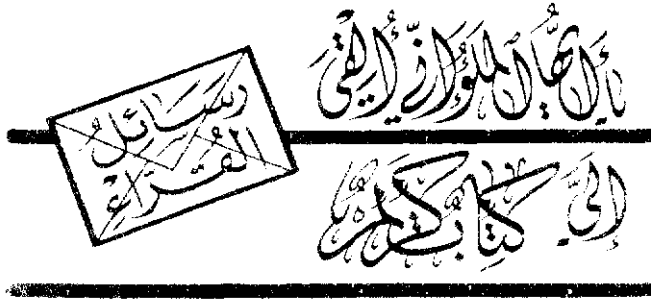
يدفع روسيا ودولاً أخرى للتخلي عن التزاماتها بتلك المعاهدات، وقد تميل أيضاً إلى خرق اتفاقيات أخرى مما يؤدي إلى وضع سلبي ومعقد في العلاقات الدولية، فالصين وروسيا تخشيان من أن النظام الدفاعي الجديد يستهدف تحييد ترسانتي أسلحتهما النووية وقوتهما العسكرية، ولهذا ترسلان إشارات تحذيرية برفع عدد صواريخهما وتطويرها للحفاظ على التوازن الاستراتيجي في نظام عالمي متعدد الأقطاب. وهذه هي صورة من الصراع التسليحي بين الدول الكبرى في مجال الدفاع الصاروخي أو النووي وما توصلوا إليه حيث يعرض كل منهم ما لديه من قوة أمام الآخر وبأي شكل من الأشكال.

أما ما يخص الدول الضعيفة

وما لها من خيارات محددة ، إما الاستسلام للأمر الواقع أي التبعية لأي دولة تختارها والانضواء تحت برنامجها التسليحي ، أو ربما تركيز بعض الدول على جهود تتناسب مع إمكانياتها ، مثل المحاولة الرامية إلى الحصول على أسلحة غير متعارف عليها (خارج حدود السلاح التقليدي) للقيام بعمليات أو حروب صغيرة للتشويش على النظام العالمي القائم إن صح التعبير .

إن السياسة الاستفزازية الأميركية تجاه بعض الدول أو التأييد المتحيز لبعض الدول على حساب دول أخرى دون أخرى وعلى حساب أمن واستقرار مناطق عديدة في العالم ، كما في حالتي تايوان وإسرائيل الغاصبة ، تنطوي على أعمال تسمم المناخ العالمي وتنعكس في مواقف

معادية للأميركيين . وهنا تلجأ واشنطن إلى أساليب وخطط للدفاع الذاتي مثل الإصرار على تنفيذ مشاريعها والتي تطمح من خلالها استغلال أكبر عدد ممكن من التقنيات الحديثة والاستفادة منها في مجالها الأمني والدفاعي ، ولكن سعيها إلى الترفع والسيطرة المطلقة على العالم يشكل إزعاجاً على التوازن والاستقرار في العلاقات الدولية .. وإن تحديث وتطوير إمكانياتها العسكرية والدفاعية وتوسيعها عبر خطط الدفاع الصاروخي يفسح أمامها مجالاً لفرض سياسة القوة المبنية على الأنانية والمصالح الخاصة على حساب الدول الأخرى ، لتجد الدول الضعيفة نفسها تحت رحمة الولايات المتحدة أو بالأحرى تحت رحمة تأثير انعدام الرحمة لديها .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإسلامية المعاصرة بطريقة أقل
ما يقال عنها أنها تدلج إلى القلوب
ناهجة نهجا استمدت من فقه
الأئمة الأطهار من أبناء النبي
المختار ﷺ، وقد رأيت أن أبعث
إليكم هذه الرسالة لأمرين:
الأول: الاستزادة من العلم
النافع من علوم آل البيت ﷺ،
والثاني: مشاركتي بقصيدة
الغدير ومن أبياتها المنتخبة:

الأخ رئيس تحرير
رسالة الثقلين حياكم
الله، تحية الإسلام: السلام عليكم
ورحمة الله وبركاته.
وبعد.
لقد اطلعت على أحد الأعداد من
رسالة الثقلين العدد (٣٥) التي
احتوت على مواضيع لا يستطيع
قلمي التعبير عن تقييمها والتنويه
عنها حيث أنها تعالج القضايا

ضرب الهوى أعشاره ومثينه
غيداء فاتنة القوام مليحة
ملساء ناعمة الخدود أسيلة
تلك العيون هي السهام ونبلها
للله در جمالها ودلالها
يالائمي في حبها كم لي وكم
ألويت حبل هوائها متوجهاً
حيث الندى والجود حلّ وحيثما
وإلى أمير المؤمنين مضت بنا
بيضاء تحمل في حشاها أمة
حتى تحل بسوح كل فضيلة
حيث الإمام السيد البطل الذي
صنو النبي وباب حطة إنه
هو راية الدين الحنيف وسيفه
ولاد رب العرش منه ولاية
قالوا بخ لك بالولاية إنها
أصبحت مولى المؤمنين جميعهم
اليوم عيدك يا علي وكل من
هذي الجموع بباب حبك خلقت
من كل صوب قد أتوك وإنهم
يا جامعاً لشمائل الأخلاق يا
عدنا إليك تحننا أرواحنا

متمكناً من قلبي الخفاق
دعجاء في وله وفي إطراق
كسلى فوق غلائل الأرتاق
وسجالها في ساحة الأشواق
وبهائها وحديثها الرقراق
من لوعة وتعل وفراق
نحو الهدى وصدارة الأعراق
حلّ التقى ومكارم الأخلاق
سفارة من غير ذات عتاق
وتطير حين تطير في الأطباق
وتحل في شرف بأرض عراق
قهر الجيوش بساعد ورقاق
للوافدين سحائب الإغداق
ومبيد كل ضغينة ونفاق
ظلت كطوق في عُرى الأعناق
بك يا علي بهية الإشراق
وإمامهم عن إمرة الخلاق
والاك من متشيع مصداق
هاقد أنت بالعهد والميثاق
جعلوك يابن الصيد في الأحداق
بدراً زها فأزال كل محاق
شوقاً إليك فاقبل مسيرنا التواق

السيد ابراهيم أحمد قاسم المداني

اليمن - صعدة

رسالة الثقليين مجلة الفيض

الزاخر بعلوم أهل البيت عليه السلام

إن لي الشرف العظيم أن أكون عضواً قارئاً لكل ما تقدمونه من هذا الفيض المتدفق الزاخر بعلوم أهل البيت عليه السلام ، وأسألكم بحق الرسول محمد صلى الله عليه وآله أن توفروا لي كل الأعداد السابقة من أول عدد لهذه المجلة الإسلامية الجامعة وإلى آخر عدد منها. لأنني عشقتها لأول وهلة وقعت عيني عليها وتمنيت لو كان لي جناحان حتى أطيّر بهما إليكم واشتري كل الأعداد السابقة، أرجوكم أرجوكم أرجوكم أن توفروا لنا الأعداد السابقة ومن أول عدد لرسالة الثقليين للمجلة، لأنني متأكد أن فيها من الفكر والمعلومات ما ينتعش منه القلب وتهلأ به الجوارح خصوصاً وأنا في هذه الغربة لا عائلة ولا صديق ولا

قريب، عازلاً نفسي عن كل الناس والتفكير بالآخرة، وكيف هي النجاة من المراحل المقبلة عذاب القبر، عالم البرزخ، يوم المحشر، يوم الحساب، ... الله المعين ولا خاب من كان الله معينه ومحمد وآله شفعاءه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حسين عدنان الهاشمي

الدانيمارك

* * *

مجلتكم الغراء تزود المسلم

بالفكر والثقافة الإسلامية

إنني سعيد بكتابة هذه الرسالة الأخوية لأعبر عن مشاعري تجاه مجلتكم لرصانتها ولما فيها من المواضيع المهمة المتنوعة لأهل البيت عليه السلام ولما تقوم به من تزويد للقارئ المسلم بالإمكانات الفكرية والثقافية لمواجهة التحدي الذي يواجهه الإسلام

والمسلمون، ومحاولات حرفهم
عن الدين الإسلامي الحنيف .

لذا أرجو منكم بأن تقبلوني
ضمن أصدقائكم الذين
تشملونهم برعايتكم وعنايتكم
الدائمة وأن تصلني المجلة
باستمرار، وتقبلوا مزيد شكري
واحترامي .

عبد الخالق أحمد
اليمن - صعدة

* * *

«رسالة الثقلين» معين زآخر معطاء،

سلام قولاً من رب رحيم. تحية
تقدير واكبار.. وبعد :

إن لمجلتكم الموقرة:
الإسلامية الجامعة أثرها الفعال
في نفوس طلاب العلم والمعرفة،
والاستفادة من معينها الزاخر
المعطاء، في مختلف أبوابها

الثقافية، وتعتبر الكوة التي يمكن
للمتقف الاطلاع عبر نافذتها على
العالم كافة، واشتياق عشاقها إلى
صدورها بفارغ الصبر.

وكنا منتظرين صدورها
باستمرار، غير أننا قد فاتنا العدد
الخامس والعشرون، نرجو التفضل
بإرسال العدد المذكور مشكورين
لإمكان متابعة البحوث المتراصة
وإكمال الأعداد التي عندنا .

وتفضلوا بقبول فائق التقدير
والاحترام .

عضو الهيئة العمومية للمجمع العالمي
لأهل البيت (عليه السلام) - الجمهورية الإسلامية
في إيران - قم المقدسة

حسين الشاكري

* * *

زودونا من علوم ومناهل

أهل البيت (عليه السلام)

أكتب رسالتني هذه وذلك
شعورا مني بوجود نقص في
المراجع والمصادر ، وكذا الكتب

الرئيسية والتي تتحدث عن عقيدتنا ومذهبنا وفقهنا الجعفري والذي نحن بأمس الحاجة إليها في الوقت الراهن، حتى تتمكن مكتبتنا «المكتبة الحسينية» بتزويد قرائها بما يفي ومتطلبات العصر على الأقل، وأن يتصدى الأخوة من أتباع ومحبي أهل البيت (عليه السلام) لأعدائهم ومن يدور في فلكهم بعد تزويدهم من علوم ومناهل أهل البيت (عليه السلام)، وكذا من العلماء الأعلام، لذا نرجو التفضل بتزويدنا بأعداد مجلتكم الغراء وغيرها من إصدارات مجمعكم المبارك.

وفقنا الله وإياكم لخدمة الإسلام والمسلمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سكرتير المدرسة الجعفرية

والقائم بأعمال المكتبة الحسينية

مصطفى أنور علي فاضل

عدن - اليمن

* * *

رسالة الثقلين بلسم لجراح العقول

لقد اطلعت عند بعض الإخوان الذين يهتمون بمراسلتكم على عدد لمجلة الإسلام «رسالة الثقلين» فأعجبت بها كثيراً لما رأيت فيها من درر الذكر ومعالم الشريعة الغراء وبلسم جراح العقول التي شغفت بالقراءة، فلقد غمرتني السعادة حين قرأتها وأحببت أن أراسلكم لكي أطلع على معالم مدرستكم الكبرى وعلى نتاجكم العلمي والفكري الذي تثرون به عقول الكثير ممن سعدوا بمراسلتكم، لأن مثل هذه المجلة لا توجد لدينا في اليمن لبعيد المسافة وندرة مثلها في البلاد.

أعزائي .. إن كل عقل بشري بحاجة إلى إثراء وتروية بكل فكر منتزع من روح الإسلام، ومحتاج إلى توضيح لكل مبادئ الشريعة الغراء التي ألبسها العدو الحاقد

لباس العنجهية والترف، وجنّد
لنشرها بعض المسلمين الذين لا
يفهمون من الدين إلّا ترديد
الأفاض التي اعتادوا تقليدها عن
سماع فقط، ولا يفهمون لها معنى
ولا يعرفون لها مغزاً. فمجلتكم
الإسلامية تخدم الإسلام ببلسمة
مثل هذه العقول وتحويلها إلى
عقول تنشر مبادئ الإسلام
السمحة عن وعي وإدراك فتؤدي
دورها المنشود على أكمل وجه،
وهذا هو ما يرضى الله ورسوله.
والمؤمن يحب أن يكون نبراساً
يشرق بالإسلام ويرفع من
معنويته بكل حياته وسيرته.

أعزائي أخيراً أتوجه بكل شكر
وتقدير على جهودكم الكبرى
لخدمة الإسلام ونشر تعاليمه
السمحة التي طالما أنقذت أنفساً
خنقتها حبال الجهل؛ فكم هو فخر
أمام الله والإسلام ورسول
الإسلام أن تقدموا مثل هذا العمل
المقدس. والسلام عليكم ورحمة

الله وبركاته.

محمد حسين يحيى سالم

اليمن - صعدة

رسالة الثقلين دوّنت عنوانها في قلبي

ندعو الله سبحانه أن يؤيدكم
بنصره ويبارك جهودكم
المبدولة في سبيل نشر المذهب
الحق مذهب أهل البيت عليهم السلام، ونود
أن نخبركم بأن مجلتنا رسالة
الثقلين التي دوّنت عنوانها في
قلبي، وصلت إلينا وقد أثلجت
صدورنا وغمرتنا الفرحة
والسرور، وأعجبنا بمواضيعها
الهادفة والمفيدة التي ترفع من
مستوى ثقافتنا الإسلامية. لذا
نرجو منكم دعمنا ثقافياً وفكرياً
وإمدادنا بها باستمرار وبغيرها
من الكتب الإسلامية لكي نتسلح
بها لمواجهة أعداء الإسلام.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد مصطفى

السنغال

رسالة الثقلين مجلة إسلامية جامعة

قسمة الاشتراك

الاسم :

العنوان :

.....

المدينة :

البلد :

المهنة :

مدة الاشتراك :

ابتداءً من :

.....

عدد النسخ :

بلد	الاشتراك
الارسال	السنوي / لمدة ٦ أشهر

□ الجمهورية الاسلامية	٢٠٠٠	١٠٠٠٠
في ايران (بالريال)		
□ باقي دول العالم بالدولار	٣٠	١٥
الأميركي (أو ما يعادلها)		

□ برفاق اشتراك □ صك □ حوالة بريدية
أرسل هذه القسيمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي :
* الجمهورية الاسلامية في ايران . قم . ص . ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥

.....
الاشتراكات :

□ داخل الجمهورية الاسلامية في ايران تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٢٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على
العنوان التالي :

الجمهورية الاسلامية في ايران - طهران - بانک ملی / شعبه ولايت - خيابان فلسطين جنوبی - رقم
الحساب الجاري ٥٥٩١٦٠٠٦ (بالريال) - مجلة رسالة الثقلين .

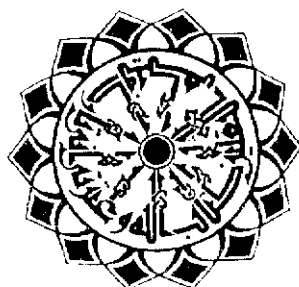
□ قيمة الاشتراك السنوي في الخارج (٣٠ دولار أميركي أو ما يعادلها) تسدد بحوالة مصرفية على العنوان
التالي : (جميع فروع بانک ملی في خارج البلاد) .

Bank Melli, Iran : (55916006)

ثمن النسخة :

□ الجمهورية الاسلامية في ايران ٥٠٠٠ ريال .

□ وفي باقي دول العالم ٧ دولارات أميركية أو ما يعادلها .



AHL UL BAIT
WORLD ASSEMBLY

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 10, No. 39, October - Dec. 2001